ايفـان الرهيـب

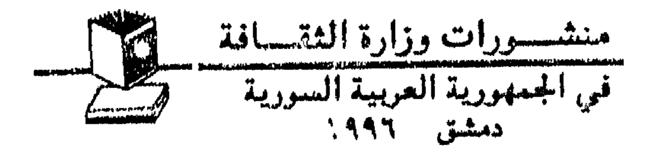
اول القياصرة

ستيفن غراهام



أوّل القياصرة

ترجمة:
يوسف شلب الشام



العنوان الأصلي للكتاب :

Stephen Graham

Ivan
Le Terrible

Le premier Tsar

(1530 - 1584)

Traduit de l'anglais par A.-H. ponte

ايفان الرهيب أول القياصرة = Ivan le terrible / ستيفن غراهام؛
ترجمة يوسف شلب الشام . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . ـ
٢٧٢ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٩٢٣ر١ : فاسيلفيتش ، ايفان غ ٢ ـ العنوان
٣ ـ العنوان الموازي ٤ ـ غراهام ٥ ـ شلب الشام

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ٦٩٩ /١٩٩٦/٦

الفصل الاول

الكريملين

يعتبر نهر موسكفا الصغير الذي يربط الأوكا بالفولغا بداية لطريق مائي يتجه نحو الشرق حتى يصل الى بحر قزوين . وقد بنى يوري دو لغوروكي أمير سوزدال في نحو من عام ١١٤٦ حصنا أطلق عليه اسم موسكفا(*) على تلة صغيرة تشرف على النهر وتقع بين سهول تسترها الغابات ما لبث أن تجمعت حوله مجموعة من الاخصاص الخشبية التي اصبحت اصلا لمدينة ستغدو حاضرة كبرى في مستقبل الايام . كانت قرية في بقعة مضيئة من الغابة ما لبثت أن تحولت الى مركز تجـاري والكنيسـة الاولى التي بنيت فيها كان اسمها **« منقذنا سيد الغابات »** ، وبقيت هذه المنشأة الغامضة الواقعة بدون تاريخ في اقصى ممتلكات آل سوزدال في منجى من الدمار خلال مائة عام .

ثم خرج جنكيز خان من آسيا كالاعصار على رأس شعبه من التتر وهو يحرق ويذبح حتى وصل الى أبواب كييف ، ولم يجد هؤلاء التتر المغيرون موسـكو في غزوتهم الاولى التي تمت في عـام ١٢٢٤ ، أمـا في غزوتهم الثانية عام ١٢٣٧ فقد احرقوها وقتلوا البالغين وخطفـوا الأولاد عبيدا وقضى أمير سوزدال نحبه اثناء القتال ، ثم أتى ميشيل امـير نوفغورود وأخـو الكسندر نيفسكي الشهير فأعاد بناء المدينـة وارتفعت موسكو من الرماد وغدت إقطاعة لامارة نوفغورود الشمالية ،

*** هي التي ستعرف باسم موسكو في الغرب** — المترجم —

ولكن التتر عادوا فدمروها من جديد بعد خمسين عاما من اعادة بنائها حتى قام دانيال امير نوفغورود واعاد انشاءها للمرة الثالثة .

بيد ان المدينة اعيد انشاؤها باذن من البرابرة وغدت محمية للتتر واصبح على اميرها دانيال ان يقدم خضوعه المنتصرين وان يدفع لهم جزية سنوية . وتزوج جورج بن دانيال من اخت الخان الكبير واستخدم جيشا من التتر في حروبه ضد الاخرين من الامراء الروس فانتصر عليهم ووحد أراضي نوفغورود وسوزدال وغدت موسكو مقر اقامته مدينة كبيرة .

ووصلت موسكو عن طريق الوراثة الى ايفان الاول امير فلاديمير وشقيق جورج فاضافها الى امارته واستولى ايضا اثناء حكمه على أوغليتش وغاليتش وبيلوزيرسك . وكان السلطان التتري يريد منه أن يجعل فلاديمير عاصمته ولكن ايفان وجد نفسه اكثر انجذابا الى موسكو التي ساهم في تجميلها حتى غدت مدينة بديعة ، وفيها بنى كاتدرائية الصعود Assomption والاوزبنسكي سوبور ورفع حول التلة أسوارا عالية من خشب السنديان . وكان يطلق على هذا النوع من التحصين اسم كريمل Kreml مشتقا من كلمة تترية . وقد أحاطت الاسوار بالكاتدرائيتين والكنيستين وبمقر اقامة ايفان الاول وبيوت اصدقائه وكان هذا هو الكريملين الاول .

وقد احرقت هذه الاسوار الخشبية واعيد بناؤها مرات عديدة . وأخيرا في عام ١٣٦٧ استبدل بها سور من الحجارة فظهرت بذلك ارادة روسيا في أن يعظم شأنها وتنتصر على التتر بتغيير المادة التي كانت تستخدمها في البناء ، ولو أنها كانت أمة مستضعفة لقنعت بحصن من الاخشاب . ولم يقتصر الامر على بناء الكريملين بالحجارة وانما جعلت فيه أماكن المدافع . ذلك لان الموسكوفيين . كانوا قد عرفوا استخدام البارود مباشرة بعد بقية الشعوب الاوروبية في الوقت الذي كان فيه التتر لا يزالون يفضلون السهام والحسام .

وكان التتر قد اعتنقوا الديانة الاسلامية قبل اعتناق الروس للديانة المسيحية ، فامتدت بذلك الخصومة بين الهلال والصليب من شمالي افريقيا حتى آسيا واوربا ، والحرب المقدسة التي انتهت مع آخر حملة صليبية عام ١٢٧٠ تابعت مسيرتها بعد ذلك في روسيا خلال مائتي عام . وعلى الرغم من أن دوقات موسكو الكبار Grands-Ducs كانوا تابعين للقبيلة الذهبية(*) فان الحرب كانت تتوالى على الرغم من هذه التبعية . وكان اشهر المتمردين ديميتري الذي كانوا يسمونه دونسكوي بعد انتصاره الكبير على السلطان مامي على ضفاف الدون . وكان ديمتري جنديا صاحب رؤى يؤمن بشعائر دينية كما يؤمن بقوة السلاح ، وقد حمل معه الى المعركة ايقونة السيدة العذراء .

كل ذلك جرى في عام ١٤٣٠ .

اما الفراندوق التالي الذي عقد له لواء الشهرة فكان إيفان الثالث (١٤٧٢) الذي مد حدود موسكوفيا الى الشمال الشرقي حتى مصب البتشورا في المحيط المتجمد الشمالي واستولى على بيرم Perm وثار على القبيلة الذهبية .

وكان التتر يستخدمون غراندوقات موسكو من أجل فرض الضرائب. وعلى الرغم من الانتفاضات الدورية التي كانت تقوم بها موسكو وما تحرزه على ظالميها من انتصارات بين الآونة والأخرى فإنها كانت تدفع لهم دائماً إتاوة هامة ثمناً لامتيازاتها واستقلالها الذاتي ، وكان التتر والسلاف كلاهما — مؤيدين بقوة السلاح — يفرضون الضرائب على بقية المدن الروسية . وقد فرض نير التتر نفسه ما بين عامي ١٢٣٧ — ١٤٨٧ دون انقطاع على روسيا ، وشهد عام ١٤٨٧ أول تمزيق لسلطان القبيلة الذهبية . فقد كان التتر قد علموا الموسكوفيين الضراوة والشراسة وجعلوهم يتقاتلون فيما بينهم من اجلهم وعاشوا على حسابهم خلال

---

* القبيلة الذهبية هي القبيلة التترية التي كان لها لواء السلطة في روسيا — المترجم —

قرون ، ولكن هذا النظام اضعفهم وقضى على ما فيهم من صفات الشجاعة والإقدام . وهكذا تجرأ إيفان الثالث على أن يرسل هدايا بدلاً من الإتاوة المعتادة ، ورداً على مطالب الخان قضى بإعدام من ارسلهم اليه من السفراء . فلجأت القبيلة الذهبية عندئذ الى السلاح ، ولكنها عندما اصبحت في مواجهة الجيش الموسكوفي أدركها الخوف ورفضت القتال وقام جنود الخان فقتلوه .

وبعد ذلك استولى جيش إيفان على قازان واختار من بين التتر واحداً لحكم مقاطعة الفولغا ، وازدادت قوة موسكو زيادة عظيمة واضاف إيفان الثالث الى شعاراته النسر ذا الراسين الذي يتطلع الى الغرب والشرق ، الى اوروبا وآسيا في الوقت نفسه . ومات إيفان عام ١٥٠٥ تاركاً ابنه ڤاسيلي الثالث وريثاً له من بعده .

وڤاسيلي الثالث هذا هو والد إيفان الرهيب . وكان قد تزوج من امرأة روسية ، ولكن بما انها لم تنجب له ولداً خلال عشرين سنة من الزواج فإنه أدخلها أحد الأديرة وتزوج امرأة ليتوانية اسمها هيلين غلينسكي تنتسب الى عائلة كاثوليكية ، لذلك لم تعترف الكنيسة الأرثوذكسية بهذا الزواج ولم تشأ أن تعترف بطلاقه من زوجته الأولى. عند ذلك لجأ ڤاسيلي الثالث الى بطريرك القدس يطلب منه الرأي ، فلم يعترف هذا بدوره بالزواج بل تنبأ له كما يروى بأوخم العواقب : « سيكون ابنك خبيثاً وسيجتاح الرعب ممتلكاتك وستجري أنهار من الدم وستذل رؤوس الأسياد وتفترس مدائنك النار » .

وقد دام حكم ڤاسيلي الثالث عشرين عاماً عاد خلالها التتر الى قرب أبواب موسكو فأبعدوا عنها بالأموال وعقد الدوق الكبير معاهدة جديدة اعترف فيها بتبعيته لهم . ونهب التتر البلاد وعادوا محملين بالغنائم عندما هاجمهم ڤويڤود أمير ريازان فهزمهم وأجبرهم على عقد الصلح ولم تعد موسكو تدفع الجزية وأصبح بإمكانها أن تغدو امارة أوروبية منذ ذلك الحين .

اصبحت المدينة الآن على سعة كبيرة ، فهي تضم مائة الف من السكان يسكنون في اربعين الف منزل . وكانت ترتفع فوق سور الكريملين ذي الفتحات أبراج بيض ، وتبدو من خلفه قباب الكاتدرائيات المذهبة والاسقف المسطحة لمنازل الامراء والقصور . والى أسفل هذه المدينة ومن حولها كانت تمتد موسكو الخشبية حيث يسكن الشعب وحيث يمتد محيطها غير المحصن الى ما لا يقل عن عشرين كيلو متراً . وكان يخترقها شوارع عريضة بعضها مبلط بالأخشاب وبعضها الآخر يبدو في معظمه في فصل الصيف وكانه انهار من الوحل . ويمكن للمرء أن يرى فيها سوقاً مفتوحة ومخازن وحوالي ستين كنيسة .

وعلى الرغم من النزيف الذي جعل ثرواتها تذهب خلال قرنين من الزمان الى القبيلة الذهبية فإن موسكو غدت في رغد من العيش . فقد كان يوجد بين اسوار الكريملين كنوز ضخمة من الذهب والأحجار الكريمة وضعت بخاصة تحت حماية الكاتدرائية كما كانت توجد صور رائعة الإعجاز . وكانت السجف ذات النسيج الذهبي تزين كل منازل النبلاء . و ثياب الدوق الكبير الذي لم يصبح قيصراً بعد كانت بالغة الجمال ، وبلاط موسكو كان يتمتع بابهة بربرية ما لبثت ان اغتنت واصبحت أكثر غموضاً بما ادخل عليها من ترف بيزنطة واحتفالات الكنيسة الأرثوذكسية .

وكان النبلاء يأكلون في صحاف دقيقة من الذهب ويشربون بأكواب من المعدن نفسه . وفي داخل الكريملين في القصور والكاتدرائيات كوم من الذهب اكثر مما يوجد منه نسبياً في اي مكان آخر ، فحب الذهب ولون الذهب الذي يبدو في أجلى مظاهره في الإيقونات كانا يميزان روسيا الحديثة التي عرفت من التتر قيمة الذهب المعبر عنها بالدم .

بعد تحررها من نير التتر ولدت روسيا الحديثة . وكانت تمتد من الفولغا الشمالي الى الدنيير ومن المحيط المتجمد الشمالي الى الدون . كانت روسيا بدون سيبريا وبدون سهوب الفولغا ولا القوقاز والقرم

وأوكرانيا الغربية وبدون البلاد الواقعة على سواحل البلطيق . ومع ذلك كانت دولة قوية مؤلفة من مساحات شاسعة اندرج امراؤها الصغار تحت لواء دوقات موسكو الكبار واعترفوا باندماج ممتلكاتهم في امارة موسكو . وكان سكانها من الجنود والفلاحين والحرفيين والتجار والكهنة والرهبان . وكانت الارض تعطي مواسم غنية والشعوب لا تعرف الجوع . وكانت التجارة تجري قصراً مع الشرق حتى وصلت الى بكين البعيدة نفسها واتصلت مع قوافل آسيا الوسطى بواسطة الطرق المائية الكبرى . وعلى رأس الجسر التجاري الذاهب الى الشرق كان سوق نيجني نوفغورود الكبير الواقع عند التقاء الفولغا بالأوكا . وفي قوانين التجارة وتقاليدها استمر نفوذ التتر العميق . وكان الفلاحون في الشمال احراراً بينما تأرجح فلاحو الوسط والجنوب في حالة وسط بين الحرية والعبودية غير قادرين على ان يدفعوا ضرائب ولا حقوقاً إقطاعية . وكان التقليد هو القانون وقلما كان مكتوباً . وكان الأمير وملاكو الأراضي هم انفسهم القانون في معزل عن مرؤوسيهم . وديانة الشعب كانت مسيحية لا تزال متأثرة بالوثنية يضاف اليها إيمان بالخوارق دائم الوجود . وكانت الكنيسة تحت نفوذ آبائها البدأة تقشفية نسكية الى اقصى الحدود تهتم بسر الموت وبمكانة القديس في الحياة الدينية .

ولم تكن ثمة مشاعر فروسية ولا تصرفات مهذبة تغطي الكذب والبهتان . فالشعب من اعلاه الى ادناه كان محتالاً مراوغاً متشدقاً ، وفي بعض الأحيان ماهراً واجتماعياً ولكنه بدون حساسية زائفة محرضة صاخبة كان قادراً على القيام باعمال بربرية نادرة .

ولم تكن مكانة دوقات موسكو الكبار مجرد وظيفة ليس وراءها عمل . فالدوق الكبير كان سيد الجميع وما يملكه كان يملكه عن حق وهو مكلف بأن يحميه بقوة السلاح وبالمهارة والإرهاب . وكان يتخذ مكانه على عرش مرتفع جداً فوق النبلاء ولا يحرم نفسه من المحادثات المرحة ، وهو يضع تاجه ويمارس سطوته في كل مرة يتوجب فيها ان يفرض الخوف والرعب .

الفصـــل الثانـــي

هيلانـــة الليتوانيـــة

كانت هيلانة فتاة ليتوانية بارعة الجمال لجات الى بلاط روسيا مع ميشيل ڤلينسكي عمها والوصي عليها . كانت سمراء مندفعة ذات ثقافة عالية وطباع غريبة ، منعتقة تتمتع بحريات كانت في موسكو امراً شديد الجِدة ، فاجتذبت بذلك رغبات الغراندوق العجوز حتى انه من اجـل إرضائها حلق ذقنه .

وكانت حياة الامير تسير سعيدة رضية الى جانب زوجته سالومي ، ولكن السنين كانت قد تركت أثرها في هذه الزوجة فأراد أن ينفصل عنها ووجد لذلك الحجة المناسبة في أن زواجهما كان عقيماً ولم تخلف منه ولداً . وذهبت محاولات النبيل سيمون كوربوسكي في الدفاع عنهـا ادراج الرياح ، وتوجب عليهـا أن ترتدي النقاب الأسود بينما ارتدت هيلانة النقاب الأبيض لتصعد الى عرش موسكوفيا وتدخـل في سرير القيصر .

وقـد جرى زواج ڤاسيلي وهيلانة يوم عيـد الصعود في ١٥ آب اغسطس لعام ١٥٢٦ . وقبل الاحتفال تم رشهما بحشيشة الدينار فالاً للخصوبة وتعرضا للتهوية بفراء السمتور رمزاً للحياة الطويلة . وبعـد الاحتفال اضطجعا في السرير علانية أمام الحضور وناما على مرتبة ممتدة فوق سبع وعشرين حزمة من الشيلم . ثم تقدمت نحوهما امرأة هي زوجة قائد الحرس حاملة معها رداءين من الفراء كان أحدهما مقلوباً

واخـذت ترشهما أيضاً بحشيشة الدينار . ولكن السحر لم تكن لـه نتيجة . ففي الوقت الذي حددته الطبيعة لم يطرح الاتحاد ثماره وربما كان الخطأ من الزوج أكثر من ان يكون من الزوجة . عند ذلك تدخل عـدد من القديسين يتشفعون بصلواتهم على الرغم من عـدم اعتراف الكنيسة بالزواج ، كما صلى عدد من الرهبان على نية مجيء الغلام . واجترح الراهب پافنوتي معجزة كانت سبباً في رفعه الى مرتبة القديسين فيما بعد ، فقد اصبحت هيلانة حامـلاً وولدت في الخامس والعشرين من آب اغسطس عام ١٥٣٠ إيڤان الرهيب .

وكان فرح ڤاسيلي الثالث بهذا النبأ اكبر من فرح البلاط . وكان لهيلانة عصبتها التي كان رئيسها عمها ميشيل غلينسكي ومولد وريث العرش كان يطرد ادعاءات بقية الأمراء وطموحاتهم الى المكانة الثانية . ومن جهة أخرى كان ڤاسيلي الثالث عجوزاً ولم يكن مقدراً له ان يعيش طويلاً ، واحتمال وجود دوق طفل تحت وصاية وصية ليتوانية لم يكن ينبىء في الكريملين لا بصداقة ولا بسلام .

وفي خلال ذلك كان حسن الحظ يوالي رعايته للدوق الكبير في هذا الزواج . فبعد ثمانية عشر شهراً ولدت له هيلانة طفلاً آخر هو يوري وبدأ في شيخوخته يتذوق نعماء الحياة العائلية ومساوئها . وكان يبدو سعيداً فرحاً . وبعد بضعة أيام من ثالث اعياد ميلاد إيڤان الصغير قرر الشيخ أن ينذر نفسه للعبادة والصيد وان يأخذ امرأته وعائلته الى دير سيرجي ترويتسكي الواقع على بعد حوالي خمسين كيلو متراً الى الشمال من المدينة . واتخذ طريقـه في الخامس والعشرين من ايلول سبتمبر عام ١٥٣٣ مع كلابه ورماته يتبعه فرسان يحملون المداري بغية الصيد أثناء الطريق والوصول الى الدير عشية عيد ميـلاد القديس سيرجي . وكان الدير الشهير يعج بالحجـاج القادمين من كل انحـاء موسكوفيا . وقد صام الدوق الكبير وزوجته وحضر القداس الكبير وتلقيا مباركة الأرشمندريث ثم تابعا طريقهما يملأ قلبهما السرور وتتبعهما

حرسهما من الصيادين عبر الغابة باتجاه مكان يسمى ڤولوك لامسكي ، ولكن إصبع الموت لمست ڤاسيلي فجأة أثناء الطريق .

كان يتألم وهو يمتطي جواده ، واكتشفوا أنه يعاني في ثنية فخذه من ورم متقيح ذي اون بنفسجي . ولم يستطع أن يبلغ بيت إيڤـان پودز هوجين إلا بعد لأي ، وكان إيڤان هذا أحد رجال حاشيته المفضلين وقد دعاه الى وليمة في بيته . وعند وصوله ساعدوه على أن يأخذ حماماً ساخناً لم يخفف عنه شيئاً من آلامه لدرجة انه لم يتمكن من الانضمام الى مضيفيه وإنما قدم له الطعام في غرفته . واستمر به الألم . وفي اليوم التالي الذي كان يوماً جميلاً وصالحاً للصيد قاوم الألم لأنه كان لا يزال يتذوق بحرارة لذة الحياة . فأرسل في طلب اخيه أندري . وفي اليوم الذي يليه خرج معه من قرية كولب مع كلابه ولكنه كان ضعيفاً وانتابه ألم شديد أجبره على العودة الى سرادق الصيد في كولب حيث لزم الفراش .

عند ذلك استدعت هيلانة عمها ميشيل غلينسكي وطبيبين أجنبيين كانا يمارسان مهنتهما في البلاط الروسي . ووضع الطبيبان على مكان الألم كمادات من العسل الطازج والدقيق والبصل المشوي حتى نضج الدمل وخرج منه الكثير من الصديد ونقل الدوق الكبير من كولب الى ڤولوك لامسكي على يد نبلائه على محفة وهناك تابع الطبيبان عملهما في وضع الكمادات حيث خرج من الدمل صديد جديد . وأمرا بأن يقدم له مليّن مصنوع من البذور لم يكن من نتائجه إلا انه زاده ضعفاً على ضعف . وازداد الألم زيادة كبيرة وامتد حتى أصبح الآن يشكو من صدره وأصبح تنفسه صعباً وينتابه الكثير من الأوجاع .

وفي هذه الحالة ارسل ڤاسيلي الى موسكو مانسوريف رجل القانون والكاهن پوتياتين ليأتيا له منها سراً بوثيقتين إحداهما وصيته التي يعود تاريخها الى بضع سنوات خلت والثانية وصية ابيه إيڤان الثالث . وعند إحضارهما قرئتا له بصوت عال وبحضوره هو وحده ثم

أمر بعد ذلك بإحراقهما . وحافظ المقربون على سر ان الدوق كان على فراش الموت وإن كانت إشاعة مرضه قد انتشرت في الخارج ولم يكن في قدرة احد إخفاؤها . واخذ النبلاء يتوافدون على ڤواوك لامسكي . ووجدت هيلانة صعوبات كبيرة في إقناعهم بأن مرض زوجها لم يكن إلا وعكة بسيطة . ووصل يوري اخو ڤاسيلي الذي كان مرشحاً محتملاً للعرش ولم يكن في قدرة أحد إرغامه على المغادرة كما بقي اندريه الأخ الأصغر للدوق الكبير .

وكانت فتحة الدمل الآن قد أخذت مظهراً مشؤوماً ووصل عرضها بحيث تستطيع ان تدخل فيها اليد . وكانوا يخرجون منها الصديد ملء أقداح ، ولكن الأمير بقي متمسكاً بالحياة واصدر اوامره بأن ينقل أولاً الى دير سان جوزيف ثم بعد ذلك الى موسكو . وحمله النبلاء على سريره ووضعوه في كنيسة الدير امام المذبح واجتمع حوله كثير من الحضور بما فيهم هيلانة وولداها وصيادون وجنود ونبلاء وكهنة سود في اضطراب كبير يصلون وينتحبون ويحسبون حساب المستقبل .

ومع ذلك فإن اجل ڤاسيلي قد طال زمناً غير معقول احتفظ فيه بصفاء ذهنه واستمر في إصدار الأوامر التي كان ينبغي إطاعتها . وكانت رغبته هي أن يعود الى قصره في الكريملين . ووجب على النبلاء أن يحملوه على محفة وينقلوه من جديد . وكانت بوادر الثلج قد بدات بالهطول . وعلى جبل العصافير وضع الأمير على زحافة تجرها خيول هادئة . وكان قد بنى جسراً جديداً على نهر الموسكفا ليتمكن من دخول المدينة من مكان قليل الازدحام كي يكون بذلك بعيداً عن عيون الفضوليين . ولكن ما أن وضعت الخيول أقدامها على هذا الجسر الجديد حتى انكسر . وعلى الرغم من حوادث أخرى كثيرة جرت لڤاسيلي خلال رحلته الأخيرة هذه فإنه وصل سالماً في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر عام ١٥٣٣ الى بيته ضمن جدران الكريملين .

وكانت الشقة التي يسكن فيها الدوق الكبير أشبه ما تكون بشقة حديثة . ففي الطابق الأساسي من القصر كانت توجد ثلاث غرف متصلة ببعضها هي غرفة انتظار وقاعة استقبال وغرفة طعام مع غرفة نوم في الخلف وكنيسة صغيرة متصلة بها . اما المطبخ وغرف الخدمات فكانت موجودة في الأسفل ، واما في الأعلى فكانت توجد صالة كبيرة لا تستخدم إلا قليلاً . وكانت غرفــة الحمام قد وضعت في بنــاء منفصل ومعها جنــاح الأولاد .

وقد اصطحب ڤاسيلي معه ڤاسيلي شويسكي وميشيل زاخارين وميشيل مورونتسيف وبطرس غولوفين والقهرمان(*) تشيغونا . وفي حضرتهم املى وصية جديدة قام بكتابتها بوتياتين . ثم استدعى بعد ذلك كلاً من ايڤان شويسكي وميشيل توشكيف وعم هيــلانة ميشيل غلينسكي وحضر المقابلة اخوه يوري دون أن يكون مدعواً إليها ، ووصل المتروبوليت دانيال مع كبير الكهنة الكسييف الذي كان يحمل معــه العنصرين المقدسين الخبز والخمر .

عند ذلك نهض المريض من مرقده واتخذ كرسياً له ثم مالبث أن نهض من جديد مستنداً على ذراع زاخارين وبقي واقفاً ليتناول الخبز والخمر . وبعد ذلك بكى واعيد الى السرير ، وكان ضوء النهار الباهت يضيء عبر نوافذ الميكا النبلاء والكهنة المجتمعين في غرفة النوم يدثرهم دخان البخور ويهيمن عليهم ظل الموت . وكان ڤاسيلي يمسك في يده صليباً يستمد منه القوة لتحمل آلامه فاستدعى الى قرب سريره اخويه اندري ويوري والمتروبوليت دانييل بينما بقي النبــلاء في معزل عنه ، وفي حضورهم أعلن الدوق الكبير إرادته رسمياً في أن يكون العرش لابنه إيڤان والزم اخويه لراحة نفسيهما بأن ينفذوا وصيته وأن يعتبرا كل عدو لأولاده عدواً لهما . ثم توجه الى الحضور من النبلاء بالكلام نفسه .

---

* القهرمان وكيل الامير الاقطاعي — المترجم —

وعهد بزوجته هيلانة الى عمها ميشيل غلينسكي قائلاً له إنه لم يعد غريباً وأن عليه أن يعتبر نفسه جزءاً من الأمة الروسية .

وأخيراً أطلعهم على الرغبة التي كانت تعتلج في نفسه منذ بعض الوقت وطلب منهم ان ينزعوا عنه تاجه ليتمكن من أن يكرس راهباً ويذهب إلى السماء كرجل قديس . ثم عاوده الألم وعاد يطلب الدواء . وأراد زاخارين أن تسكب الفودكا على جرحه ولكن الأطباء لم يوافقوا على ذلك شارحين بصراحة انه لم يعد ثمة جدوى من الدواء وأنه لم يعد ينفع إلا أن يوصوا فاسيلي بالصلاة . ووصل رئيس دير سيرجي ترويتسكى وعهد الدوق الكبير بابنه إلى عناية سيرجي صانع المعجزات وأتى الأمير ميشيل غلينسكي بالطفل إيفان بين ذراعيه الى أبيه ليمنحه بركته ورضاه وأتت هيلانة أيضاً تسكب الدموع الغزيرة ويسندها أخو زوجها الشاب أندريه . وعندما توقفت دموعها لحظة عن الانسكاب اخبرها الدوق الكبير بأن ابنها سيخلفه على العرش بموجب وصيته وان مكانتها تمت المحافظة عليها باعتبارها أماً ووصية بحسب التقاليد المتبعة في عرش موسكو . فطالبت بأن ينال ابنها الصغير يوري أيضاً مباركة أبيه ورضاه ، وأتي بالغلام وباركه ابوه كما فعل مع اخيه . ويبدو ان فاسيلي أراد أن يكون متماسكاً أمام زوجته ولكن نحيبها كان موجعاً لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يتحمل سماعه . وفي هذه اللحظة اختفى عنه كل ألم وشعر بذلك الهدوء الذي يسبق عادة كل وفاة .

وقد جلبوا له أكثر الإيقونات العجائبية شهرة مثل إيقونة نوتردام وإيقونة فلاديمير وكذلك ذخائر الشهيدة الكبيرة كاترين ، وبعد ان قدم لها خشوعه وولاءه سأل المتروبوليت دانيال أن يكرسه راهباً ، واعترض على ذلك أخوه أندريه وبقية النبلاء ولكن المحتضر اصرّ على رغبته مشهداً عليهما كل الحضور . وكان يحتضن حاشية غطاء السرير الذي ينام تحته ويرسم دائماً علامة الصليب دون ان يترك صورة عذراء فلاديمير تغيب عن نظره . وأتى دانيال برداء أسود ذي قلنسوة مما يلبسه

الرهبان فغمغم ڤاسيلي : « إذا كنت لاتستطيع أن تكرسني راهباً فضع على جثتي على الاقل ثوب الرهبنة عند دفني دلالة على رغبتي الأخيرة ».

وكان أخوه أندريه والنبيل فورونتسيف لايزالان يعارضان ، ولكن المتروبوليت قال لهما : « إن طبقاً من الفضة ثمين ولكن طبقا من الذهب اثمن منه ، فإذا كنتم تمنعونني من اداء هذا العمل الصالح فإن بركتنا ستمنع عنكم » ، عند ذلك خرجا وتركا ڤاسيلي بين يدي الكنيسة . وقد أحضروا له عرشه وغدا ڤاسيلي الثالث راهباً باسم الراهب ڤارلام . ويروي تشيغونا بودز هوجين الذي كان حاضراً لحظة الوفاة أن روح العجوز فارقته على شكل غيمة خفيفة .

وقد ألبسوا جسد الفقيد ابسط ثياب الرهبان ومدوا فوق السرير غطاء من الحرير الأسود وعرض ڤاسيلي الثالث في ابهة عظيمة وزاره كل الذين ارادوا أن يقدموا له القبلة المسيحية التي تدل على المسامحة والوداع . واظهرت موسكو ألمها بالأغاني الحزينة والدموع التي لم تكن تخلو مع ذلك من صدق وتأثر امام رهبة الموت القديمة وتقاليد الحداد ، وعندما علمت هيلانة بوفاة زوجها سقطت في إغماءة دامت ساعتين كما يقال . ولم يكن ذلك يعني أنها كانت تعاني من حزن غير قابل للعزاء ، ولكنها شعرت أن من الأسلم لها أن تكون في حالة إغماء من أن تنخرط مباشرة في دوامة الأعمال .

وحفر النبــلاء حفرة ووضع جسد ڤاسيلي في تابوت وحُمل على اكتاف عدد من رهبان دير سيرجي ترويتسكى ونقل بالأناشيد والتراتيل إلى مثواه الأخير في كاتدرائية سان ميشيل أرشانج . ودق ناقــوس الكريملين الكبير دقات الحزن للتعبير عن الله خانقاً بذلك أغاني رجال الدين ونحيب المنتحبين ، وكان ذلك في الخامس من كانون الأول دبسمبر عام ١٥٣٣ .

وجففت هيلانة دموعها بسرعة وغدت ملكة روسيا النشيطة . وفي خلال أسبوع واحد كان الأمير يوري قد تم اعتقاله ، فلو ان الزواج الثاني لفاسيلي الثالث لم يتم لكان يوري قد اصبح هو الدوق الكبير . وكان يوري في سن ناضجةويتمتع بخبرة كما يتمتع بمحبة النبلاء . وكان قد أقسم يمين الولاء للطفل إيفان الذي سد عليه الطـريق ولكـن اندريه شويسكي وعدداً من النبلاء كانوا يريدون ان يفسخ قسمه ويستولي على السلطة . أما أن يكون يوري غير راض فهذا امر اكيد ، ولكن احداً ماكان يدري الى اين سيقوده هذا الاستياء . وهكذا اتخذت الوصية هيلانة قرارها الحازم وأوقفت ايضاً كلاً من الأميرين ايفان شويسكي وإيفان بيبلسكي وأوصدت عليهما ابواب السجن .

وكان ينبغي بحسب طبيعة الأمور ان يكون ميشيل غلينسكي هـو السيد الحقيقي وأن تكون هيلانة حاكمة بالاسم على إمارة موسكوفيا ، ولكن موت فاسيلي أذاع سراً كان خافياً من قبل هو ان هيلانة كانت عشيقة للأمير إيفان اوبولينسكي . وكانت هيلانة حرة الإرادة مندفعـة وحازمة فأرادت الا تخضع لنصائح وصيها القديم والا تعود الى سنوات طفولتها ، فدفعت بذلك أوبولينسكي الى المقام الأول ليقف في وجـه العم المزاح .

وقد رأى غلينسكي كما راى معه ميشيل فورنتسيف ونبلاء آخرون في حكم امرأة ضعيفـة فرصة مناسبة للقفز الى السلطة ، ولهـذا لم يعارضوا في وضع يوري في غياهب السجن لأنهم بذلك قد تخلصوا منه . ولكن ترفيع اوبولينسكي الى المقام الأول فاجاهم مفاجاة مزعجة . وكان الأمير اندري اخـو فاسيلي المفضل مستاءاً ايضاً . وكان قـد بقي في موسكو من أجل الاحتفالات الجنائزية التي تجري بعد اربعين يوماً من الوفاة وصلى من أجل راحة فاسيلي الأبدية . وقد طلب من هيلانة ان تمنحه مزيداً من الأراضي ولكنها لجات الى إشغاله ببعض الهدايا كالفراء والكؤوس والخيول والسروج ثم ذهب في سبيله الى ممتلكاته في ستاريتسا حيث كان يرتفع حصن منيع . وكان منكسر الخاطر من مكانته الهزيلة

في الأمارة ويخشى أيضاً أن يناله ما نال أخاه يوري من مصير . وفي الكريملين كما في كل البلاد كان يوجد حزبان أحدهما حزب أوبولينسكي والثاني حزب غلينسكي . وما لبثت أن نظمت مؤامرة للتخلص من المحظي اوبولينسكي وسجن هيلانة في أحد الأديرة ، ولكن المحادثات فيها استنفدت كل المجهود فلم يكتب لها أن تظهر الى حيز التنفيذ . وفي شهر اب أغسطس من عام ١٥٣٤ اتخذت الوصية قراراً اوقفت بموجبه غلينسكي وزجته في زنزانة حتى ذاع خبر موته خطأ في كل مكان . وفي الوقت نفسه سجن نوردنتسيف وعدد من النبلاء المستائين الذين كانوا قد تورطوا في العصيان .

وشهد الشهر نفسه الذكرى السنوية الرابعة لمولد إيفان . واتخذ الغراندوق الصغير مكانه على عرش وعلى رأسه تاج وفي يده صولجان عليه رسومات منمنمة وهو يرتدي الذهب والفضة وقابل في زيه هذا النبلاء الذين كانوا يسجدون أمامه كما يسجدون أمام إله . فلو أن أباه كان حياً لترعرع الغلام في دعة وعزلة ، ولكن إيفان منذ يفاعته الأولى اتخذ مكانه بين الراشدين . وكان هؤلاء الرجال أتباعه وهو محل اهتمامهم وتفكيرهم ومركز منازعاتهم . وفي سنوات يفاعته الأولى كان هذا الطفل الذي سيصبح القيصر الرهيب نشيطاً ماهراً ومحبوباً وبدا أنه كان يحب أولئك الذين يحبونه ولكنه بقي بارداً ومتحفظاً جداً تجاه الآخرين .

اما هيلانة فكانت امرأة غيورة وأدت بها الغيرة الى العنف . وكان بإمكانها أن تحافظ على مكانة إيفان بفطنة أكبر . فلم تكن تعرف الراحة عندما كانت تدرك أن مدعياً ممكناً للعرش كان مطلق السراح . وكان بإمكانها على الأقل أن تثق بالأمير أندريه الذي كان محباً وعطوفاً وخالياً من كل طموح شخصي وأن تجد فيه ضمانة أفضل لمستقبل إيفان مما تجده في عمها غلينسكي . أما عشيقها أوبولينسكي فلم يكن لديه كفاءات كبيرة . وقد سجنت أقوى رجلين في البلاد هما الأميران يوري وغلينسكي

وجعلت نفسها رقيبة على اعمال الأمير اندريه بواسطة جواسيس تلقت منهم تقارير عن أسباب استيائه . ثم امرت بأن يحضر الى البلاط . ولكنه بسبب خوفه تظاهر بالمرض مدعيا وجود عاهة مثيرة للاشفاق هي دمل في احد فخذيه . فابلغها جواسيسها بان ذلك لم يكن صحيحا . وكان يمكن لهذه الكذبة أن تعتبر نوعاً من التمرد اولا أنه يمكن من مصالحتها . وكاد إيفان أن يصبح محروما من عم صالح وصديق وإن كانت هيلانة لا ترى فيه هذه الصفات بل كانت ترى في الأمير أندريه زعيماً محتملا لثورة يمكن أن تقوم . وفي خلال ثلاثة أعوام تبادلت معه رسائل غاضبة ثم استمرت بوضعه تحت رقابة جواسيسها . وعبثاً حاول أن يطلق على نفسه لقب خادمها المخلص لانها لم تكن تثق فيه . واخيراً علمت بانه يهيء نفسه للفرار الى مدينة حصينة كنوفغورود او ان يلجأ الى ايتوانيا لكي ينتظر الفرصة هناك بأن يعود منها عودة المنتصرين . فارسلت اليه مبعوثين من الكنيسة هددوه بالحرمان إن لم يأت الى موسكو للمصالحة ولكنهم كانوا متبوعين بجنود لم يكن مجيئهم معه موضع شك . عند ذلك سارع بالرحيل مباشرة الى نوفغورود وجمع حوله للدفاع عنه ما وجده بين يديه من الأصدقاء .

ووقف الى جانبه جيش من الملاك العقاريين والفلاحين . وتوجه أوبولينسكي بجيش آخر لقتاله حتى كادت الحرب الاهلية ان تنفجر في منطقة الفولغا الأعلى . ولم يكن جيش الأمير اندري قويا وربما لم يكن في إمكانه أن يصمد لتجربة القتال . ولكن رئيسه لم تكن على كل الأحوال يرغب أبداً في العراك لأنه كان مسالما يرغب في الصلح وربما كان ضعيفاً في نظر العصر الذي كان يعيش فيه . ويقال إنه بعد ان تلقى من أوبولينسكي قسماً بأنه سيعفى عنه وافق على الاستسلام ولم تجر المعركة المنتظرة لأن الامير استسلم لموسكو بكل هدوء ووصل اليها يوم الخميس وفي يوم السبت كان قد ألقي به في السجن حيث قتل فيه بكل قسوة وعنف . اما انصاره فقد أحيط بهم وعذبوا تعذيبا شديداً بعد أن تعرضوا في البدء لجلد السياط ومات بعضهم في السجن تحت العذاب

بينما علق حوالي ثلاثين منهم في حبال المشانق التي نصبت على مسافات متساوية على طريق موسكو نوفغورود الكبير . واعتقلت زوجة الأمير اندريه وابنه أيضاً وزج بهما في السجن ؛ وحدث كل ذلك في حزيران يونيه عام ١٥٣٧ .

وهكذا وجدت الوصية ذات النظر القصير نفسها وقد ازاحت المطالبين المحتملين بالعرش دون أن تنتبه الى أن سلامة ولدها إيڤان اصبحت تتعلق بها وحدها بعد أن خلقت له كثيراً من الأعداء . وبما أنها كانت أجنبية كان من الصعب عليها أن تبني لها صداقات متينة بين نبلاء روسيا حيث كانت النوايا سيئة تجاهها وبخاصة بعد ان قتلت الامير اندريه وسجنت زوجته ووريثه . وبعد تسعة أشهر من هذا الحادث القاسي المؤلم وصلتها اليها نفسها ضربة المنون عن طريق السم فماتت وهي تعاني اشد الآلام .



الفصــل الثالث

طغيـان آل شويسكي

كان الأمـير ڤاسيلي شويسكي الذي استدعاه الفراندوق ڤاسيلي الثالث الى قرب سريره وهو في حالة النزع في الكريملين كان احد النبلاء الأكثر قوة في روسيا . فهو سليل اسكندر نيفسكي وربما كان متحدراً من ارومة اكثر شهرة من ارومة الفراندوقات انفسهم . وكان من المهارة بحيث نجا من كل شك بخيانته على خلاف قريبه اندريه لأنه كان أكبر سنا واوسع حيلة من معظم أولئك الذين كان يتكون منهم بلاط الوصية. اما ان يكون له يد في تسميم هيلانة فهذا ما لا نستطيع أن نعرفـه . ما نعرفه انه استولى فوراً على السلطة ورمى في السجن بعشيق هيلانة الأمير إيڤان اوفشينا تيليبنيف اوبولينسكي . ونحن نعطي هنا اسمه كاملاً لأنها لن تكون المرة الأخير التي نتحدث فيها عنه . وقد مات من الجوع وسنحق تحت ثقل الحديد الذي كان مكبلاً به .

وقد عقد النبلاء مجلساً برئاسة الأمير ڤاسيلي شويسكي وصوتوا فوراً على إخلاء سبيل المعتقلين السياسيين الذين القت بهم هيلانة في غياهب السجون . ومع ذلك فإنه لم ينج منهم إلا القليل بسبب ما عانوه من سوء المعاملة . وكان يوري وأندريه عما إيڤان الصغير قد طواهما الموت كما مات ڤورونتسيف أيضا بينما تم تحرير أرملة الأمـير اندريه وابنه فلاديمير اندريڤيتش الذي عاد الى ممتلكات ابيه بعد أن فرض عليه وعلى أمه ان يسكنا في هـذه الممتلكات والا يحضرا الى موسكو أبداً . والسبب في هذه المعاملة انهما كانا شخصيتين متنفذتين وأن فلاديمير

اندريڤيتش سيكون خليفة إيفان على العرش فيما إذا حل بهذا الغلام مكروه . ومع ذلك فإنه بمناسبة اعياد الميلاد من عام ١٥٤١ ردت إليهما كامل حريتهما وقدما الى البلاط .

وكان الاميران إيفان شويسكي وإيفان بيلسكي لا يزالان على ... الحياة عند وفاة هيلانة فادركتهما نسمة الخروج من السجن . وكان بيلسكي كثير الصخب واسع الطموح ويدعي انه ينحدر من جيديمين فأعلن عن حقوقه في العرش ولم يظهر لڤاسيلي شويسكي اى عرفان بالجميل لانه انقذه من السجن . ومن المدهش حقا انه لم توجد في هذه الحقبة الحرجة مغتصبون للعرش وان الاميرين إيفان ويوري لم يؤد بهما الأمر الى الاغتيال . على ان الخصومات بين كبار النبلاء ربما كانت هي السبب في تجنب حدوث مثل هذه الجريمة .

على ان احدا لم يكن يهتم بهذين الطفلين ولم يعد الكريملين بيتهما بل غدا مكان مرور للرجال العسكريين الذين كانت دروعهم مغطاه بامشمشة مذهبة او من الحرير الثمين ، نبلاء متغطرسون كانوا يمرون امام الأميرين دون ان يكلفوا انفسهم بإلقاء التحية . وإليكم كيف وصف إيفان الرهيب هذه الحقبة من حياته بعد زمن طويل : « عندما ماتت امنا هيلانة اصبحنا يتيمين في المعنى المطلق لهذه الكلمة . وعندما راى رعايانا ان البلاد ليس لها سيد لم يفكروا إلا بإرضاء رغباتهم الشخصية ولم يعودوا يتطلعون إلينا ابدا . وبما أنهم كانوا يتنافسون على اكتساب المغانم والثروات فإنهم كانوا علــى نزاع دائم فيما بينهم . فاستولوا على خزائن امنــا واستهتروا بما كانت تملكه من اشياء . اما بالنسبة لاخي يوري وبالنسبة لي انا شخصيا فقد كانوا يعاملوننا كغرباء او بالاحرى كشحاذين . كان ينقصنا الغذاء والكساء ولا يحترم احد إرادتنا ولا يوجد من يؤمن لنا احتياجاتنا كأطفال . وفي احد الايام بينما كنا نلعب مع إيفان شويسكي (وهو اخو الأمير ڤاسيلي شويسكي) وضع قدمه على سرير والدى .

وقد نهب اولاد البويار Boyards (*) اواني والدي الذهبية والفضية ونقشوا عليها اسماء ابائهم » .

وفي سن الثامنة لم يكن إيفان الرابع قد استطاع ان ينال من البويار اية رضية او تعويض . ولكنه كان يمتلك ذاكرة ممتازة كما كان حساسا لم تكن تفوت عينيه الملاحظتين إلا القليل من الاشياء . وها هي ذي قد ازفت ساعة الانتقام .

وعصف فوق راس الغلامين ذلك الصراع الذي قام بين ال شويسكي وال بيلسكي . ولم يكن الغلامان قد شاركا فيه لأنهما لم يكونا رهانا بيد اي واحد من الفريقين . وكانت نتيجة المعركة انتصار ال شويسكي وزج بالامير ايفان بيلسكي مرة اخرى في السجن . وفي هذه الفترة وجد المتروبوليت دانيال نفسه واقفا الى جانب الطرف الخاسر، وقد عفا عنه فاسيلي شويسكي ولكن اخاه إيفان اقصاه عن منصبه في السنة التالية . وعومل معظم انصار بيلسكي معاملة حسنة بالنسبة لتقاليد ذلك العصر . ومع ذلك فإن ميسورين صديق الغراندوق الراحل الحميم تم تسليمه الى اولاد البويار فسلخوه حيا ووضعوا جسده العاري الممزق فوق جذع شجرة وقطعوا راسه . وكان ذلك في كانون الثاني يناير من عام ١٥٣٩ .

وفي ذلك الشهر نفسه مات فاسيلي شويسكي ميتة طبيعية تاركا بعده السلطة لاخيه إيفان . واتى هذا معه الى موسكو بأرشمندريت دير سرجي ترويتسكي وعينه في وظيفة المتروبوليت . ولكن الكاهن الاكبر الجديد جوزيف هذا لم يثابر طويلا على صداقته للامير لانه اقنع إيفان الصغير على الاقل بان يصدر عفوه عن بيلسكي . وبدا كان هذا الطفل استعاد سلطته ، وفي احد الايام من تموز يوليه عام ١٥٤٠ وصل

(*) هو اللقب الذي يطلق على النبلاء في روسيا . — المترجم —

بييلسكي المتكبر امام باب الكريملين راكبا جواده امام دهشة إيفان شويسكي الذي كان قد انكر وجود إيفان الرابع لفترة من الوقت . ثم منح العفو لقائمة طويلة من انصار بييلسكي الذين كانوا يقضون في المنفى او السجن .

وربما كان إيفان شويسكي قد ترك السلطة تفلت منه عن ضعف لانه لم يكن يتمتع بالنشاط ولكن حزب بييلسكي كان مكروها من سائر البويار وبخاصة امراء نوفغورود والأميرين إيفان وميشيل اوبنسكي . وفي نهاية عام ١٥٤١ وبداية عام ١٥٤٢ انفجر التمرد ، وكان يوجد جيش في الريف مهيأ للانتصار على بييلسكي وانصاره . ووجد شويسكي نفسه مضطراً للوقوف الى جانب هذه الثورة التي اندلعت باسمه . وكان جانب النوفغوروديين هو الأقوى فوقع إيفان بييلسكي في الاسر ووضع في القيود وزج به هذه المرة في السجن في بيلوزيرسك في اقصى الشمال . ومن اجل التخلص منه بشكل نهائي أرسل إليه بعد ذلك رجال قتلوه في السجن .

وفي ذلك العصر كان يوجد مجتمع لا يأبه إلا قليلا بالله والناس . ففي إحدى الليالي انقضت عصبة من المتآمرين على غرفة المتروپوليت في الكريملين ورشقته بالحجارة حتى اضطر الحبر الى الفرار في ردهات القصر ولجأ الى قرب سرير إيفان الصغير الذي استيقظ مذعوراً دون أن يتمكن من ان يقدم له يد العون . عند ذلك ترك القصر في مركبة ذات ثلاثة جياد كان يسوطها بشدة حتى بلغ بها دير سيرجي ترويتسكي يتبعه امراء نوفغورود الشباب الذين كانوا يوجهون إليه الإهانات وابلغ الشتائم . وقد أرادوا أن يقتلوه لولا انه تخلص منهم بكل جهد . ولكنهم انتزعوه فيما بعد من ملجئه المتنسك ونفوه الى دير بيلوزيرسك واحتل ماكاري النوفغورودي مكانه في منصب المتروپوليت .

بعد اختفاء عصبة بييلسكي مرض إيفان شويسكي ومات وعاد البويار السلطة العليا لابن عمه اندريه ولم يعد لأعداء آل شويسكي وجود .

والتهديد الوحيد الذي كان يمكن أن يقوم كان من جانب الغراندوق المراهق إيفـان . ولم يكن إيفان . الذي بلـغ الثالثة عشرة الآن من العمر يبـدي على ما يظهر صفـات ملائمة كما أن أندريـه شويسكي لم يكن يشعر بأن إيفان كان يكبر ويترعرع . وهكذا استمر أن يرى فيه طفلا مهملا لم يكن يحسب له حساب خلال السنوات المضطربة التي تلت وفاة امه الوصية هيلانة .

وكان إيفان قد اتخذ له مجلسا خاصا بـه . ولم يكن يداهـن ولا يرائي آل شويسكي طوال الفترة التي رآهم فيها اكثر قوة منه . فهل إحسوا بالإهانة لهذا التعالي منه ؟ . كان يتخذ له صديقا ونجيا فيدور فورونتسيف الذي كان متعلقا به أكثر من سائر البويار . ومع ذلك فقد قام وعلى مرأى منه كل من اخيه اندريه وإيفان ميكايلوفيتش شويسكي والأمير سكوبين شويسكي بمهاجمة فورونتسيف في القصر وانتزعوا عنه ثيابه وارادوا ان يقتلوه . فماذا كانت الحجة المباشرة لهذا التجاوز ؟ . لم يقل ذلك احد . ربما كان قد نما الى احد أفراد عائلة شويسكي كلام على لسان فورونتسيف فعقدوا لذلك مجلسا للأمـارة حضره المتروپوليت ماكاري والدوق الكبير إيفان ووجهت التهمـة الى فيدور فورونتسيف . وانتصب آل شويسكي يطالبون بثأرهم يدعمهم الأمـراء پرونسـكي وكوبنسـكي وپاليتسـكي وباسمانوف فضربـوا فورونتسيف على وجهه ورموه ارضا وركلوه بارجلهم وهم يكيلون لهم الشتائم والإهانات . وتدخل الدوق الكبير إيفان والمتروپوليت لحمايته ولكن البويار كانوا من الغضب بحيث ضربوا الكاهن نفسه وانتزعوا عنه رداءه . وكانت عينا إيفان الفتي تلتمعان ببريق مخيف ويضمر في نفسه تهديدا مستترا سوف تظهره السنون . وربما شعر النبلاء أن هذه هي المرة الأخيرة التي يتحدون فيها إرادة سيدهم لذلك فإنهم لـم يقتلوا فيدور وإنما احتفظوا له بحياته وقيـدوه ونفوه الى بـلاد كوستروما البعيـدة .

وربما فكر إيفان كما يلي : اليوم ضربوا افضل اصدقائي وغداً سيأتي دوري . وكانت المشاهد التي هي من هذا القبيل جزءاً من الحياة اليومية ولكن الغراندوق الشاب لم يكن قد شارك فيها قط قبل هذا اليوم . وكانت التجاوزات الكبيرة لا يرتكبها البالغون وحدهم بل امتدت الى ابنائهم ايضا . والالعاب المفضلة لدى الامراء الفتيان كانت تشكيل العصابات والقيام بالهجومات المسلحة . ولم يكن الامر يقتصر على ضرب الفلاحين والباعة ضربا مبرحا كل يوم لانهم ليسوا جزءاً من التاريخ كما كان يفهم في ذلك العصر بل كان الناس يلاحقون ويقتلون كالحيوانات المتوحشة ويعتبر ذلك دائما من الحوادث الاعتيادية التي لا تثير اي فضول . كان العصر قاسيا ومضطربا ، ولم يكن تقى الشعب المتعصب يعدل شيئاً من بربريته ولا من تعطشه العنيف الفجور . اما الشفقة التي لم يكن يشجعها احد فكانت مظهراً من مظاهر الضعف . والتمتع بمشهد القسوة كان جزءاً من تربية اي امير فتي . وكما يدرب صغار النمور على سر الدم كي تنمو فيهم غريزة الافتراس كذلك كان صغار الامراء يقادون الى غرف التعذيب لتستيقظ فيهم مشاعر القسوة . والحيوانات التي يتم أسرها في الصيد كانت تقاد الى ساحات الكريملين ليقتلها الاولاد بعد ان يقوموا بتعذيبها . ولم يكن احد يعترض . ويقال إن افضل تسليات إيفان كانت رمي الكلاب من أعلى أسوار الحصن . ولم يكن القائمون على تربيته يسمحون له بذلك فقط كما يقول كورسكي مؤرخ ذلك العصر بل كانوا يمتدحون امامه هذا الصنيع .

في الثالثة عشرة من عمره كان إيفان ذا طبع بارد . وكان بمكن ان يعزى هذا المزاج إلى الحزن لأن المعاملة السيئة التي تعرض لها بعد وفاة امه حطمت قلبه . وحتى السابعة من عمره كانوا يبدون الخوف منه ويظهرون له توقيراً مبالغاً فيه . ثم بعد ذلك لم يعد يلتفت إليه احد . وقد دخلت المظالم التي تعرض لها إلى اعماق اعماقه حيث كان يتراكم الانتقام والكراهية الهادئة الشرسة . وبما انه كان عاجزا عن نيل مساندة الرجال سعى الطفل لأن يجد ملجا له في الكتب واستغرق في دراسة

الأساطير البيزنطية وتاريخ الكنيسة والقديسين والروح القدس وتاريخ بيزنطة وامارات روسية القديمة . وهكذا أصبح مختلفاً جداً عن الطغاة الافظاظ الذين حكموا الكريملين بعد ان تثقف بالقوانين والتقاليد والسياسة والتاريخ . ولا يشك اليوم احد بقدرته على الفهم التي عوض بها موت ابيه وامه وحرمانه من الأمجاد التي انكروها عليه ، وبنى من نفسه اداة غير مرئية اعدها لحكم روسيا التي كانت مملكته وملك يديه .

وعلى الرغم من اننا وصفناه بالبرودة فإن علينا ان نشهد أمام الحقيقة بانه كان يكن تقديراً كبيراً لذكرى ابيه وامه . فقد كان يعتقد في خياله ان فاسيلي الثالث كان يشغل عرشاً أعلى بكثير من العرش الذي جلس عليه هذا العجوز الطيب ، هذا العرش كان عرشاً من القداسة وكل ما رآه فاسيلي وهيلانة كان يستحق في نظره التقديس . كان هذا الفتى يكتنز افكار ابويه وذكرياتهما كما يكتنز بخيل ذهبه ويذهب كل ليلة لزيارته وعده والتاكد من ان اي شيء لم يختف منه . فلو انهما عاشا لانتقما له من كل ماتعرض له من إهانات . وقد نما هذا الشعور الشخصي وكبر حتى اصبح شعوراً ملكياً بل وحتى اصبح جزءاً من الإله نفسه الذي يقف امامه وحده كل ملوك الأرض ليكونوا مسؤولين عما اقترفوه من اعمال .

واتى سن الرشد وإن كانت هذه الكلمة لاتنطبق بالضرورة على الجنس . إنها تعني الثقة التي بعثت في ذهن إيفان انه يمتلك وراءه القوة الإلهية وانه يكفيه ان يرفع يده اليمنى ليضرب الأمير اندريه شويسكي ضربة الموت . وهكذا فإنه بعد ثلاثة أشهر فقط من الهجوم الذي وقع على فيدور فيرونتسيف أعطى امره الى زمرة من الشباب المكلفين برعاية كلابه بأن يلقوا القبض على الأمير ففاجؤوا شويسكي المتعجرف واوسعوه ضرباً مبرحاً وامسكوا بخناقه وهم يجرونه إلى السجن . لقد نالوا موافقة إيفان ولن يتجرأ احد على أن ينهض في وجه هذا العمل . وصمتت موسكو كما لو ان رؤيا رهيبة بدت في السماء لقد بدأ حكم إيفان .

الفصل الرابع

ادعاءات فورونتسيف

لم يصبح إيفان فوراً حاكماً بالغ النشاط . فهو لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من العمر وليس له وزراء بالمعنى الحديث للكلمة ولا مجلس من الرجال الخبراء يكلفهم بتوجيه وإدارة البلاد. فكان الفلاحون المزارعون يجمعون محاصيلهم ويدفعون الاتاوات المترتبة عليهم لسادتهم الإقطاعيين ويسوون عندهم مايقوم بينهم من منازعات . وكان الصيادون يبيعون للتجار فراءهم الثمينة بينما كان هؤلاء يشترون بالذهب والأحجار الكريمة والأقمشة والأسلحة مايجدونه من جلود وشحم وشمع وزيت كتان وقنب وكتان وبطارخ (كافيار) وقار وملح . والبنية الاقتصادية لشعب كبير العدد مستقر فوق بلاد غنية كانت تشبه شجرة تستطيع بدون عناية من أي نوع ان تطرح الثمار . وقد استطاعت البلاد بعد تحررها من ربقة التتر وبعد أن اصبحت في نجوة من اجتياح أي غزاة آخرين أن تطور ثرواتها المادية . ففي وجه أي لص كان يجب على كل فرد روسي ان يقف ليدافع عن نفسه ، أما الشرطة فلم يكن لها وجود . وعندما كان يدعي مالك أرض للخدمة في الجيش كان عليه أن يقود كتيبة من الرجال ويجهزهم على حسابه ويطعمهم كما يطعم نفسه إذ لم يكن ثمة وزارة للحرب .

كانت روسيا حرة وحشية وبدون قوانين . ولم يكن الدوق الكبير ليشغل نفسه في هذه الفترة بفرض رقابة أكثر منهجية لأنه كان يحب ان يستمتع بأوقات الفراغ ليذهب مع لداته من الفتيان وهو في عمره

الذهبي كي يصطاد الدب والثعلب الابيض أو يمسك بالصقر أو يقتل الطيور الوحشية من التم .

وكانوا يغيرون أيضاً على القرى ويضربون الفلاحين على هواهم ويسرقون البائعين ويخطفون النساء اللواتي ينلن اعجابهم ويشربون ويقصفون . ويفترض معظم المؤرخين ان إيفان كان يقتدي بقرنائه . وربما كان ذلك خطأ لأن ذلك لم ينسجم مع نفسية الدوق الكبير ولامع كرامة مكانته التي كان لها دائم الإدراك . وربما كان اكثر احتمالا أنه كان يحافظ على بروده وترفعه دون أن يذهب به الأمر مع ذلك الى توبيخ اترابه لأنه لم تكن تهمه مظاهر العنف تلك .

وفي الكريملين تابع إيفان دراسته لتاريخ بيزنطة كما كان يتقرب من المتروبوليت أكثر من تقربه من اي رجل مهم آخر في كل أنحاء أمارته . وفي الوقت نفسه وكما لو أنه كان يمتلك نزعة ديمقراطية كان يسعى 'رفقة البورجوازيين من ذوي 'الثقافة الجيدة . وكان يكن تقديرا للمعرفة أكثر من المحتد ويتحدث الى رجال الدين المتواضعين (Diak) فيتبادلون فيما بينهم المعارف أو يتلهون بلعبة الشطرنج . وهكذا بدأت العلاقات بين الدوق الكبير وبين الكسي ارداتشيف الذي عينه حاجبا له في عام ١٥٤٣ . وكان هذا اللقب يعني في ذلك العصر أن على صاحبه ان يعنى بسرير الدوق الكبير وأن يأتي له بسيدة عند الاقتضاء . وكان إيفان شهوانياً فأخذ يفكر بالزواج وكلف سفراءه بأن يعلنوا في البلاطات الأجنبية أن الغراندوق اصبح في سن الزواج .

أما الأمير فيدور فورونتسيف فإنه عندما عاد من منفاه وجد إيفان متغيرا بعض الشيء . ففي خلال بضعة الأشهر التي مضت كان الطفل قد أصبح رجلا . لقد قضى على الطاغية شويسكي واكتسب ثقة نفسه وغدا مظهره أكثر مهابة وبنى له في موسكو انطباعا جديدا واصبح النبلاء يعاملونه باحترام . وقد استقبل فورونتسيف استقبالا حارا كما تقتضي بذلك طبيعة الأمور واقام له في القصر ليلة وصوله احتفالا كبيرا كانت

فيه أية رغبة منه تصبح قانونا الجميع . ولكنه لم يكن ذا طبيعة انتقامية . فقد كان في الحفل بعض من ضربوه ، ولكنه لم يطالب برأسهم بل سامحهم ونسي إساءاتهم التي وضعت كما كان ينبغي على عاتق شويسكي الذي قضى نحبه وأولئك الذين كانوا ينتمون الى الحزب المنتصر كانوا سعداء بأن يتآخوا مع المنفي العائد من منفاه . وكان فورونتسيف ينتمي بداهة الى أولئك الذين ما أن يثملوا حتى يصبحوا أصدقاء الجميع .

وقد قدم فورونتسيف وهو دامع العينيين نصائحه لايفان الشاب في الطريقة التي يدير فيها امارته واصغى اليه الدوق الكبير بكل صبر . ولكنه لاحظ في الأيام المتحفظة التي تلت استقباله أن إيفان قد اصبح القانون ذاته ولم يكن يستشيره في شيء . فكان يتلقى العرائض ويتخذ القرارات دون أن يسأله أي رأي. وقد عومل فورونتسيف لبعض الوقت وكأنه اهم شخصية في الكريملين ولكن ذلك لم يكن يتعدى المظاهر . فشعر بخزي من ذلك شديد لأنه كان ينتظر بعد موت الأمير اندريه شويسكي أن يحتل مكانة لا تقل أهمية عن تلك التي كان يحتلها الطاغية الزائل .

وكان قريبا إيفان الأميران يوري وميشيل غلينسكي يمارسان في البلاط سلطة اكبر أثرا ، ورغم ما كان يربطهما من صداقة مع فورونتسيف فانهما كانا يحذران إيفان منه . وكان فورونتسيف على علاقات حسنة أيضا مع عدوه القديم الأمير إيفان كوربينسكي الذي بدا انه يحاول ان يشكل عصبة من أجل السيطرة على إيفان . ورد الدوق الكبير على ذلك بأن فرض على إيفان كوربينسكي سجنا دام ستة أشهر . وكان العقاب في الواقع سهلا لينا لدرجة أن كوربينسكي عندما عاد الى البلاط عام ١٥٤٥ لم يعد يضمر شيئا من الشر. وكان إيفان تحت تأثير المتروبوليت ما كاري العطوف يبدي من التسامح اكثر مما سيبديه فيما بعد ، ومع ذلك فانه عندما تفوه اكاناس بوتورلين أحد البويار بكلام غير مهذب بحق الدوق الكبير عاقبه بقطع لسانه ليجنبه مغبة الوقوع في مثل هذا الخطأ في المستقبل .

اما فورونتسيف الذي لم يحصل على شيء فانه أسلم نفسه للولائم والقصوف مع من تبقى من انصار شويسكي فتسبب ذلك في نكبته لأن إيفان الغاضب من ذلك أوقفه مع كل أصحابه على المائدة الذين شملوا الأمير بطرس شويسكي والأمير إيفان كوبينسكي (مرة أخرى) والأمير ألكسندر غورباتي وميشيل فوروونتسيف . ولكنهم لم يبقوا في السجن إلا شهرين ، فقد تدخل بشأنهم المتروبوليت في كانون الأول ديسمبر ١٥٤٥ فنالهم عفو الدوق الكبير وعادوا الى البلاط .

إلا ان صبر إيفان لم يدم طويلا . ففي السنة التالية أعدمت كل جماعة فورونتسيف تقريبا إما نتيجة لمباغتة أو نتيجة لحادث . وفي شهر أيار مايو من عام ١٥٤٦ قام الدوق الكبير مع جيشه بزيارة تفتيش الى كولومنا حيث جرى هناك نوع من سوء التفاهم . فقد قدم إليه من نوفغورود وعلى غير انتظار وفد مؤلف من خمسين من حملة القربينات(*) يحملون له عريضة . وبما انهم لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون في حضرة حاكمهم فانهم رموا قبعاتهم على الأرض الموحلة وأخذوا بالصياح مما اضطر إيفان لأن يفرق شمل هذه العصبة بواسطة نبلائه الذين أخذوا يهاجمونهم بخيولهم . عند ذلك أخذ حملة القربينات يطلقون النار ورد عليهم البويار برمي السهام وحدث اشتباك رانت عليه الفوضى وادى الى قيام قناعة لدى إيفان بأنه لا بد من أن يكون أحد قد نظم هذا الحادث في محاولة لاغتياله .

وعندما عاد الى الكريملين كلف الدوق الكبير واحدا من رجال الدين كان يثق به بأن يستقصي خبر هذه الحادثة . وهكذا قدّم الخوري (Le Diak) زاخاريف تصريحا ــ بتحريض من أمراء غلينسكي في أغلب الظن ــ بأن فورونتسيف وأخاه ميشيل مع إيفان كوبينسكي هم الذين

(*) القربينة بندقية قديمة ذات طلقة واحدة كانت سائدة في ذلك العصر .
ــ المترجم ــ

ارسلوا حملة القربينات لمهاجمة الدوق الكبير ، وبعد أن تمعّن في اعمال وتحركات أعضاء هذه الجماعة خلال السنتين الأخيرتين قرر إيڤان أن يتخلص منهم وأمر بقطع رؤوسهم . وتم توقيف معظم انصارهم حيث عوقبوا ولم يجد شيئا هذه المرة ما قام به المتروپوليت من وساطة حميدة.

ومنذ تلك اللحظة أفلت إيڤان الحبل على الغارب لعميه(*) يوري وميشيل غلينسكي حتى أصبحا الرجلين الأكثر نفوذاً في كل روسيا . ولكنهما استعملا سلطتهما استعمالا سيئا وجعلا الحكم أسوأ وأكثر فسادا مما كان عليه في السنوات السابقة . وكان إيڤان بعد ان تخلص من فورونتسيف وبقية المتآمرين قد أخذ يمضي بقية السنة في إرضاء نزواته الشخصيـة التي تجمع بين الصيد والصلاة . فـزار أديرة فلاديمير وموزيسك وتڤير ونوفغورود وبسكوف . ولا يمكن لأحد أن ينكر ما كان يسيطر على الغراندوق الشاب من ورع وتقى فلشدة ما كان يسجد امام الايقونات تسبب في حدوث رضوض في جبهته . وكان قادرا على أن يقف خمس ساعات كاملة في خدمة دينه دون أن يظهر شيئا من التعب او نفاذ الصبر .ولكنه كان يعوض كل ذلك باستسلامه للسلب والنهب بحمية متوحشة الى أبعد الحدود . وهكذا كان يتحول القديس جان الذي كان يعبد في البراري الى بارابا(**) في غمضة عين وفي الليل كان يعقد اجتماعات صاخبة يهرق فيها الشراب وتقع مصاريف هذه الاحتفالات على عاتق المضيفين . وكان على كل قرية أن تقدم الضيافة لهذه العصبة العديدة وتقدم لها الهدايا الثمينة للتعبير عن ولائها وحسن نواياها . ولكنهم كانوا يمنعون إيڤان من تلقي الالتماسات من أولئك الذين يطالبون برفع الحيف عنهم لأن حادثة الخمسين من حملة القربينات جعلت أفراد حاشيته يتحسبون من سوء تفاهم آخر . وفي خلال ذلك كان يوجد امتعاض . ولم يكن يبدو أن إيڤان كان يتقيد تقيدا حسنا في تلك الحقبة بمكانته كحاكم .

(*) هما عما امه .

(**) بارابا Barabas مجرم فضله اليهود على المسيح — المترجم —

الفصل الخامس

اختيـار زوجـة

في شهر كانون الأول ديسمبر من العام نفسه ١٥٤٦ أبلغ إيفـان المتروبوليت ـ وكان قد بلغ السادسة عشرة ـ بأنه قرر الزواج والتمس رأيه . وكانت سنوات العنف العشر قد جعلت لموسكو بين الأمم سمعة سيئة ، ولم يكن يعرف عن أية أميرة أجنبية أنها ترضى الارتباط بإيفان بروابط الزواج ، ولم يكن إيفان من ناحيته قد وقع ناظراه في روسيا على امرأة تمكنت من أن توقظ فيه شعوراً رومانسياً ولم تكن أمام عينيه أية خطيبة محتملة .

ومن أجل اختيار هذه الزوجة نصحه المتروبوليت بأن يجمع حسب التقاليد أكبر عدد من المرشحات لينتخب من بينهن من تناسبه منهن . وأعجب الدوق الكبير بهذا الاقتراح فكانت النتيجة أن دعا المتروبوليت كل نبلاء موسكو لخدمة دينية في كاتدرائية الصعود في اليوم التالي لمحادثته مع إيفان . وكان النبلاء على معرفة بنوايا الدوق الكبير في الزواج فأتى منهم أعداد كبيرة كان من بينهم حتى المحرومون من نعمة الكنيسة وكان الجميع يتوقعون الجديد من الأنباء .

وبعد تلاوة الصلوات خرج المتروبوليت من الكاتدرائية واتجه يتبعه النبلاء الى قاعة الاستقبال في القصر حيث كان إيفان ينتظرهم وهو جالس على العرش . عند ذلك نهض إيفان مواجهاً المتروبوليت ونطق بهـذه العبارات : « واثقاً من نعمة الله وأمه الطاهرة ومن شفاعة القديسين

صانعي المعجزات بطرس الكسي وجوناس وسيرجي وكل صانعي المعجزات من الروس ومن مباركتكم يا أبي فكرت في ان أتزوج . وكنت انوي في بادىء الامر أن ابحث عن زوجة لي في بلاط اجنبي لملك او قيصر ، ولكنني هجرت اليوم هذه الفكرة لان موت ابي وامي تركني يتيما وانا صغير السن . واذا اتخذت لي زوجة من بلد غريب ولم يقم بيننا وفاق فإن حالتنا ستكتنفها المصاعب . لذلك رغبت في ان اتزوج في بلدي من زوجة يختارها الله ببركتكم يا أبي » .

بعد هذا الخطاب عاد الدوق الكبير الى الجلوس ودخل مع المتروبوليت في محادثة خاصة . ومن المحتمل أن البويار صفقوا لخطابه. ويروي مؤرخ هذه الأحداث ان المجلس تأثر حتى انسكبت الدموع على الخدود نوعا من التعبير بديلا عن القول لان الرجال لم يكونوا يبكون بسهولة في ذلك الزمان . لقد اعجبتهم هذه الكلمات ، وارتفعت همهمة انقلبت الى هتاف . فقد ادلى الدوق الكبير بتصريح شعبي جدا ووطني جدا ولم ياخذ اية عائلة كبيرة بعين الاعتبار . والآن يستطيع اي نبيل من الفصر مهما كان متواضعا ان يعتبر نفسه حما ممكنا لسيد البلاد ، ولم يكن إيفان قد اعلن اختياره . وسرت إشاعة فورية في المجلس بأنه لم يكن قد اتخذ أي قرار بعد وانه قرر ان يتبع التقليد القديم في ان تجلب له الى الكريملين كل الفتيات من ذوات المحتد ليراهن ويختار من بينهن من يشاء . وقد سببت هذه القضية اضطرابات كبيرة في جميع انحاء البلاد، فحتى أولئك الذين لم يكن لديهم بنات كانوا يعيشون في حمى الانفعال لأنهم يمكن ان يكونوا على الأقل اعماما او اخوالا أو ابناء عم للعروس السعيدة .

ولم يكن إيفان في مختلف فترات حكمه بعيدا عن الشعب . ولكن هذا القرار كان أول من عقد تصويت الامة له . فقد كانت زوجات الغراندوقات السابقين الأجنبيات من امثال صوفيا زوجة إيفان الثالث وهيلانة زوجة ڤاسيلي الثالث مكروهات من البويار ، فلماذا يتزوج الغراندوقات من الخارج ؟ أليست النساء الروسيات أجمل نساء العالم؟.

واخذ نبلاء القصر يقارنون بين جدارات بناتهم القادرة على المنافسة . وكان كل منهم يتمهل في الرجوع الى بيته بغيـة ان يحمل إليـه الخبر السعيد .

ولكن إيفان لم يكن قد قال كل شيء ، فقد بقي عليه أن يعلن انـه لا ينوي ان يتزوج على انه دوق كبير ولكن على انه قيصر TSAR . وكانت الثمرة الأولى لدراساته قد وصلت الى النضج فأراد أن يحمل مكانة العرش الروسي الى مستوى عرش القياصرة . وكان البويار مستعدين أن يصفقوا لأي شيء وقد صفقوا لهذا القرار على الرغم من انه كان قرارا يستحق التفكير . وكان يمكن لهذا التغيير الا يكون مجرد كلمة تقال خالية من المعنى ، مجرد تجميل للقب الدوق الكبير الذي كان معقدا من قبل .

« قبل الزواج أرغب مع بركاتك يا ابي المتروپوليت أن اعيد لأسرتي المكانة التي كان اجدادي القياصرة والغراندوقات يتمتعون بها وكذلك مكانة قريبنا فلاديمير فسيفولودوفيتش مونماخ كما اريد أن اكون متقلدا لهـذا الشرف العظيم » .

إلا أن اهتمام البلاد المباشر كان يتمركز حول منشور أرسل الى كل الجهات الى كل بيت نبيل يأمر كل الفتيات في سن الزواج أن يرسلهن ذووهن الى البلاط ليخضعن للانتقاء الذي سيقوم به سيد البلاد . وقد طلب من الآباء تحت طائلة العقوبات القاسية الا يخفوا بناتهم تحت أي عـذر او ادعـاء .

فكم كانت موسكوفيا منشغلة في ذلك الوقت في انتقـاء الدانتيلات والتسريحات ، وكم حمام اخذته الفتيات وكم من خضاب جربته الصبايا وكم من الجدائل جدلنها في شعورهن !. وكم من الثرثرات والنكات كانت تلقى دون أن تذهب من غير بعض من الرجاء ... وكانت قصة من قصص الجن ، ولكن لن تكون ابنـة جزار ولا سندريـلا هي على كل حـال من ستفتن الأمير .

واخيرا نالت جائزة الجمال صبية تنتمي لعائلة ذات صيت ، ابنة لارملة تسمى زاخارينا - كوشكينا . كان اسمها اناستاسيا وقادها الى الكريملين عمها غريغوري زاخارينا . وكان يوجد كثير من الفتيات اللواتي ينتمين الى بيوت اكثر نبلا ونفوذهن ونفوذ مرافقيهن كان عظيما . وكان على ايفان ان يختار من بين الفين من المرشحات ويقال انه لم يكن أبدا يقوم بفحصهن فحصا عابرا ، ففي اثناء حياته كلها كان له « نظرة في المرأة » ولكننا نستطيع ان نعتقد انه في سنه كان يبحث فيها عن الفضيلة والورع بمقدار ما كان يبحث عن مفاتنها وجمال معانيها . ومهما كان الحال فان اناستاسيا كان لها الافضلية في ان تكون الاعظم وفي ان يكون جمالها هو الآسر الاخاذ . كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي يفاجئن النظر ما ان يدخلن مكانا مهما كان فيه من حضور . كما كان لها افضلية سياسية ايضا في أنها كانت من عائلة لم تشارك بأية صورة بمكائد الاحزاب ولم يكن لها علاقة بما قام بين عصبتي شويسكي وبييلسكي من خلافات وقد تمت خطبتهما وسط تزاحم شعبي كبير ونالا مباركة الكنيسة المقدسة .

وحدد يوم الزواج في الثالث من شباط فبراير عام ١٥٤٧ ولكن ايفان أراد ان يتوج اولا قيصرا على كل روسيا وجرى هذا التتويج في السادس عشر من كانون الثاني يناير من العام نفسه . وفي صبيحة هذا اليوم ارتدى الامراء والفويفود(*) والبويار ثيابهم الرسمية من القماش المذهب واجتمعوا على عتبة القصر وحول ابوابه . وتلقى مرشد إيڤان رئيس كهنة كاتدرائية الصعود من يدي الغراندوق صفيحة ذهبية وضع عليها صليب عجائبي كبير والتاج ومعطف التكريس . ورفع كبير الكهنة هذه الشعارات عاليا وتوجه مباشرة الى الكاتدرائية يتبعه الغراندوق محفوفا بالنبلاء والدياك من رجال الدين . وكانوا قد نصبو في المعبد

---

* الفويفود Voïvodes هم كبار الموظفين في روسيا ، والفويفودية مقاطعة يحكمها الفويفود . — المترجم —

على ارتفاع اثنتي عشرة درجة عرشين يستطيع أن يراهما الجميع احدهما للدوق الكبير والثاني للمتروبوليت . وقبل ان يضع ايفان رجله على اول درجة قام بالسجود أمام كل واحدة من الايقونات ، وانشد الكورس نشيد السلام لسيلا البلاد وقام المتروبوليت بمباركته .

وفي أعلى الدرجات انتصب ايفان مع ماكاري(**) وأتى الارشمندريتات بالمعطف والتاج واعطوهما للمتروبوليت الذي رسم عليهما عدة اشارات الصليب ثم البسهما لإيفان داعيا الله بصوت عال أن يحمي هذا الداوود المسيحي بنصيحة الروح المقدس . وبعد التتويج اخذ الكورس ورجال الدين كلهم والنبلاء ينشدون ترتيلة سائلين للقيصر الصحة وسنوات عديدة من السعادة والنعماء وبعد ذلك خرج ايفان متباطا من الكاتدرئية وكان يمشي فوق سجاجيد من المخمل والدمقس والنبلاء يرشقونه بحفنات من القطع الذهبية وعاد الى قصره محاطا بكل بلاطه وعلى رأسه تاج القياصرة . وانقض شعب موسكو عند ذلك على الكاتدرائية ينزعون عن العرش قطع القماش الحريرية ذكرى لهذا اليوم الجميل ولم يفكر أحد في ان ينهاهم عما يفعلون .

ويبدو أن كثيرا من الاساطير جاءت بتسويغ للقب قيصر TSAR الروسي على رغم ما يعتورها من بعض الشكوك . احداها تقول أن روريك انما كان حفيدا من احفاد أوغوست سيزار Cesar وأن إيفان إنما هو من نسل روريك . فقد اعطى أوغوست القسم الشمالي من العالم الى ابن اخيه بروس Prus الذي اشتق منه اسم بروسيا كما يذهب البعض ، وبروسيا حسبما يذهب اليه كالاريل معناها « حدود روسيا » ومهما كان الامر فان روريك اعتبر من نسل بروس الذي ينتسب الى أوغست وعن طريقه الى الله ، ذلك لان اوغوست كان قد رفع الى مرتبة الالوهية . وبذلك يكون ايفان الرابع قد رفع نسر روما الثالثة .

** ماكاري هو اسم المتروبوليت — المترجم

وكان ايفان الثالث من قبل قد رفض لقب الملك الذي قدم اليه بكل احتقار على اساس ان لقب الفراندوق الذي يحمله كان أعلى بكثير من لقب الملوك .

وتروي حوليات فلاديمير التي استشهد بها ايفان الرابع لدعم ادعاءاته ان فلاديمير كان ابنا لاحدى بنات قسطنطين من نوماخ امبراطور بيزنطة التي ماتت قبل خمسين عاما من اعتلاء ابنها عرش كييف . وقد اعلن فلاديمير الحرب على القسطنطينية . ومن اجل أن يحصل الامبراطور على السلام ارسل كاهنا كبيرا يحمل جزءامن خشبة الصليب الحقيقي كما يحمل التاج الامبراطوري . وقد حمل المتروپوليت التاج من القسطينية وعبر عن رغبته في ان تتذوق كل الشعوب الارثوذكسية طعم السلام في ظل صولجان « امبراطوريتنا والاوتوقراطية الكبيرة لروسيا الكبرى » . وبهذا التاج الذي أرسله الله توج فلاديمير في كييف وحمل اسم مونوماخ .



الفصــل الســادس

الحريــق الكبــير

كانت عائلة اناستاسيا قد استقبلت بكل ترحاب رجلاً تقياً اسمه جينادي الكوسترومي وتنبأ هذا الرجل كما يقال بأن الفتاة ستكون زوجة لقيصر . وربما كان السبب في ذلك ان الصبية كانت تتمتع بجمال باهر وسلوك ملكي او ربما كان السبب ان الحجــاج في ذلك الوقت كان من عادتهم لكي يظهروا عرفانهم بالجميل ان يقدموا للبيوت النبيلة التي كانت تستقبلهم مثل هذه المجاملات البريئة من التنبؤ بزواج وشيك وحياة زوجية سعيدة .

وتم حفل الزواج في الثالث من شباط فبراير ١٥٤٧ . ولم يذكر احد ما إذا كان الزوجان قد رُشّوا بحشيشة الدينار كما حدث لفاسيلي الثالث وهيلانة من قبل . وكانت بعض النساء قد كلفن بفحص جسد الزوجة فوجدنه كاملاً لا يعتوره أي نقص وقيل عنها كما يروي كارافرين كل خير يمكن ان يقال باللغة الروسية . وجرى طقس الاحتفال المعقــد بالزواج في كاتدرائية المنقذ المقدس **Saint-Sauveur** وتوجّه المتروبوليت بعد الحفل الى الزوجين بهذه العبارات : « اليوم اتحدتما الى الأبد في الكنيسة لكي تتمكنا من الخضوع سوية للعلي الأعلى وتعيشا في فضيلة انتما يا مثال الاستقامة والرحمة . فأحِبَّ يا سيدي زوجتك وكرّمها ، وانت أيتها القيصرة التقية أطيعي زوجك ، فكما أن الصليب المقدس هو سيد الكنيسة كذلك الرجل سيد زوجته . وإذا ما نفذتما أوامر الله رأيتما القدس المباركة وتذوقتما السلام في فلسطين » .

بعد ذلك خرج القيصر والقيصرة من الكاتدرائية معاً واظهرا نفسيهما لرعاياهما المحتشدين جمهوراً كبيراً اتى من كل اركان البلاد . وقام القيصر بتوزيع الهبات على البويار الحاضرين وعلى القيصرة من يده الكريمة وقدم الصدقات لاعداد كبيرة من المتسولين . واضطجع الزوجان الملكيان على السرير علناً امام الجمهور . وكان كل عضو من اعضاء البلاط موكلاً بوظيفة من كل نوع . فالعمتان غلينسكي كانا يقفان على راس السرير ، والأمير شيمياكين يقدم للقيصر قلنسوته الليلية ، ووضع نبيل آخر غطاء على ارجل العروسين .

وفي داخل القصر كانت تقام الولائم الكبرى كما كانت تقام في الخارج. وبينما كان إيڤان واناستاسيا يأخذان قسطاً من الراحة في سريرهما كان الأمراء والبويار وكل أفراد الشعب يشربون نخبهما وسط الهتاف والتهليل . واستمرت الاحتفالات حتى اليوم الأول من الصوم الكبير . وعندئذ ، وفي الساعة التي قرعت فيها آلاف الأجراس تدعو المؤمنين للصلاة توقفت كل ضوضاء . ووضع القيصر إيڤان وزوجته صيغة لافراح الزفاف . فقد ارتديا ثياباً بسيطة ومشيا على الاقدام فوق الثلج نحو دير سيرجي ترويتسكي على هيئة حاجين بسيطين لا عاشقين حيث بقيا فيه اسبوعاً كاملاً متقشفين يصليان ويتناولان لدى قبر القديس سيرجي صانع المعجزات .

وكانت اناستاسيا تقية مثل زوجها . ولكن إذا صدقنا ما كتب عنها في عصرها فإنها كانت اكثر إنسانية منه . كانت طفلة بسيطة خرجت من منزل أرملة هادئة ، ولم يكن في عروقها هذا النزاع الحاد للأهواء التي بدأت تغلي في عروق إيڤان . فالقيصر من قمة إمبراطوريته كان يرى رعاياه من مرقاه العالي الارتفاع صغاراً ليس لهم اهمية او اعتبار . فكان يشعر بطريقة ضالة أنه اقرب الى الإله وانه مختاره ومصطفاه . فترك لآل غلينسكي تنفيذ تدابير منحرفة في حكم شعبه ووفتى هؤلاء عملهم على ما يشتهون دون أن يبدي إيڤان بذلك أي اهتمام . وارتأى آل غلينسكي

أن يزيدوا من عدم شعبيتهم بعدما قاموا به من اضطهاد . وظن كثير من الناس أن إيفان بعد تتويجه قيصراً وبعد أن أصبح زوجاً سيعمل على تحسين أحوال رعاياه ، ولكن وهمهم ما لبث أن انهار فقد كان القيصر مشغولاً بصلواته وغارقاً في ملذات حياته الزوجية أو بالصيد أو بالحج. وكانوا يعرفون أنه صاحب مزاج رهيب وانه لا يقبل ملاحظات من أحد. كان بإمكانه أن يغضب من رسول أو من خادم وينزل به العقاب بالضرب حتى الموت ، ويا لتعاسة فلاح أو بائع كان يوجد في طريقه عند ذاك .

وقد رد شعب موسكو عليه وعبروا عن كل الحقد الذي يحملونه في صدورهم على آل غلينسكي عن طريق إشعال حريق كبير . فقد اندلعت في الثاني عشر من نيسان ابريل عام ١٥٤٧ نار كبيرة في موسكو ولكن أمكن إطفاؤها . إلا أنها عادت فاشتعلت من جديد في العشرين من الشهر نفسه واطفئت أيضاً . وشب حريق ثالث في مطلع حزيران يونيه أذكته ريح قوية وكان من الصعب التغلب عليه . كان ثمة أشخاص مجهولون يضعون النار في المدينة على الدوام .

ولم يعر إيفان إلا اهتماماً قليلاً لهذا الحريق . وكانت بعثة من البورجوازيين من مدينة بسكوف قد قدمت لمقابلة القيصر في أوستروفكا في نهاية أيار مايو من ذلك العام ، وكان أوستروفكا أحد البيوت الملكية في الريف . وينبغي علينا أن نوضح أن البسكوفيين كانوا أكثر جرأة من أي شعب آخر لأن بسكوف كانت آخر مدينة كبيرة ألحقت بموسكوفيا ، ولولا جرأتهم لما عرضوا أنفسهم لغضب القيصر بتقديمهم إليه عريضة كالتي يحملونها . وكان آل غلينسكي قد كلفوا رجلاً مرتشياً بإدارة هذه المدينة . والبعثة التي قدمت وبرفقتها عدد من الشهود كانت تحمل قائمة طويلة من المطالب وتتألف من سبعين عضواً سجدوا كلهم عند لقائهم بإيفان . وبدلاً من أن يمنحهم القيصر أذناً صاغية وضع في أيديهم الأصفاد . أما أن نقول بإنه كان يسخر منهم فإن ذلك لم يكن وصفاً كافياً ، فقد سكب على رؤوسهم الكحول الحار ثم مر عليهم واحداً واحداً

وفي يده قنديل أشعل به شعورهم وذقونهم . وأخيراً عرّاهم من ملابسهم وامرهم بأن ينبطحوا على الأرض صفاً واحداً وهو ينوي أن ينزل بهم بدون شك نوعاً من عقاب رهيب ، ولكن رسولاً وصل في هذه اللحظة مستعجلاً من موسكو يحمل خبراً بأن الكريملين كان يحترق وان ناقوس التبريكات قد سقط وتحطم على الأرض . فنسي القيصر ضحاياه وهرع باقصى سرعته في اتجاه موسكو .

كانت موسكو يزداد اتساعها في كل عام ويمتد وتمثل للعين تكتلاً واسعاً من الأبنية والإنشاءات من خشب التنّوب(*) من بيوت صغيرة واسيجة وبلاط شوارع وزرائب وكان بعض كنائسها مبنياً من الحجر . وكانت المدينة في تلك اللحظة تلتهب كما تفعل غابة امسكت بها النار في صيف جاف . والسبب في ان حرائق مطلع نيسان ابريل كانت قد وفرتها هو أن الثلج كان لا يزال فوق الأسطحة . وكان احد هذه الحرائق رهيباً لدرجة انه دمر دكاكين حي كيتايي غورود المجاور للكريملين وسوّد الشارع الكبير الذي يؤدي الى باب إيلينكا على شاطىء موسكفا المحصن . اما حريق حزيران يونيه الذي بدأ في الأربات وغلف الكريملين فكان أخطر بكثير من كل ما عداه .

كان اللهيب الذي تدفعه ريح العاصفة يندفع الى الأمام مفرقعاً مزمجراً حتى اجتاز الموسكفا وكأن النهر ليس أكثر من حفرة بسيطة ، وكان يرسل وهو يتلوى في عاصفة هوجاء من نار انفلتت من عقالها فوق أسوار الكريملين الوردية ذات الشرفات جذوات كانت تسقط على أسطحة القصور والكنائس حتى التهب الجزء الأعلى من كاتدرائية الصعود كما التهب سقف القصر القيصري وسقف كاتدرائية البشارة . اما في الكنائس الحجرية فإن اللهب أتلف الفريسكات والإيقونات ودمر الأستار المقدسة والأبواب . وغدت دار صناعة الأسلحة طعمة للنيران

(*) التنّوب Sapin نوع من الصنوبريات — المترجم —

وكذلك قصر المتروبوليت وبيوت أليوبار . وكان ماكاري العجوز ذو اللحية الشهباء يكافح وسط النار والدخان في داخل كاتدرائية الصعود وهو يحمل إيقونة نوتردام المثلثة التقديس بمساعدة من رجال الدين . ثم تبع بعد ذلك جدار مدينة الكريملين المجاور حتى الممر السري الذي ينفتح على النهر ، ولم يكن ثمة سلّم فوجب عليه أن ينزل بواسطة الحبال ، ولكن الحبل انقطع واضطر المتروبوليت السيء الحظ أن يقفز من علو كبير وتلقى خبطة أفقدته الوعي لوقت طويل .

وتحت الكريملين كانت النار التي تتقدم دائماً تزمجر على طول الشوارع كما لو أن إله الجيوش قدم لينفث فيها غضبه . وكان من السهل على المرء أن ينقذ نفسه من أحد هذه البيوت ذات الطوابق ولكن الخطر كان يكمن في الشوارع ، فلم يكن ثمة اي ملجأ يقي من العنصر المدمر الذي كان يمتزج بالهواء نفسه . وكان السكان يهربون جماعات نحو النهر فيدخلون فيه ويبقون واقفين ، ولكن ثيابهم كانت تحترق على أجسامهم طالما كانوا يركضون . فالنار كانت تضربهم كما لو كانوا معرضين لضرب حسام حيث كانوا يموتون متساقطين في الشوارع كالفراشات . وقد هلك في هذا الحريق سبعة عشر ألفاً من البالغين مع عدد كبير من الأطفال .

واختفت الأشجار والنباتات . وبساتين البقول الكبيرة تحولت الى رماد . ودُمرت كل البضائع وكل المؤن ، وذاب النحاس وسال فوق بلاط الكنائس ، وماتت الأبقار في زرائبها والأحصنة في مرابطها واختنقت كلاب الحراسة وكلاب الصيد والقطط أو غدت فريسة للنيران .

ولم يبق القيصر طويلاً في منطقة الخطر يتطلع الى هذا الخراب بل عاد مسرعاً على صهوة جواده الى قصره في جبل العصافير حيث انضمت اناستاسيا اليه كما انضم اليه العديد من النبلاء مع عائلاتهم . ومع ذلك فإنه أصدر اوامره بأن يعاد بناء أبنية الكريملين ما أن تنطفىء النيران .

وانطفات النار بعـد أن اكلت كل شيء ولكن جدواتهـا بقيت حارة لبضعة أيام وعاد اللاجئون الى الخرائب وبدت موسكو مثل كومة من الرماد يبحث بين أنقاضهـا منقبون فريبو المظهر قـد اسودت أيديهم ووجوههم عسى أن يجدوا شيئا من رفات أمواتهم أو بقايا من ثرواتهم التي اكلتها النيران . ولكنهم لم يبقوا هناك طويلاً لأنه لم يكن هناك ما يمكن أن يؤكل طوال ما كانوا يبحثون . ثم ابتعدوا يلتمسون في القرى والأديرة التي تحيط بموسكو شيئاً من المساعدة والعون . فممّ كانوا يتذمرون وماذا كانوا يقولون ؟. نحن نجهل ذلك . كل ما أمكن حصولنا عليه منهم أنهم كانوا يؤمنون بأن الحريق إنما كان نتيجة سحر ، فقد كانت هامـة(*) تخـرج الأموات من قبورهم وتنتزع قلوبهم وبعـد ان تسحقها في الماء المقدس كانت ترش بهذا الخليط شوارع موسكو .

وقد قبل بهـذه الثرثرة مرشد القيصر الديني واعـداء الاميرين غلينسكي وأعطى بعضهم لهـذه الإشاعة شكلاً مشؤوماً حيث رووا أن انّا والدة هذين الأميرين قد مارست هذا العمل الرهيب بقلوب من جثث الموتى . فامر القيصر بإجراء تحقيق . وفي يوم الأحد السادس والعشرين من حزيران يونيه أي بعد خمسة أيام من انتهاء الحريق تم استجواب عـدد كبير من الناس ينتمون الى طبقـات المجتمع الدنيـا في سـاحة الكريملين . وكانت قصة آل غلينسكي قد تضخمت واصبحت على كل لسان . وكان الأمير يوري غلينسكي موجوداً بينما كان أخوه ميشيل في رزهيف مع امه انّا . واستمع يوري تلك القصة السخيفة عن سحر امه بقلة اكتراث دون أن يشعر بما كانت تتعرض له مكانته من اخطار ، فقد كان له اعداء بين زملائه من النبلاء المكلفين بالتحقيق .

ثم فكر بأن من الحصافة أن يذهب دون أن يشعر به أحد ويدخل الى كاتدرائية الصعود . وكان ينبغي لرجل ابعد نظراً وأكثر شجاعة أن

(*) روح ميت تغادر القبر وتمتص دماء النائمين من الأحياء . — المترجم —

يبقى مع البويار وينتظر النتيجة أمام أنظار الجميع . ولكن ما حدث هو أن البويار بعد أن تداولوا مع الجمهور قالوا لهم : « هل أنتم مقتنعون بان هذه الكارثة قد نظمها آل غلينسكي ؟ ، إننا سنسلمهم لكم لتفعلوا بهم ما تشاؤون » . وعندئذ ، وكما لو أن الجمهور كان يقوده متآمرون ، اندفع الى الأمام وافسح له النبلاء الطريق للمرور ، ثم اجتاح الكاتدرائية وخنق الأمير يوري واتكفأ الى انصاره الكثيرين فذبحهم كلهم كما ذبح ابناء آل غلينسكي غير الشرعيين وعدداً آخر من الأولاد التعساء الذين ظن أن لهم ارتباطاً مع هذه العائلة . ولم يكن العطش للقتل يرويه شيء إذ كان هذا الجمهور يجد في الدم تعويضاً له عن الخراب حتى انقلبت اعمال القتل الى حركة ثورية حقيقية لم يفعل البويار شيئاً من اجل السيطرة عليها . وكانت رغبة الانتقام تغذي نفسها كما كانت تفعل النار، فاجتمع كل اولئك الذين كانوا ينقبون بين الأنقاض في كتلة مزمجرة واتجهوا الى قصر جبل العصافير ليطلبوا من القيصر ان يسلمهم الامير ميشيل غلينسكي وامه انا . وارتفعت ضوضاء وهرج ومرج وغدا القيصر محاصراً في قصره حيث لجأت أناستاسيا وإيفان الى ابعد غرفة فيه . ولكن الجمهور الذي كان جريئاً في الكلام لم تكن له مثل هذه الجرأة في التنفيذ ، وهكذا امسك القيصر بأكثر المتظاهرين شغباً وأمر بقتلهم على مرأى من الجمهور الذي هدأ فوراً وتفرق عائداً الى سواد الوحشة حيث كانت منازله من قبل .

اما الأمير ميشيل غلينسكي فقد حاول الفرار الى ليتوانيا ولكنه أوقف في الطريق ونال عفو القيصر عن محاولته تلك . والحريق الكبير الذي دمر موسكو دمر أيضاً سلطان عائلة غلينسكي التي لم ترفع رأسها بعد ذلك قط .



الفصل السابع

غضب الله

لم يكن من المحتمل ان يكون إيفان واناستاسيا قد صدقا قصة السحر تلك . فقد كانا يعرفان أنا جيداً ويعرفان أنها لم تسلم نفسها للسحر الأسود قط . وهذه القصة عن قلوب الجثث مهما بدت سخيفة فإنها كانت تخبىء وراءها معنى ، فالجثث موضوع الحديث كانت جثث اولئك الرجال الذين اودى بهم آل غلينسكي الى الموت وهم على الرغم من موتهم كانوا قادرين على الانتقام . وكان القيصر يجهل سوء الإدارة التي كان يمارسها آل غلينسكي ولكن الاعتراضات التي قامت ضدهم كانت من الشدة بحيث لم يكن من الممكن الا يتأثر بها . ولا بد أن القيصر قد لاحظ أنه لم يكن في منأى عن اللوم ، فآل غلينسكي كانوا يتصرفون باسمه وكان مسؤولاً عن اعمالهم وسوء تصرفاتهم . وزاد من وقع هذه التصرفات السيئة أنها كانت صادرة عن اقربائه ، وعندما كان الجمهور يزمجر على ابواب القصر مطالبا بضحايا جديدة كان بإمكانه ان يطالب براس القيصر نفسه . ومن المحتمل أن خراب موسكو كان علامة غضب وتحذير اكثر من أن يكون عملاً من اعمال سحر .

فالقيصر كان خائفاً من تلك المظاهرة التي جرت امام القصر لأن هذا الجمهور كان بإمكانه أن يجعل من جسده قطعاً ونتفاً . والقساة العتاة من الرجال لا بد ان يكون فيهم نقطة ضعف . والجبناء يرتجفون في العادة كورقة في مهب الريح إذا تعرضوا لجزء من مائة من الآلام التي يفرضونها

على الآخرين . وفي كل طبيعة خيرة يوجد في العادة عنصر يسمى الجراة ، وهذا العنصر كان مفقوداً لدى إيفان . حقاً لم يكن له يومذاك إلا سبعة عشر عاماً ولكن إذا كان مقدراً للجراة ان تظهر فإنما هي تظهر في هذا السن . وإذا توخينا العدل فإن الصدام الذي حدث في كولومنا حيث لم يكن حملة القربينات القادمون من نوفغورود يطلبون اكثر من ان يمثلوا بين يدي سيد البلاد ليقدموا له عريضة متواضعة لم يكن ليحدث لولا ان إيفان كان خالياً من اية جراة . وفي استقبال المبعوثين القادمين من بسكوف وهم عزل من السلاح بدا إيفان قاسياً وجباناً في الوقت نفسه ، وسوف نرى كيف ان الخوف كان يحتل المكان الأوسع في طبيعة إيفان الرهيب .

على انه كان يخشى الله أكثر مما كان يخشى الناس . ولكن إذا كان خوف الله يعتبر بدءاً للتعقل والحكمة في التصرف فكيف حدث أن اودى به الى مثل هذا الطيش والتهور . ونحن نجيب بأن خوفه من الله كان خوفاً متطيراً لا يستند الى محاكمة عقلانية لأنه لم يكن يملك اي شيء من مثل هذه المحاكمة ، فإيمانه كان اعمى كما لو انه سحر قبل مولده فغدا عبداً لما وراء الطبيعة . والكنيسة في نظر إيفان في هذه الحقبة المبكرة من حكمه كانت سلطة مقدسة ، وكهنتها ورهبانها وقد يسوها كانوا قوماً مميزين لا يتعرضون لأخطار التعذيب والموت التي كان يتعرض لها بقية رعايا القيصر .

وكان المتروبوليت ماكاري ذلك العجوز الطيب العاقل الشجاع الفاضل رجل الله — بغض النظر عما كان عليه من اوهام — كان يمارس على إيفان نفوذاً خيراً . كان اباً لإيفان في الله وكان له على حياة سيد البلاد الفتي نفوذاً أكبر واثراً من نفوذ اي إنسان في المملكة . كان ماكاري يحب السلام ويكره العنف والقسوة ولكنه لم يستطع ان ينتزعهما من قلب القيصر الشاب ، فقد كان إيفان كلما زاد في سجوده وبالغ فيه كلما زاد في قسوته وضراوته .

وقد وجدت الكنيسة في الحريق الكبير الذي حدث فرصة مناسبة . فمرشد القيصر الديني راى فيه دون تحفظ انه من تاثير السحر الأسود . ولم تكن الكنيسة في مجموعها تذهب الى هذا الراي . كانت الكنيسة بدون شك تؤمن بالسحر الاسود على انه قوة شيطانية تظهر على يد اناس يسمون بالسحرة ، اما في هذه الحالة فإنها كانت تؤمن بأن إرادة العلي الأعلى هي التي دمرت موسكو عن طريق هذا الحريق الذي كان في الماضي قد دمر سودوم وعمورية وللأسباب نفسها .

وفي اللحظة التي تفرق فيها الجمهور تاركاً جوانب قصر جبل العصافير تقدم كاهن بسيط من كاتدرائية الصعود الى القيصر والقيصرة رافعاً إصبع التحذير وطالباً منهما التوبة والندامة . كان هذا الكاهن هو سيلفستر النوفغورودي الذي كان كما يقال شبيهاً بقديس ارسله الله ، واولئك الذين يرسلهم الله يصلون دائماً في اللحظة النفسية المناسبة ولذلك لا ينبغي علينا أن ندهش من أن إيفان لم يأمر بإيداعه في السجن .

« لقد أرسل الله صواعقه عليك أيها القيصر بسبب طيشك وسوء أهوائك حتى أكلت نار السماء موسكو وأفرغ كأس الله في قلب شعبك » .

ثم تحدث سيلفستر عن نبوءات واشارات كان قد لاحظها وعن رؤى كانت حكماً على القيصر من الله . وبعد ذلك اخذ يشرح الكتاب المقدس الذي ينشر احكام الله على ملوك الأرض ، واظهر لإيفان اخطاءه واستعجله التوبة والندم خوفاً من أن ينقض مصير اسوأ عليه وعلى البلاد .

وقد يكون من المحتمل أن يكون المتروبوليت ماكاري على علم بهذا الخطاب الجريء الذي بدا انه نجح وحقق هدفه بعد أن غزا عقل القيصر خوف من المجهول فركع على ركبته وتوسل الى قوة الله وحكمته وحكمة قديسيه كي يكون اقدر على الحكم باستقامة أكبر وتقى أعظم . ويبدو ان كل كتاب حوليات العصر وكل المؤرخين بدون استثناء نظروا الى

هذه اللحظة على أنها نقطة بدء لنوع من الهداية . فقد تعدل مباشرة حكم إيفان بعد أن اخذت الكنيسة بقيـاده ، وكوفىء سيلفستر على شجاعته الروحية وتمت العناية بنصائحه واتبعت في معظم نقاطها . وحدث أن سيلفستر كان صديقاً للكاهن الكسي ارداتشيف الذي كان قد عين حاجبا للقيصر ، وكان ارداتشيف تقيا بطبعه وله وجه قديس فتي ، فتوصل هذان الرجلان لأن يتمتعا بمكانة متميزة في البلاد .

وبدا أن بناء كنائس وبيوت للشعب أمر مقدس في حد ذاته ، وهكذا بدىء ببركة الله بإعادة بناء موسكو ، وانقضى عيد ميلاد ايفان في آب اغسطس وسط رنين الفؤوس وألواح الخشب السميك . وبروح من الندم وتأنيب الضمير توجه إلى المهندسين والعمال الذين بدؤوا بترميم الكنائس المحروقة بهذه الكلمات : :

« إن من لمستحيل علي أن أصف مالحق سنوات شبابي من جنون مجرم ولن تكون لغة البشر قادرة على أن تفعل ذلك . فعندما انتـزع الله مني والدي لم يكن البويار والكبار الذين كان ينبغي عليهم بحكم مركزهم أن يكونوا حراساً ورعاة لمصالحي ، لم يكونوا يسعون إلـى السلطة إلا من أجل انفسهم رغم ماكانوا يبدونه لي في الظاهر من نية طيبة ، وفي حلكة مداولاتهم انقضوا على إخوة ابي فقتلوهم . وعندما ماتت امي افتصبوا السلطة لأنفسهم . وبسبب من ذنوبي ويتمي ويفاعتي قتل عدد كبير من الناس في منازعات داخلية ، وكبرت مهملاً بدون تعلبم قاسي الطبع بسبب من تصرفات البويار المخاتلة ، ومنذ ذلك الوقت كم من مرة أخطأت في حق الله وكم من العقوبات انزلها بنا ! . ليس لمـرة واحدة أو مرتين اننا سعينا للانتقام من أعدائنا وإنما كنا نفعل ذلك دائماً وبدون نتيجـة . وانا لا افهم كيف يرسل الله لي كل هـذه العقوبات ولا أندم واتوب بل استمر في ممارسة كل انواع الشـدة والعنف على الشعب المسيحي . لقد عاقبني الله بسبب ذنوبي بالفيضان والمجاعـة ولم أندم مع ذلك يومذاك ، واخيراً ارسل الله لي هذا الحريق فدخل

الرعب في نفسي حتى ارتجفت عظامي والآن أثرت هذه الأحداث بي فتبت من اعمالي السيئة وانبت إلى الله وطلبت الغفران من رجال الدين ، وبإنابتي عفوت أيضاً عن البويار والأمراء » .

وهكذا تبدو سمة جديدة في حياة إيفان بعد أن نضجت ثمار علاقاته الطويلة مع المتروبوليت ماكاري والتأثير الروحي للكاهن سيلفيستر دون أن ننسى نفوذ اناستاسيا المهدىء اللطيف لأننا لا ينبغي علينا أن نجهل ماكان لها من نفوذ ، فقد كان إيفان في أولى سنوات زواجه من هذه المرأة الفاضلة التي تضاف إلى كل صفاتها الرقة والإنسانية والتقى والجمال . ونحن بطبيعة الحال نفترض هذا النفوذ افتراضاً دون أن نتمكن من البرهان عليه . ولم تكن القيصرة في عزلتها ضمن الييريم(*) تستقبل رجال الدولة لتحدثهم أو تقدم لهم النصح ، كما أنها لم تكن غالباً تتناول الطعام مع القيصر وسط حاشيته وإنما كانت تعيش مختبئة عن العيان لا يربطها أي احتكاك بالرجال إذا استثنينا زوجها إيفان وفي بعض المناسبات أخاه يوري والمتروبوليت الشيخ أو مرشدها الديني . ففي ذلك الوقت كانت المرأة ما أن تتزوج حتى تدخل فيما يمكن تسميته حالة من العبودية المقدسة .

وكان الوقت قد حان للاحتفال بزواج جديد . فقد فكر إيفان أن اخاه الصغير يوري لابد أن يتمتع بما تمتع به هو من سعادة فقاده إلى المتروبوليت ليتلقى نصائحه وبركاته . واجتمع البلاط من جديد لانتخاب زوجة للأمير من بين بنات روسيا الشابات « وكان للأمير الحق في اختيار من تعجبه من بينهن سواء رضيت به أو لم تفعل . وعندما اجتمعت المرشحات وقفت عينا الأمير عند الأميرة أوليانا التي احبها من أول نظرة وقد سعد إيفان بذلك كل السعادة واسرع في استعدادات الزواج . وعندما تم الاستعداد لكل شيء نصب في اليوم المحدد عرشان في قاعـــة

---

* الييريم Ierem القسم من المسكن المخصص للنساء ، ومن الواضح أنه مشتق من كلمة « حريم » المألوفة في بيوت العثمانيين — المترجم —

الاستقبال في القصر وكانت تلك واحدة من المناسبات التي تظهر فيها القيصرة اناستاسيا امام انظار الجمهور . وقد دخل القيصر والقيصرة امام افراد البلاط كلهم إلى القاعة وصعدا الى عرشيهما مزينين بالجواهر الثمينة ومزوقين بثياب من الذهب والفضة بينما يضع القيصر على راسه التاج ويحمل الصولجان ، وكانت القيصرة مزينة راسها بالماس والياقوت وعندئذ امر القيصر اخاه أن يقترب كي يمنحه مباركته فاقترب يوري وباركه القيصر والقيصرة وبعدهما المتروبوليت . ثم جلس يوري عند قدمي القيصرة فسكبت الخمر على شعره وضمخت به رأسه والى جانبها خادم يمسك بيده مشطاً من الذهب كي تتمكن من استعماله . وبعد ذلك قدمت التبريكات الى الأميرة اوليانا وجلست الى جانب الأمير يوري ومشط شعر الفتاة على الطريقة نفسها وقامت القيصرة تروح للعروسين بفراء سمور . وقدمت لكل افراد البلاط قطع من قماش كتاني ، مطرز ثم قام القيصر والقيصرة وتلقى الزوجان الشابان الخمر من يدي جلالتيهما وقد حدث ذلك في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٤٧ وتلاه وليمة كبيرة .

وتلا ذلك عاما ١٥٤٨ و ١٥٤٩ فكانا اكثر السنوات هدوءاًفي تاريخ موسكو . فقد نهضت المدينة بسرعة ، ولكن إعادة بناء عاصمة بهذا الاتساع لا يتم في يوم . ففي بداية شتاء ١٥٤٧ – ١٥٤٨ كانت ركاماً من المخابىء والملاجىء يسكن في كل منها عدد من العائلات ، وفي الربيع من عام ١٥٤٨ بدأت بيوت جديدة ودكاكين جديدة في الارتفاع فوق الارتفاع فوق الأساسات القديمة التي سورها الدخان .

وفي عام ١٥٤٩ اصبحت المدينة اكثر شبها بما كانت عليه من قبل حيث استعادت ابنية الكريملين حقا رواءها ورغدها الأولين . اما التجارة فكان بطيئا إصلاحها ولكن ذهب العاصمة لم يكن قد ضاع فقام سوق هام لبيع وشراء مواد البناء والسجاد والفراء والأقمشة . وتقدمت المدن الشقيقة لموسكو لمساعدتها وارسلت لها كثيرا من الأشياء ذات القيمة في ذلك العصر كالذخائر المقدسة والأيقونات بدلا عن تلك التي اخذها او اتلفها

الحريق . إلا ان قسمـــا كبيرا من الخســـائر لم يكن بالامكان تعويضـــه كالايقونات التي كانت تنتقل في العائلات من جيل الى جيل وثياب الزواج التقليدية التي كانت الفتيات تتلقينها من أمهاتهن وأمهات أمهاتهن منذ ازمان لا تطولها الذاكرة ، ولكن ذكرى هذه التقاليد كانت تحل محل التقاليد نفسها فتحفظها من الضياع .

ولم يكن القيصر والأمراء والبويار يشتركون بانفسهم في عمليـــة إعادة البناء بل كانوا يقتصرون علـــى اصدار الأوامر وهم يجوبون على خيولهم ميدان العمل الواسع فيتمكنون من رؤية موسكو وهي تنبعث من الرماد . وفي هذه الأثناء كان ثمة مشهد آخر يستدعي الأسى ويتطلب عناية القيصر واهتمامه هو تقدم التتر في روسيا من جديد . فإلى الجنوب من موسكو وعلى بعد حوالي سبعين كيلو مترا والى الشمال الشرقي منها أيضاً كانت ارض روسيا مغطاة بعظام المسيحيين والقرى قد نالها التدمير . وكان إيڤان في توبته الرائعة واستقامته يتحرق الى المسير للاقاة الوثنيين على رأس جيشه ، وهكذا بدأ حملته في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٤٧ بينما كانت تغطي الارض طبقة كثيفة من الثلج ، ولكن الحرارة ما لبثت ان تغيرت على عكس ما هو معتاد وترك الجليد والثلج مكانهما لأمطار لا تكف عن الهطول . وعندما بلغ القيصر الفولغا في نحو من مطلع شباط فبراير توقف في جزيرة قرب نيجني حيث كان الڤولغا متجمدا وقدروا أن سماكة الجليد قد تبلغ مترا على السطح . وفي صبيحة اليوم الاول شهد إيڤان كارثة في المكان الذي يحتله . فقـــد كان من الطبيعي استعمال النهر المتجمد طريقا للعبور ، ولكن في اللحظة التي بدأ فيها الجيش والمدفعية تنتظم للاستعراض رأى القيصر الماء ينبثق على طول حفتي النهر وصدوعا كبيرة تخطط سطح الجليد وما لبثت المياه أن ابتلعت فوراً قسماً من الجيش وبدا كأن الله لم يبارك إيڤان الذي رأى في هـــذه الكارثة نبوءة شؤم . وبما أنه اعتقد بأن خطاياه لم يشملها الله بغفرانه بعد فانه رفض أن يتابع المسير وعاد الى موسكو ليتابع فيها حياة الصوم والصلاة وعهد بمتابعة العمليات العسكرية الى الأمير ديمتري بييلسكي .

وقد توجه بيبلسكي الى قازان . ولم يكن هدفه في الحقيقة الاستيلاء على هذه المدينة لأن ذلك كان مستحيلا بالعدد القليل من الجنود الذين كان يقودهم وإنمـا ليقوم باستعراض عضـلات تجبر التتر على وضع حـد لتعدياتهم وسلبهم وكان ذلك في شباط وآذار (فبراير ومارس) من عـام ١٥٤٨ .

وفي العام التالي انتحر امير قازان التتري صفا غيراي في قصره وهو سكران وخلفه ابنه الطفل اتامش . ولكن السكان طلبوا من خان تتر القرم ان يرسل لهم ولده كي يحكمهم . وفي الوقت نفسه سارعوا بإرسـال وفـد الى إيفان يعرضون عليـه السلام . واجاب إيفان بأنه لا يتعامل الا مع سفراء تمت تسميتهم بشكل نظامي . ولكن هؤلاء السفراء لم يصلوا وتهيأ إيفان لحملة جديدة . وفي ٢٤ تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٤٩ مضى القيصر مصحوبا باخيه يوري ونبلائه وانصاره المسلحين وتبعهم المتروبوليت في هذه المرة حتى فلاديمير حيث بارك القيصر وجيشه من اجل العمل الرباني الذي كانوا يقومون به . واتخذوا طريقهم . وفي الرابع عشر من شباط فبراير عام ١٥٥٠ كانوا تحت أسوار قازان . وقد حوصرت المدينة وانتصبت ابراج المهاجمين مقابل جدران المدينة التترية وتحصيناتها الترابية . وكانت ضجة المنجنيقات والعرادات تطغى على اصوات المدفعية حتى تمكن إيفان وسيفه في يده من دخول المدينة مع رجالـه واجرى فيها مذبحـة كبيرة دون ان يتمكن من الاستيلاء عـلى الحصن . وكان عـدد الروس المهاجمين ستين ألفـاً . وكان يمكنهم ان ينتصروا لولا أنه حدث في اليوم التالي ذوبان سريع للثلوج رافقته امطار غزيرة فلم تتمكن المدافع من السير وانكسر الجليد فوق الفولغا من جديد وخاف الروس من أن يقطع الفيضان عليهم الطريق . وحدث بينهم هرج ومرج إن لم نقل ذعر شديد . وقرر القيصر حالا ان يقاتل وهو يتراجع وإن لم يحدث عمليا في المؤخرة اي قتال . وانتظر سكان قازان حتى غاب العدو تماما عن الأنظار ليقوموا بجمع ما تركه وراءه من مخلفات . وعندما وجد إيفان ان احدا لم يتبعه قرر ان يبني ذكرى لحملته مدينة على ضفاف

الفولغا في مكان قريب من قازان عند مصب السفياغا Sviaga . وقد بنيت هذه المدينة فوق ارض عدوة وكرست لتكون حصنا مسيحيا يستخدم قاعدة انطلاق لحملة قادمة على قازان . وقد سعى إيفان من وراء اقامة هذا الاثر المادي ان يغطي فشلا لامراء فيه ، ولكن ذلك لم يمنع انتشار الاقاويل ضده واكثر من ذلك ضد ديمتري بيلسكي الذي اتهموه بالخيانة . ومات هذا الامير الذي كان أخا لإيفان بيلسكي السيء الحظ بعد عودة الجيش الى موسكو بقليل . ومع ذلك فانه لم يكن خائنا وان بدا قليل الكفاءة فيما أسند اليه من مهمة .



الفصـــل الثــامن

إيڤــان في سن العشرين

في سن العشرين بلغ إيڤان كامل نموه . كان طوله حوالي متر ونمانين سنتمترا كامل البنية لا نقص في جسده . وكان خجله وميله لأن يتجنب انظار الآخرين يشكلان تناقضا مع مظهره الضخم وصفاته الفروســية وهياته المميزة . وكان العقل عنده يطغى على الحمية والشك ترك طابعه على فمه وقسمات جبهته . وهم يمثلونه عادة بعينين واسعتين مندهشتين اشــبه ما تكونان بعيني حيوان خائف . وكان أنفــه المعقوف الدقيق ارستقراطيا لطيفا وفمه فم جبان حذر . وكان شعره الأسود يسقط طويلا على جانبي وجهه ولكنه يقص قصا قصيرا من الخلف . اما هيأته البيزنطية فيعلوها الم معنوي ومزاج عصبي وتبدو خطرة تلهم الرعب .

ومن بين عدد من العلامات المميزة والمفارقة أنه كان يشعر بإشفاق على نفسه يتنامى على الدوام ، وكان يشعر بأهمية لقبه كما لم يشعر احد من أجداده من قبل فهو الملك الالهي والقيصر الغامض لكل روســيا الذي تقوم كلمته مقام القانون ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبقى دائم القلق مرهقا بهذا الشعور . وقد تطور شعوره بقدرته اللامتناهية جنبا الى جنب مع اشفاقه على نفســه ، وهكذا بقي يتذمر مدة طويلة من أنه كان تعيســـا يتيما وهو في الثالثــة من العمر وقــد أهمل البويار تثقيفه واغتصبوا السلطة منه ، وكانت سعادته الكبرى في أن يتحدث مع الكهنة أو الرهبان في بعض المواضيع الدينية أو التي تتعلق بالكهنوت . وكان بامكانه ان يكون هازئا سريع البديهة ولكنه لا يلبث أن يعود الى قلقه الذي

لا يحول عنه ويكرر الكلام بدون نهاية عن مظالم طفولته الشقية ، وحتى في يفاعته المبكرة جداً كان مزاجه المندفع يجعله فجأة غاضباً ميالاً إلى العنف كما لو ان قريننا مجنونا مخيفا يكمن وراء سحنته البيزنطية . ولم يكن يستطيع احد ان يتنبأ قط بما سيفعله حتى في أفضل أوقاته .

كانت أجمل حقبة في حياته عندما كان يشعر وهو في سن العشرين بأنه يرزح تحت تهديد من غضب إلهي ويرفع اصبع التوبه بفضل نفوذ ماكاري العجوز وبفضل زوجته الناعمة أنا ستاسيا . وكانت موسكو الجديدة قد اتسعت أمام ناظريه وارتفعت الصلبان فوق المنازل التي اعيد بناؤها وسكب الكهنة الماء المبارك على البيوت الجديدة . وقد تمت تغطية اسقف المنازل بالطين لكي لا تتمكن الشرارات الخارجة من المداخن ان تتسبب في حريق جديد ولم تعد موسكو الجديدة مدينة من الخشب كما كانت من قبل وأصبح لبعض نوافذها اطارات من حديد كما أصبح للقلة النادرة من بيوتها اساسات من حجر . ولكي يوقف دخول الهواء جهزوا الواجهات بالطحالب أو غطوها بلحاء أشجار البتولة ، ولكن هذا التصرف الأخير كان أكثر خطرا من الخشب لأن النار كان بامكانها ان تكمن هنا مدة طويلة في السر ثم ما تلبث أن تلتهب بسرعة بفعل الريح ، ولم يكن في موسكو مطافيء ، ولم يكن فيها من ماء الا ما يجلب من النهر ، والصلاة كانت وحدها هي مايحمي من الحريق .

ومع ذلك فان الشعب بعد المصائب التي ابتلاه بها الله استطاع ان يستعيد هدوءه وبدأ عهد جديد . ولكي يحسن القيصر الاحتفال بهذه المناسبة قرر بتأثير من نصائح أرداتشيف وسيلفستر ان يقوم بعمل يجعل منه أباً للشعب . ففي عام ١٥٥٠ بعد عيد ميلاده بقليل دعا لانعقاد مجلس يمثل النبلاء والشعب كان ينبغي أن ينعقد في الهواء الطلق في ميدان الكريملين الكبير . وهيأ لانعقاده بالصوم والصلاة وتناول القربان الذي سيساعده بدعم من جسد السيد المسيح ودمه على أن يعلن أمام رعاياه بدء سياسة جديدة في روسيا ، وتوجه الى المتروپوليت بهذه الكلمات :

« ايها الأب المقدس . بعد خدمة نحتفل بها في الهواء الطلق أعلن عن معرفتي لمحبتك ورعايتك سلام الوطن فكن عوني في العمل المبارك الذي قررنا أن نباشر به . فمنذ ساعة مبكرة من حياتي حرمني الله من الأب والأم وأراد النبلاء حكم البلاد دون أن يظهروا لي أي اهتمام ، وباسمي سرقوا السلطة والأعطيات واغتنوا عن طريق الابتزاز والاغتصاب واضطهدوا الشعب ولم يقف في طريقهم احد . ولقد بدوت في طفولتي البائسة اطرش واخرس فلم اسمع أنين الفقراء ولم تنطق شفتاي بأي كلام » . ثم توجه بحماسة نحو النبلاء ووجه إليهم هـذه الكلمـات : « انتم ، أنتم أيهـا الملعونون المتمردون ايها الاداريون الخونة لقد صنعتم بروسيا كل ما حلا لكم ، فبماذا تردون على اتهاماتي ؟ ، كم من الدموع أجريتم ؟ ، كم من الدم اهرقتم ؟ ، إنني بريء من هذا الدم وستنالون عقاب ما اقترفتموه من آثام امام محكمة السماء . » .

ثم توجه بعد ذلك الى الشعب مستمراً في توجيه الكلام : « أيهـا الشعب الذي اعطانيه الله ، اتوسل إليكم أن تؤمنوا به وتمنحوني محبتكم . كونوا كرماء ! ، فمن المستحيل أن نصحح أخطاء الماضي ، ولن أستطيع إلا في المستقبل ان اجنبكم الاضطهاد وأنقذكم من السلب والنهب . فانسوا ما لن يتكرر ولنطرد من نفوسنا الكراهية والبغضاء ولنعش كلنا في رحاب المحبة المسيحية ، فمنذ هذا اليوم ساكون قاضيكم والمدافع عنكم . » .

وقد عهد الى ارداتشيف أن ينظر في مظالم كل أولئك الذين كانوا يعتقدون انهم غبنوا اثناء حكم البويار الفاسد وأن يلفت نظر إيفان الى المظالم التي يمكن مداواتها . وكان عليه ان يعمل بدون خوف فليس لأحد من كبار عائلات روسيا أن يمسه . على اننا لا نعرف عدد أولئك الذين واتتهم الشجاعة لتقديم مظالمهم بناء على دعوة القيصر ، ولا شك أنهم كانوا قلائل . ولكن اللفتة كانت كريمة ، « فالقيصر باركه الله سيتلقى شكاوانا » ، ولكن هل كان ثمة بسطاء يتجرؤون على تقديم شكاواهم على القيصر والعائلات النبيلة ؟. ومع ذلك فإن أرداتشيف وسيلفستر لم

يقوما باتصالات واسعة مع الشعب الذي كان بامكانه بناء على الفرصة التي سنحت له ان يعرف القيصر بعدد كبير من حالات التجاوزات والمظالم . وكانت النتيجة الأولى لهذه الدعوة الى تقديم الشكاوى العامة هي انجاز مجموعة جديدة من القوانين بدىء بكتابتها في عام ١٥٥٠ نفسه .

لقد كانت روسيا دولة تخلى فيها الأمراء الوراثيون واسياد الأراضي عن استقلالهم ولكنهم لم يتخلوا عن قوانيتهم . وكانت مجموعة القوانين سيئة التنظيم . فالقانون المعمول به في موسكو لا يمكن اعتباره ملزما في نوفغورود وبسكوف والعكس بالعكس. وكان إيڤان يقف في أعلى مكان من الامبراطورية فوق أمراء البلاد ، فلم يكن مستغربا اذن شعور أول قيصر لروسيا بواجبه في وضع مجموعة قوانين جديدة للبلاد. وكان من الواجب ايجاد ربط بين كل القوانين المحلية والغاء بعضها بسبب ما فيها من تناقضات .

واشترك القيصر الشاب بنفسه في موضوع إعادة النظـر . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد درس التشريع فإنه كان يمتلك مع ذلك رؤى محددة عما يريد إدخاله في القوانين الجديدة . ولقد اظهر مرة أخرى ان ترقية نفسه الى مرتبة القيصر لم تكن مجـرد إجراء شكلي فتغيير اللقب كان لا بد من ان يتخذ مكانه في تعديل القانون . وكان إيڤان يريد أن يجمع بين يديه جزءاً كبيراً من السلطة الموزعـة على الأمراء ، فكلمة « السيادة » كانت تعني المركزية وتوحي باستبداد اكبر . وإيڤان الذي كان قد اختار مستشارين من الشعب كان يسعى للحصول على سند لعرشه في عنصر اقل اضطراباً واقل قسوة من طبقة النبلاء .

ويجب أن نفترض ان الشعب الروسي كان مسروراً من فكرة أن يكون محكوماً من القيصر نفسه بدلاً من موظفين من النبلاء وأن يعـاد النظر في قوانين البلاد كي تكون اكثر وضوحاً . وكان للبويار والحاشية ممثلوهم ولكنهم لم يكونوا يشكلون وحدهم كل روسيا ، فعلى الرغم من

ممتلكاتهم الواسعة وأقنانهم لم يكونوا ليتأخروا عن ارتداء الأسمال لولا رخاء العدد الوافر من التجار الذين كانوا يعيشون من ورائهم .

وكبداية لعصر افضل فإن الأكثر سوءاً من البويار تم إبعادهم عن موسكو ، وهكذا انتزعت من الأمير ميشيل غلينسكي وظائفه في البلاط وسمح له بالانسحاب بهدوء الى ممتلكاته ، واصبح زاخارين عم القيصر عضواً في مجلس الدولة . اما يوري أخو إيفان فكان يعيش بعد أن تزوج معيشة البذخ في الكريملين ويتلقى من الهدايا بقدر ما كان يتلقى القيصر نفسه . وكانت الصداقة تسود بين الأخوين ، وكان إيفان يبدأ أحاديثه غالبا بهذه الكلمات : « أخي وأنا ... » .

وبعد أن اقر القيصر مجموعة القوانين المدنية الجديدة التي كان قد انشاها انصرف باهتمامه الى الأخطاء في سلك الكهنوت وامر بعقد اجتماع لذلك في الثالث والعشرين من شباط فبراير عام ١٥٥١ .



الفصـــل التاســـع

الكنيســـة

لم يرتفع متروپوليتات موسكو الى رتبة البطاركة إلا في عام ١٥٨٩ اي بعد خمسة أعوام من وفاة إيفان ، وكان الأتراك قـد استولوا على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ واستعبدوا الشرق الأرثوذكسي وافقـروا البطاركة والأديرة . وكانت الأمة الأغنى من غيرها بما لا يقاس والأكثر قوة في مجموعة الكنيسـة الأرثوذكسية هي روسيا التي سلمت من احتلال المسلمين . وكان لا بد للكنيسـة الأرثوذكسية الروسية في السنوات التي تلت من أن يكون لهـا بطريركها الخاص بها طالما كانت تسلك معـارج القوة والمجـد .

إلا أن الكنيسة بمقدار ما كانت تصبح أكثر غنى كانت تضعف فيهـا الروح . والأوقاف التي كان قد وقفها عليها أشرار النفوس لتهدئة غضب الإله بعد حياة قضوها في الخطيئة سببت للكنائس الكثير من التعقيدات الرهيبة . وفي زمن إيفان الرابع كانت الكنيسة غنية جداً فجرّ غناها هذا السلطة الدنيوية الى الاغتصاب . وإنه لما يثير الفضول في روسيا إيفان الرابع المفرطة التقى أن نشاهد أن الثروة المكدسة في الأديرة لم تكن تعتبر بكل بساطة « ملكاً لله » ، كما أن من المدهش حقاً أن حياة وسـلوك أولئك الذين غادروا هـذا العالـم ولم يتم دفنهم بعـد كانا قابلين للنقاش .

إن الريح تهب حيث تشاء . ويبدو أن النسيم الذي كان يهب يومذاك من جهة الغرب قد وصل الى روسيا . وفي مؤتمر الكنيسة الذي عقد عام ١٥٥١ هاجم إيفان في الوقت نفسه اخلاقية الكنيسة وشرعية حقوقها في امتلاك أملاكها الواسعة . وكانت عاصفة الإصلاح تضرب أوروبا الغربية يومذاك وينسمع في موسكو هزيم غامض لما يحدث هناك من رعود .

وقد ارتفعت في الكنيسة نفسها بعض المطالب بالإصلاح وربما كان ذلك بتحريض من سيلفستر أو من ارشمندريث دير سيرجي تروتيسكي الجديد أن عنقد المؤتمر . وكان المتروپوليت ماكاري باعتباره خادماً متواضعاً لله يرضى بإخضاع الكنيسة للنقد إن لم يكن للعقاب ولكن الإيحاء بذلك لم يأت منه . كان ميالاً للصلاة اكثر من ميله للنقاش ، والصلاة الطويلة لا تؤدي في بعض الأحيان إلا الى عرقلة الأعمال . كما أنه كان ميالا — وهو المحبوب الحصيف لا شك في ذلك — الى البخل النابع عن التقى كما لو أن إنذار « أنا إلهك الإله الغيور » يتضمن الغيرة على كل شيء أعطي لله من أن يعطى لأحد من بني البشر : اما في موضوع الأخلاق فإن فكرة أن ام المسيح يمكن أن تكون شيئاً آخر غير أن تكون عذراء قد رفضت بكل عصبية .

والواقع أن مؤتمر عام ١٥٥١ لم يضم إلا القليل من الناس . ومهما يكن من أمر فإن قصر القيصر لم يكن فيه مكان يتسع لمجلس عام يضم رجال الدين من الروس ، فكان الحضور تسعة أساقفة وكل الأرشمندريتات وكل رؤساء الأديرة والمتروپوليت نفسه ، وقد استقبلهم القيصر مع مجلسه من البويار لدرجة انهم بدوا وكأنهم مدعوون للمثول أمام محكمة من العلمانيين .

وكان معظم أعضاء الإكليروس يعتقدون بدون شك انهم أحضروهم للموافقة على مجموعة القوانين الجديدة ومباركتها ، وكان ذلك في الواقع أول عمل من أعمال المجلس . وفي خطاب كان إيفان قد القى بعضه على

الجمهور تحدث إليهم عن المظالم التي تعرض لها في حداثته وعن غضب الله الذي انقض على مدينة موسكو وسألهم بكل تواضع أن يدينوا ما بدا منه من خطيئات : « أدينوني بسببها ولتدوّي كلمة الله كيما تستطيع نفسي أن تعيش ! » ، وبطبيعة الحال لم يفعل الإكليروس شيئاً من ذلك. وأخيراً شرح لهم إيفان أحكام مجموعة القوانين المدنية الجديدة فسرّهم ذلك وأقروا باسم الله هذه القوانين .

إلا ان مفاجأة كانت تنتظرهم . فبدلاً من أن يكونوا مخولين بالانسحاب توجب عليهم ان يمكثوا لدراسة الاقتراحات التي كانت قد جهزت بكل عناية لإصلاح الكنيسة . فإيفان كان قد ألف بمساعدة سيلقيستر وارداتشيف لائحة أسئلة مكتوبة عالج فيها موضوع الممتلكات التابعة للأديرة والعادات واخطاء النساخ في الكتب الدينية والهرطقات والاختلاسات . وكما لو انهم أرادوا أن يضعوا نهاية للقرون الوسطى تقرر إيقاف نسخ كتب الطقوس باليد وإنشاء مطبعة في موسكو ، ذلك لان خطيئة يكرسها مرور الوقت لها من القوة اكثر مما للمعرفة . ويجب الا ندهش من ان اول مطبعة انشئت ما لبث أن دمرها الجمهور . وكان القليل من الكهنة العاديين يعرفون فك الحروف ولكنهم كانوا في المقابل يحفظون الخدمات الدينية عن ظهر قلب . ولم يكن إيفان قادراً على إقرار الجهل ، ومن اجل القضاء عليه كان لا بد له من الكثير من الكتب. وهكذا لم يتاخر في إقناع ثيودوس مطران نوفغورود ونيكاندر مطران روستوف ڤيليكي وتريفون أسقف سوزدال وسيپريان أسقف پيرم والمتروپوليت ماكاري بأن يقروا إنشاء مدارس كنسية في موسكو وفي مدن أخرى . وتملصت الكنيسة من موضوع العادات . ففي بلاد تنتشر فيها الأديرة في كل مكان تقريبا لا بد من مواجهة حالات من الشذوذ الجنسي ، وقد أمكن الإجابة على ذلك بأن تنسكاً مفرطاً يمكنه أن يعوض من جهة أخرى هذه الشذوذات . والواقع انه كان يوجد الكثير من التنسك غير المسؤول فتقرر منع إقامة مناسك جديدة غير مرخصة في الغابات والمغاور والأماكن المقفرة .

وبما أن الرهبان كانوا من الناحية النظرية موتى في نظر العالم فقد اقترح أن تعلن الأراضي التابعة للأديرة جزءاً من أملاك التاج على أن تتمتع الأنظمة الدينية بحق الانتفاع من هذه الاراضي وأن يكون هذا الحق مرتبطاً برغبة القيصر . ولكن رجال الدين رفضوا هذا الاقتراح بعنف بطبيعة الحال ووجب على القيصر أن يكتفي بقبول قانون ينص على أن الأساقفة والأديرة لا تستطيع في المستقبل أن تقوم بأية حيازة او تملك إلا بموافقة منه(١) . وكان ينبغي للأراضي التي اعطيت الى الكنيسة اثناء يفاعة إيفان أن تعود الى أصحابها السابقين . فقد ثبت بوضوح أن الممتلكات الوراثية للعائلات التاريخية الكبيرة أصابها تغيير وتبديل وان الورثة لا يمكن قانوناً ان يحرموا من أملاكهم بسبب تقى بعض الجدود . وفي الحالات التي وجدت الكنيسة بها مالكة حانيا لمثل هذه الأملاك التي لا يجوز التصرف بها فإنها ستكون مضطرة لإعادتها . ومن المحتمل ان يكون القرار المتخذ بإنقاص ممتلكات الكنيسة أهم نتيجة توصل اليها المؤتمر . وقد استمر النقاش الكبير خلاله طوال الوقت حتى لم يبق مكان للطعام والشراب . والمؤتمرون الدين صاموا على ذلك صوماً اضطراريا وأكثروا من الصلاة بقوافي جلستهم المستمرة طول ايام الصوم الكبير . وقد لزموا الصوم في هذه الفترة بدون منة ولا شكور .

وفي كل شتاء ١٥٥٠ — ١٥٥١ كانت الحرب ضد قازان تكمن تحت الرماد لأن اهتمام إيفان كان منصرفا دائما لمناقشة القضايا الدينية والقانونية التي كانت تطغى على ما كان يتلقاه من اخبار الجبهة الشرقية. وكان الأقنان خلال ذلك يقطعون أشجار الغابات الأكثر قرباً من مدينة سفيازهسك الجديدة وسط الجليد والثلوج ليحصلوا منها على الأخشاب اللازمة لبناء المنازل والكنائس في تلك المدينة التي امر بإشادتها إيفان .

---

(١) ولكن هذا القانون لم يطبق واستمر انتقال الاراضي غير المشروع دون انقطاع طوال عهد إيفان رغم إعلان القانون من جديد عام ١٥٨٠ . ومع ذلك فإن القيصر رغم تقواه كان يسلب الأرزاق من الكنيسة في مناسبات عديدة ليضمها الى ثروته .

وقد أرسل تتر قازان الذين أفادوا من انسحاب الجيش الروسي بعيداً عن أسوارهم أرسلوا يطلبون المدد الفوري من مملكة التتر والمساعدات حتى من سلطان تركيا نفسه . ووصلت الأنباء الى موسكو بأن خان القرم كان يتقدم نحو الشمال وان جيشاً أرسل لملاقاته دون أن يكتشف مكانه . وكان الخان سيب غيراي يعتبر نفسه عاهلاً لا يقل عظمة عن إيفان نفسه . وكان قد استولى حديثا على استراخان التي كانت يومذاك مدينة مزدهرة وأعرب عن حقوق له على قازان وبالتالي على كل منطقة الفولغا الممتدة من قازان حتى بحر قزوين . وكان يشعر أنه من القوة بحيث يستطيع أن يعرض الصلح على إيفان مقابل خمسة عشر ألف قطعة ذهبية على روسيا أن تدفعها له كل عام .

« كنت من قبل يافعاً وقد أدركت الآن سن الرشد ، فاخبرني عن رغبتك ، هل تريد الصداقة أو إراقة الدماء ؟ فإذا كانت الصداقة فارسل لي من الهدايا ما يليق بأمير وخمسة عشر ألف قطعة ذهبية في كل عام . أما إذا أردت القتال فأنا مستعد للسير الى موسكو وستطأ خيولي باقدامها كل أراضيك » .

وكان رد إيفان عليه انه وضع كل سفرائه في السجن . وهكذا لم تلق عروض السلام التي قدمها خان القرم وأمير قازان أي احترام من إيفان لأن الحرب ضد الوثنيين كانت في نظره حرباً مقدسة . كان بإمكانه أن يعقد مهادنات ولكنه لا يعقد أبداً سلاماً نهائياً مع هؤلاء الأعداء . والذين كانوا يموتون وهم يقاتلون المسلمين يذهبون رأساً الى السماء وهم يحملون أخباراً مجيدة ، فهذه الحروب كانت تتحلق حولها هالة من نور. وكان الكهنة يحملون خلال المعمعة صلبانهم وإيقوناتهم ، ففي أثناء حصار قازان رفعوا صور العذراء المقدسة الى جانب المنجنيقات والعرادات وبقيت المصابيح مضاءة طول الوقت الذي استغرقه الهجوم . أما المدافعون المسلمون فكانوا يقابلون شعارات التقى هذه بكلام وعبارات رفض مؤرخو العصر أن يكرروها كما كانوا يرفعون أرديتهم ليكشفوا عن مؤخراتهم

استهزاء بالمهاجمين . وكان سلوكهم هــذا يشبه ســلوك إغريق عصر الانحطاط الذين كانوا يفعلون مثل ذلك من اعلــى أسوارهم استهزاء بالرومـــان .

ويمكننا اليوم ان نتساءل لمَ لمْ يخرج المدافعون عن قازان لتدمير المنشآت الاولى من سفيازهسك التي كان تهديدها لهم يتزايد يوما بعد يوم امام اعينهم . مهما يكن من أمر فإنه في الثامن عشر من ايار مايو ١٥٥١ قبل الفجر خرج الروس من سفيازهسك فهاجموا قازان بغتة واخترقوا تحصيناتها الخارجية وقتلوا الفا من التتر وهم نيام وهلك العديد من امراء التتر ووجهاء المدينة في هذا الهجوم وعاد الروس الى قاعدتهم سفيازهسك بدون اية خسـائر . وكان لا بد لكارثة كهذه أن تقنع شعب قازان بانه لن يصمد طويلا امام الروس .

ولم تكن الأميرة الشابة صوغونبيكا مع ابنها الصغــير سوى حاكمة بالاسم على قازان . ولكن الأميرة كانت قد اتخذت لنفسها عشيقاً أحد امراء التتر من القرم واسمه كوشاك كان يبدو انه قادر على اغتيال الطفل ليضفي على نفسه بعد ذلك لقب امير قازان . وكان مكروها في المدينة لدرجة أن مؤامرة دبرت عليه من اجــل وضعه في الاغلال هو وانصاره الرئيسيين وتسليمهم كلهم للروس . ولكن كوشاك لاذ بالفرار اثناء الليل مع خمسة واربعين من أصدقائه دون أن يتمكن من الإفلات من الروس الذين القوا القبض عليه وارسلوه الى موسكو مكبلاً بالاغلال . ويقال إن إيفان عرض عليه أن يحفظ عليه حياته إذا تعمد واعتنق المسيحية ولكنه رفض فقتل هو وجميع الاسرى الذين كانوا معه .

وجرت محادثات لعقد الصلح وطلب القيصر استسلام صوغونبيكا وولدها . ومن أجل ان يحفظ سكان قازان سلامتهم أرسلوا الاميرة في زورق . وتروي القصة أن قازان كلها كانت تسكب الدموع على منظر الأميرة الجميلة الضعيفة صوغونبيكا التي أجبروا على تسليمها وان الاميرة ركعت امام قبر زوجها صفا متمنية لنفسها ما كان يتمتع به من سلام ،

ثم اتخذت مكانها في مركب زُيِّن احسن زينة (الأمر الذي يشبه اسطورة شعرية اكثر مما يشبه قصة) تقدم بجهود مجد فيه ببطء على طول نهر قازان الصغير . وقد صعد كل سكان المدينـــة فوق الأسوار يواكبون بأنظارهم اميرتهم وابنها اتامش وحاشيتهما من التتر . وعند مدخل نهر الفولغا التقت بمبعوث قيصر الذي صعد الى ظهر المركب فعزاها وحياها باسم سيده . ثم قيدت بعد ذلك حتى مصب الأوكا بالفولغا ومن هناك الى نهر موسكفا واخيرا الى موسكو حيث استقبلت استقبالا حافــلا واعتنقت الديانة المسيحية . وفي السنة التالية بعد ولادة ديميتري ابن إيفان احتفل بعمادين احدهما لديميتري والثاني لاتامش .



الفصــل العاشــر

فتــح قــازان

« كل نواقيس نوفغورود تقرع لأن قازان تم الاستيلاء عليهـا » ، هذا ما يمكننا قراءته في حولية نوفغورود القديمة . وقد قرعت نواقيس موسكو كلها ايضا . وكلما تلقت واحدة من مدن روسيا القديمة النبا اخذت نواقيسها بالرنين . كان فرحا قوميا كبيراً فقد ضمت قازان الى المسيحية . كان انتصاراً لامة الكنيسة امة الله . والإيقونات الأرثوذكسية لن تلبث أن تخترق الفولغا ، وروسيا الظافرة ببريق حظها اصبحت على ابواب آسيا وهلال الإسلام كان يخبو نوره امام ضياء فجر السلاف.

لقد انهى إيفان سيطرة التتر على قازان . فالقربينات والمدافـع والاعمال التي قام بها المهندسون الالمـان اثبتت تفوقهـا على القوس والسيف . « فالتتر لم يكونوا يستخدمون في قتالهم اي سلاح ناري ولم يكونوا اكثر من اناس عراة يمتطون الخيول ماهريـن في استعمال القوس والسيف . وثمة رواية تستحق التصديق بانهم يولدون عمياً ولا يفتحون جفونهم إلا في اليوم الثالث وهذا لا يحدث إلا عندهم وانهم شعب بربري فقط يعيشون على نتاج الماشية والتغذي بها . . . وعندما يغزون اراضي أعدائهم لا يحمل احدهم من المؤونة اكثر من كيس مـن الطحين ياخذ منه طول مدة المسيرة حفنة يبللها بدم حار ماخوذ بواسطة إبرة مخصصة لهذه الغاية من فخذ حصانه » (١) . وهكذا كانوا يعيشون

---

(١) رسالة من وليام هاربون الى سير فرانسيس والسينغهام .

عبر العصور . وهم أيضاً شعب متوحش خطر كان خلال السنوات الأخيرة يهدد موسكو على الدوام ولكنه ما لبث أن أصبح أكثر لطفاً وليناً في المعاملة مع السنين . ومع أنهم كانوا أعظم فاتحي العالم بعد الإسكندر المكدوني فإنهم أصبحوا غير قادرين على الاحتفاظ بضفاف الفولغا الغابية . في القرن السادس عشر كانوا لا يزالون قادرين على الصمود في ميادين القتال ولكنهم ما لبثوا كلهم أن أصبحوا بعد ثلاثة قرون من ذلك تجاراً صغاراً وباعة ذوي ثياب رثة دون أية بارقة من طموح سياسي . وفي عام ١٥٥١ كان رأي نصف سكان قازان على الأقل أن يستسلموا لإيفان ، « فهو عاهل كريم وسنعيش في ظله في بحبوحة من العيش » . وكان يوجد من بينهم عدد من الفارين اللاجئين الى إيفان وعدد من الخونة نذكر منهم الشيخ علي الذي كان أداة في يد القيصر . فبعد رحيل صوغونبيكا دبر الشيخ علي هذا مذبحة كبيرة للتتر حيث نظم مأدبة كبيرة دعا إليها كبار الوجهاء في قازان ثم قام بذبحهم بمساعدة عصابة من القتلة ، وكان عدد من قضوا نحبهم في هذه المصيدة سبعين شخصاً .

وعندما وصل خبر ذلك الى إيفان الرهيب ، ودون أن يخفي احتقاره لهذا العمل ، أرسل أرداتشيف الى قازان ليقول للشيخ علي أن موسكو كانت تعرف تماماً أن سكان قازان البائسين كانوا عاجزين عن حكم أنفسهم وأن القيصر ينوي القدوم عما قريب للاستيلاء على المدينة ويمنحها حمايته الجليلة كما يمنحها للأمير الشيخ . ولكن عندما دعي الشيخ لاعتناق المسيحية رفض ذلك بتعال وكبرياء . والواقع أنه كان من الصعب التعامل معه فدعي للقدوم الى موسكو للتفاهم . وعين القيصر الأمير ميكولينسكي حاكماً على قازان ، وقدم السكان للقائه عند ضفاف الفولغا وقدموا له الاحترام والتبجيل . وقضى ميكولينسكي وأرداتشيف معظم وقتهما في سيفازهسك وقلما سمح لهما بدخول حصن قازان بينما لم يكن في المدينة نفسها إلا حفنة من الجنود الروس . وكان السكان يماطلون مع إظهارهم القبول بميكولينسكي حاكماً عليهم ، ولكنهم

ما لبثوا أن فكروا بالمقاومة بكل الوسائل التي تقع تحت تصرفهم وما لبث أرداتشيف وميكولينسكي أن وجدا أبواب المدينة مغلقة امامهما والمدافعين يستهزئون بهما من اعالي الأسوار . ولكن إذا كان التتر لم يجدوا الشجاعة على قتل هذين الروسيين فإنهم لن يجدوها في مقاومة إيفان الرهيب .

في آذار مارس من عام ١٥٥٢ وفي وسط اجتماع عام لمجلس البويار أعلن إيفان عن عزمه الانتهاء من قازان . وقال في تصريحه : « إن الله قرأ ما في قلبي . فأنا لا أريد مجداً أرضياً ولكنني اريد سلاماً للمسيحية . وكيف يمكنني ان أردد في صلواتي هذه العبارة : (أنا والشعب الذي أعطيتني إياه) إذا لم أنقذه من ضراوة أعدائنا الدائمين ؟ » .

وقدم البويار نصيحتهم للقيصر بأن يبقى في موسكو تحسباً من قيام تتر القرم بهجوم من الجنوب . ولكن القيصر كان قد حزم امره على أن يرافق جيشه الى الجبهة الشرقية ليكسب بشخصه أكاليل الغار التي سيجنيها هناك . وكان يبدو للروس أن الأمر لن يعدو أن يكون نزهة بسيطة .

ومن اجل مضاعفة فرص النجاح تم تجهيز جيش قوي جداً كان فيه عدد من حملة القربينات الذين كان يطلق عليهم اسم Strieltsi أي الذين يطلقون النار ، كما كان فيه كوزاق شاركوا للمرة الأولى بأعداد كبيرة في الحروب الروسية . ثم يأتي المدفعيون مع مدافعهم . وكان المدفع يفتن عقل الروس الذين كانوا في ذلك الوقت في الطليعة في مضمار استعمال المدافع بالنسبة لمعظم الأمم الأوروبية .

ولزم مايقرب من ثلاثة أشهر لتجميع مثل هذه القوة كان الحظ خلالها يبتسم بصورة متناوبة للتتر في قازان . ففي خلال طلعاتهم من الحصن فاجؤوا الروس وقتلوا منهم أمراء وأبناء امراء وذبحوا عدداً كبيراً من اعدائهم وطلبوا مساعدات مسلحة من القرم ومن استراخان .

وفي الوقت نفسه تفشى وباء الإسقربوط في سفيازهسك فمات الكثيرون واسلم الناجون انفسهم للموبقات الجنسية . وما كاد الجيش يقع في هذه الخطيئة حتى ارسل المتروپوليت رسولاً هو تيموثي يحمل الماء المبارك وامراً بإعادة الضالين إلى التوبة والندامة . والكتاب الذي أرسله المتروپوليت وحمله إلى تيموثي كتاب يلفت النظر جاء فيه ما يلي :

« بنعمة الله وحكمة قيصرنا وبسالة جيشنا استطعنا ان نرفع حصن الكنيسة فوق أرض عدوة . فقد أسقط الله قازان بين أيدينا وازدهرت أحوالنا وغدونا مشهورين حتى صار الألمان واللتوانيون يخطبون ودنا . فكيف نستطيع ان نعبر عن حمدنا للعلي الأعلى لو أن ما تم لم يكن برعايته وتوجيهاته ؟ ولكن هل لاحظتموها أنتم ؟. إن الشائعات أقلقت قلب المليك كما أقلقت قلبنا. فقد قيل إن نفراً منكم نسي مقت الله وغضبه فانغمس في الخطايا كما فعل أهل عمورية وسدوم وأن كثيراً من الفتيات والنساء ذوات المظهر المحتشم قدمن من قازان ليمارسن الفحش بينكم وان رجالاً منكم يقومون من أجل ارضائهن بإسقاط لحاهم بواسطة المقص منكرين في خنونتهم أنهم من الرجال . ولكن الله سيعاقبكم ليس بالمرض فحسب وإنما بالخجل والعار. ماذا فعلتم بأمجادكم ؟. كنتم رعباً فيما مضى على عدوكم فغدوتم اليوم موضع سخريته وهزئه . إن الخطيئة تضعف الرجال الأقوياء والسلاح ينثلم عندما تهرب الفضيلة من القلب لقد ارتكبت اعمال شائنة ووجد بينكم خونة ... والله وإيڤان والكنيسة يأمرونكم بالتوبة والندامة . اصلحوا من سلوككم وإلا ستعرفون غضب القيصر وتسمعون لعنة الكنيسة » .

ولاشك أن هذه الرسالة كتبت بالتعاون بين المتروبوليت والقيصر. ونحن نجهل ما إذا كان انحلال الأخلاق الروسية قد وقع بعد البأساء الناجمة عن الأسقربوط او أنها انتقلت إليهم من العادات التترية . على أن التتر كانوا في ذلك العصر اكثر فظاظة من الروس . فنحن نرى الشيخ علي الذي كان يسمي نفسه قيصر قازان سميناً لاهثاً نهماً صاخبا خائنا دموياً كسولاً نموذجاً لكل هذه الصفات . ولم يتعرض في موسكو لسوء

في المعاملة بل قدم له القيصر الهدايا والعطاءات ، وبدلاً من أن يتعرض للنقمة او يقطع رأسه اخذ يتودد إلى صونغونبيكا الجميلة التي اعجب بها ونال إذن القيصر بالزواج منها وحدث ذلك في بداية الصيف من عام ١٥٥٢ . وقد قدم الشيخ علي نصيحته للقيصر بلهجة مخلصة بأن يؤجل فتح قازان حتى الشتاء التالي ولكن إيفان كان مصمماً وقال له : « إن كل شيء جاهز وبمعونة الله سننهي هذه المهمة على خير وجه » .

وقد عهد إيفان لأخيه يوري بأعنة الحكم خلال وجوده في الجبهة ورجا المتروبوليت والأساقفة أن يساعدوه بإمداده بنصائحهم كما طلب منهم أن يقووا من عزيمة أنا ستاسيا . فالقيصرة كانت حاملاً وقد بكت بدموع غزيرة عندما بلغها نبأ خروج القيصر إلى القتال . وبينما كانت تستند على كفيها وهي تنتحب طلب منها أن تعنى بالفقراء والمساكين اثناء غيابه وأن تحتفظ بمفاتيح السجون وأن إرادتها ستكون إرادته إذا رأت من الحكمة أن تفتح أبوابها لمن تشاء مهما كان السبب الداعي إلى الاعتقال . ونحن نتبين هنا طبيعة أنا ستاسيا ، فلو انها كانت سيدة مجتمع باردة العواطف قاسية القلب لما اعطاها إيفان الفرصة لكي تكون امرأة طيبة على هواه .

أما في الظاهر فإن انفصال القيصر عن القيصرة كان سبباً لإقامة حفل رسمي في كاتدرائية قازان . ويروى أن أنا ستاسيا ركعت على ركبتيها وصلت من أجل صحة زوجها ونصره ومجده وكان إيفان يقف إلى جانبها أثناء الصلاة ، فلما انتهت منها نهضت وقبلته . ومضى القيصر أمام سياج من النبلاء متجهاً نحو جواده الذي كان ينتظره أمام باب الكاتدرائية فامتطاه وذهب للالتحاق بجيشه .

لم يكن هناك مجال لإضاعة لحظة واحدة . فقد كانت نصيحة الشيخ علي بالانتظار بضعة أشهر أسوأ ما يمكن أن يقال لأن كل القوى التي كان بإمكان التتر أن يجهزوها كانت تتحرك الآن . فالقبيلة القادمة من الجنوب بلغت مدينة تولا واقامت عليها الحصار . وكان العدو يقترب

من قازان . وخان تتر القرم على رأس الإنكشارية وعدد كبير من المدفعية وبضعة مئات من الجمال كان يقوم على الأقل باستعراض للقوة كبير . فلو أنه تقدم إلى الشمال الشرقي بدلاً من الشمال وهاجم الجيش المفكك في سفيازهسك لكان بإمكان الخان أن يفشل مشروع القيصر الكبير . أو لو أنه كان يعرف موقع إيفان على نهر الأوكا لكان بإمكانه أن يتجنب الهزيمة . ولكن الحرس المتقدم من الجيش الروسي وقع على القبيلة مداهمة وأوقع بها هزيمة كاملة على الرغم من أنه كان أقل عدداً بكثير جداً من القوات التترية لدرجة أن الخان وجب عليه أن يترك كل جماله وكمية كبيرة من أسلحته مع عدد كبير من القتلى والجرحى . أما سكان تولا المدنيون الذين كانوا محصنين أحسن تحصين فقد ارتقوا أعالي استحكاماتهم وهم يصيحون : « إنه القيصر ، إنه القيصر أتى لإنقاذنا » .

فهل في هذا المكان حكم على جمل بالموت لأنه لم يشأ أن يركع أمام إيفان ؟ . ولكن إيفان لم يكن إلا في العشرين من العمر ولم يكن قد رأى في حياته مثل هذه الكمية المجتمعة من الجمال . وكانت الغنيمة التي تركها التتر ضخمة للغاية حتى لقد أبدى القيصر رغبة طفولية في إحصائها وإرسالها الى موسكو لكي تراها أنا ستاسيا وهناك عرضت أمام الجمهور الذي كان يبصق على أسرى التتر المكبلين بالإغلال ويقف مذهولاً أمام الجمال .

حدثت هذه المعركة في أواخر حزيران يونيه . وفي الثالث من تموز يوليه صدرت الأوامر إلى كل الجيش بالسير الى قازان . وكانوا يحتفظون في كولومنا بصورة السيدة العذراء التي كان ديمتري دونسكوي قد جلبها الى المعركة عندما الحق بالسلطان مامي هزيمته الكبرى ، وقد رجا إيفان هذه الصورة أن تمنحه نصراً شبيهاً بذلك على التتر ، فلم يكن لا هو ولا جيشه يوفرون فرصة ليطلبوا شفاعة القديسين من أجل النصر . واعتبرت كل التباشير الحسنة مثل خبر توقف وباء الأسقربوط عن الانتشار في سفيازهسك وعودة روح النظام الى الجيش اعتبرت كل هذه التباشير رداً على ما كانوا يقدمونه للقديسين من ادعية

وصلوات ، ولم يعد بامكان احد أن يشك بأن الله كان في صف إيفان ، وقدم إليه رسل من العاصمة موسكو ليحملوا إليه نبأ أن موسكو كلها كانت تصلي من أجل نجاحه وان ثقة القيصرة به لا يعتورها نقص ولا فتور . وقد نصحه المتروپوليت بهذه العبارة التي الحقها به : « ولكن كن طاهراً وعفيف الفكر ، كن متواضعا في النصر وشجاعا في تحمل الآلام » .

وكان يجب للوصول الى قازان تتبع الأوكا والفولغا والمرور بكولومنا وريازان وكاسيموف وموروم ونيجني نوفغورود . أما القيصر فقد مضى على جواده حتى فلاديمير ومنها الى موروم ، واما الشيخ على هذا الفالستاف(*) Falstaff ذو الوجه النحاسي فإنه اتخذ طريق النهر برفقة الأمير بولغاكوف ومعهم حملة قربينات وفصيل من مهندسي الجسور .

وفي الليلة الثالثة نصبت خيمة القيصر في غابة ساكان ، وفي الرابعة في فسحة على ضفاف الإيرزها ، وفي الخامسة على الأفشا وفي السادسة على الكيفسا وفي السابعة على ضفة بحيرة إيكشا وفي الثامنة في جوار كازيموف . وحضر أمراء كازيموف وتيمنيكوف بأنفسهم مع جيوشهم وانصارهم ليلتحقوا بكتلة الجيش الرئيسية . وانقضى شهر تموز يوليو في وسط الغابات ومجاري المياه التي تمت مصادفتها في الطريق الى موروم . أما الذين اتخذوا طريقهم في المراكب فقد سبقوا بكثير رجال المدفعية والفرسان . وفي شهر آب أغسطس خرجت مفرزة كبيرة من الأمراء والبويار من سفيازهسك وقدموا على الخيول لملاقاة القيصر كما قدم مبعوثون من الشيريميز وقبائل اخرى يعرضون عليه ولاءهم وخضوعهم . وقد دخل قوزاق الدون في التاريخ الروسي بعدد كبير من

(*) فالستاف Falstaff ضابط انكليزي شهير كان رفيقا لهنري الخامس في مفاسده ، وقد جعل منه شكسبير نموذجا للفساد والانحلال والوقاحة .

ـ المترجم ـ

الفرسان . وعلى طول الطريق حتى الفولغا كانت تتجلى للعيان كل أبهة روسيا القرن السادس عشر التي تكتنفها الأسرار . وفي الثالث عشر من آب أغسطس كان الموكب كله على مرأى من سفيازهسك التي كان قد انشأها القيصر .

وزار إيڤان هذه المدينة المحدثة بكنائسها ودار صناعتها وحصونها وبيوتها فوجدها حسنة البناء واضاف أنه لا يوجد في رأيه في كل روسيا مدينة بمثل جمالها اذا ألقيت عليها نظرة من أعلى أسوارها . وكان ذلك تقديرا عجيبا وحديثا لهذه المدينة . وبينما كان يقيم فيها بدات البلطات ترن بالأخشاب لأنهم ارادوا أن يبنوا له فيها بيتا أثناء وجوده . ولكن إيڤان غادرها مسرعاً نحو خيمته المنصوبة في احد المروج خارج المدينة حيث ارسل من هناك بمساعدة من الشيخ علي رسالة مكتوبة باللغة التترية الى إيديجر حاكم قازان يدعو فيها سكان المدينة للاستسلام ضامنا لهم عفو روسيا . ولكن بما أن الموضوع كان في الحقيقية نزاعا بين الهلال والصليب فقد كان من غير المحتمل أن يقبل سكان قازان منه هذا العرض. ومع ذلك فان الخيار أمامهم كان بين أمرين هما الاستسلام أو الموت لأن قازان لم يكن امامها أية فرصة للنجاح .

واصدر القيصر أوامره للبويار بأن يقوموا باحصاء الجنود الموجودين تحت قياداتهم فوجدوا انهم يناهزون مائة وخمسين الفاً . ومن المحتمل أن بعض البويار بالغوا قليلا في عدد من كانوا يقودونهم من الجنود لكي ينالوا رضا إيڤان او يظهروا اكثر اهمية مما كانوا عليه في الواقع ، ولكن مما لا شك فيه ان إيڤان كان يمتلك من اجل فتح قازان جيشا بالغ القوة.
وبسبب من طمع في الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تجنى من بيع الأغذية والبضائع لهذه الكمية الكبيرة من الرجال وصل التجار والباعة المتجولون واصحاب الدكاكين الصغيرة في المراكب يتبع بعضهم بعضاً الى سفيازهسك من نيجني غورود وموسكو وياروسلاف وكانت حمولاتهم تشكل منظرا جميلا تحت أشعة شمس شهر آب اغسطس اللامعة .

وفي العشرين من آب اغسطس وصل جواب إيديجر بالرفض . وكان هذا الرد مهينا وساخرا ، فقد نعت الشيخ علي بالخائن وأبلغ إيفان أن قازان تبصق عليه وعلى روسيا وتفاخر باسلامها وترفض المسيحية وان « كل شيء جاهز هنا لكم ونحن تدعوكم الى وليمتنا » . ومع ذلك فإن واحدا من المسلمين المتنفذين فر تحت جنح الظلام من المدينة ومعه نساؤه وخدمه وأعلن خضوعه للروس . وقد ذكر أن عدد المدافعين عن المدينة كان يبلغ حوالين ثلاثين ألفا مع وفرة من الأغذية والذخائر ، وكان استقبال إيفان وديا لهؤلاء الهاربين . وفي صباح اليوم التالي أصدر إيفان امره بالتقدم . وكان يقف منتصبا في معسكره أمام راية رسمت عليها صورة المسيح ، وبينما كان يركز عليها ناظريه توجه إليها قائلا بصوت عال : « أبي ، باسمك نحن نتقدم » .

وتم إنزال المدافع والبارود من ظهور المراكب ، وجمعت الأخشاب لتشييد بروج الحصار حيث كانت مجموعات يتألف كل منها من عشرة مشاة تنقل المواد الضرورية لكل برج . ورفعت الايقونات والصلبان والقناديل عاليا كما رفع الصليب الكبير الذي كانوا ينقلونه معهم في كل معركة منذ عدة عصور . وكان يحرس الرموز الكنسية هذه كهنة ذوو شعور طويلة وثياب طقسية بينما كانت رائحة البخور تتصاعد في نسيم الصباح . وعندما اخترقت الشمس الضباب وانارت أعالي المآذن فوق أسوار قازان القاتمة بدأت الطبول تقرع ومئات الأبواق يرتفع منهـا الضجيج .

ولم يكن الروس يخفون تقدمهم نحو التتر . وقد قام الجيش الروسي كله بوقفة جديدة يتلو صلواته قبل اندفاعه في الهجوم . وكان لدى التتر كل الوقت اللازم للاستعداد قبل وصول العدو .

كانت قازان مثل موسكو تتألف من مدينة ومن حصن واسع بما فيه الكفاية ليؤوي كل الشعب في حالة الخطر . وعندما دخل الروس إلى المدينة في ذلك الصباح وجدوها خالية على عروشها يخيم عليهـا

الصمت . وكان هذا الصمت بالغاً حتى ظنوا أن سكانها قد ماتوا أو لاذوا بالفرار . وكانت الكتلة الرئيسية من الجيش الروسي قد باشرت أعمال الحصار بينما كانت سرايا من الستريليتسي حملة القربينات تندفع في الداخل للاستطلاع . ومرت فترة انتظار ربما كانت أكثر إقلاقاً داخل القلعة مما كانت في الخارج . وكان نصف مقاتلي التتر مستعدين لإطاعة الإشارة التي تأمرهم بالخروج وهم مؤلفون من خمسة عشر ألفاً من الرجال ذوي العضلات المفتولة التي وترها الخوف والتصميم على الموت، اعصابهم مشدودة ويقفون وراء أبواب الحصن الحديدية السميكة ، وفجاة انفتحت هذه الأبواب وكانها تنين مخيف واندفعت جماهير التتر تحمل في أيديها سيوفها المعقوفة وتطلق صرخاتها المرعبة لا يشكل فيها المشاة والفرسان الا كتلة متراصة واحدة . أما حملة القربينات من الروس فقد نالهم الذعر والهول وطاش صوابهم من مفاجاة الهجوم ومن صراخ العدو وما هو على وجوه رجاله من تكشير وتصميم على القتال ، فلاذوا بالفرار حالاً وما لبثت الشوارع أن أصبحت بدمائهم جدولاً احمر دون ان يقاوموا حتى غدوا خارج المدينة ، وعندما اصبحوا هناك كادوا ينشرون الذعر في صفوف الجيش لولا شجاعة الشباب من الأمراء والبويار الذين كانوا صفوف ضباط وملازمين في ذلك العصر . فقد أعاد هؤلاء النبلاء لم الشمل في صفوف الستريليتسي Strieltsi الذين ضربهم الرعب وجرت معركة مواجهة مخططة حسب العادات القديمة تحت اسوار قازان . وارتمت آلاف النبال التترية من فوق الأسوار على كتل الروس المترصة . ولكن حمية المسلمين ما لبثت أن نفدت شيئاً فشيئاً وعاد المحاصرون إلى حصنهم وتبعهم الروس والقوا القبض على عدد من الأسرى . وكان القوم في كلا المعسكرين يتبادلون التهاني بمفاخر هـذا اليوم .

واعتبر هذا الالتحام كافياً بالنسبة لليوم الأول من القتال وانصرف الروس الى إتمام الحصار الكامل على المدينة. وكان الليل هادئاً . أما في اليوم التالي فقد انفجرت عاصفة عنيفة وبدا كأن الله لم يكن الى جانب الروس.

ولم تكن عاصفة عادية بل كانت أشبه بإعصار ذي دوامات قلعت الخيام وقلبت الى الأرض الكنائس التي بنيت حديثا في الريف ورفعت أمواجا عالية فوق النهر واكتسحت المراكب والأساطيل النهرية وأغرقتها مدمرة ومفرقة كل شيء . فضاعت كل المواد الغذائية وكل الالبسة السميكة الصالحة للخريف وكمية كبيرة من الذخيرة ووجد أن جهود اشهر طويلة صارت الى العدم خلال بضع الساعات التي استغرقتها العاصفة . ومن حسن الحظ أن التتر كانوا ضعيفي الخيال فلم يدركوا ما حل بمعسكر العدو عندما حالت بينهم وبينه سحابة كثيفة من الرمل والغبار غطت عن أنظارهم جيش المحاصرين ، وكان بامكان سكان قازان في لحظة من اللحظات ان ينتهوا بسرعة من جيش إيفان نفسه ، ولكن هذه المعركة الثانية كانت من « صنع الله » ولم يكن لدى التتر من حضور البديهة ما يمكنهم من الافادة منها .

عندما رأى إيفان مشهد هذا الخراب جمع التجار والباعة المتجولين واتخذ معهم التدابير اللازمة لاعادة تموين الجيش بأقصى همة ونشاط وتجهيزه بالكثير من الثياب الدافئة . وكان قد رأى ان قازان كانت أشد تحصينا مما كان يظن فقرر ان يحاصرها بكامل جيشه حتى ولو كلفه ذلك قضاء الشتاء كله في الحصار . وكانت تلك واحدة من المناسبات التي تبدت فيها ارادة إيفان الرهيب وإصراره الحازم .

كان ينبغي له وهو أقوى من المحاصرين بخمسة مقابل واحد ان يستولي على قازان بهجوم سريع . فقد كانت تحصيناتها مصنوعة من التراب والخشب ، وعلى الرغم من أن هذه المواد كانت تبدي مقاومة أكبر من التحصينات الحجرية في وجه قنابل المدفعية فقد كان من السهل فتح ثغرة فيها للمرور . ولكن مزاج الروس في القتال كان يشبه مزاج زمرة من الذئاب تنتظر وتنهك وتزمجر وتنسحب وتعود دائما باعداد أكبر .

كان جيش القيصر الضخم في حركة دائمة . وكان المدافعون في المدينة يلاحظون غالبا إيفان الذي لا يناله كلال ولا ملال ولكنه يبقى

دائما خارج نطاق سهامهم . ومع ذلك فان رامي القوس كان أكثر وثوقا من رميته البعيدة المدى من حامل القربينة ، وفي معارك قازان كان استعمال القوس والسهام اوسع مدى ، وكان المحاصرون يستمرون في سكب الماء الغالي على الأعداء الذين يحاولون ارتقاء الأسوار بينما كان الروس يحاولون اجتذاب التتر الى الخارج بارسالهم مفارز صغيرة في أوضاع سيئة ما تلبث ان تنسحب وهي تقاتل عبر الغابات . وعندما كانوا يحصلون على اسرى كانوا يربطونهم الى اعمدة امام الاسوار ويجبرونهم على الصراخ امام المحاصرين بأن الاستسلام اجدى وافضل، وكان التتر يجيبون على ذلك برمي هؤلاء المساكين بسهامهم لأنه أكرم لهم ان يموتوا بنبال المسلمين من أن يموتوا ببطء على يد المسيحيين .

ولم يكن الروس يكفون ابدا عن بذل الوعود التتر بالحرية والحياة إذا سلموا مدينتهم . وعلى الرغم من ان إيفان كان رهيبا في ظروف أخرى فانه لم يكن يريد ان يتحمل خسائر لا فائدة منها ، فكان يضع تحت الأسوار رجالا يرددون دائما : « استسلموا ! استسلموا » بهدف أن يكون من نتائج هذه الستراتيجية حقن الدم الروسي . ولم يكن التتر يثقون بهذه الوعود ويعرفون انها لا تساوي شيئاً وانهم إذا استسلموا أو هزموا فان رقابهم ستمر على حد السيوف . وكانوا خلال الشهر الأول من الحصار يأملون بأن الجيش الروسي سيتفرق مع الوقت بعد فشله في انتصار سريع .

ولكن الروس مع بداية أيلول سبتمر حفروا لهم انفاقا تحت الارض وتتبعوا فيها مصدر الماء الرئيسي الذي يغذي المدينة مستهدين في ذلك بحركة الشوارع التي تدور فوق رؤوسهم . وكان التتر يملكون كمية وافرة من الماء . فوضع ايفان كمية من بارود المدافع بالقرب من النبع وفي صبيحة احد الايام بينما كان معظم الناس في المدينة ينزحون مياههم حدث الانفجار وراه ايفان وهو يقف فوق تلة ترابية كان قد انشأها لتسمح له بالمراقبة . ونجحت العملية ليس فقط في احداث تفجير كان سائغاً على اسماعه وانما في انهيار جزء هام من سور القلعة وما لبثت

فرق من المهاجمين أن جهزت فوراً وارسلت من خلال الصدع ، ولكن التتر على الرغم مما انتابهم من دهشة مما حدث تمكنوا من صد هذا الهجوم .

وفي اليوم التالي تلقى الامير غورباتي شويسكي أمراً بتدبير نزول فوق جزء محمي من المدينة حيث كانت توجد بيوت محاطة ببساتين وحدائق . وكان الهجوم موفقا اذ كان الالتحام حادا وقصيرا انتصر فيه الروس واخترق جيش الامير غورباتي شويسكي ما اعتقده نوعا من جنات النعيم حيث كان الخبز وعسل الموسم يتوافرون بكثرة وحيث كانت القطعان ترعى تحت الاشجار المحملة بالثمار ، فأحرقوا المنازل وقتلوا كل السكان من الذكور وعادوا الى معسكرهم وهم يغنون وقد حملوا عرباتهم بالمؤن .

ولا شك ان التتر كان لديهم في الايام العشرة الاوائل من ايلول سبتمر الكثير من المشاكل التي تحتاج الى التفكير والتدبير ولكنهم لم يكونوا ابدا متخاذلين . فكانوا يصعدون فوق الاسوار ويظهرون علامات غضبهم للروس فيعتقد هؤلاء أن ذلك إنما هو نوع من السحر ، كما كانوا يقومون تجاههم باشارات فاحشة فكانت نتيجة ذلك السلوك حسب كل الدلائل في نظر الروس أن اخذت السماء تمطر فعرقلت نشاطهم عرقلة كبيرة مما اجبر الكنيسة على العمل بسرعة لدفع الاذى فجهزت ماء مباركاً رشقته فوق المعسكر حتى عاد الطقس الجميل .

عندئذ دفع الروس بأبراج حصارهم الصغيرة قليلا نحو الاسوار وما لبثت ان تقدم تحت جنح الظلام بناء عظيم مبني من الخشب ويسير على عجلات حتى قارب الاسوار . وكان ارتفاع هذه الآلة اثني عشر مترا وقد وضع فيها عشرة من المدافع الضخمة وخمسون اخرى صغيرة مع جيش من المدافعين والرماة . وكان الستريليتسي (الرماة) يسيطرون من أعلى آلة الحرب هذه على شوارع المدينة ويستطيعون رمي من يحلو لهم من الناس ولكن مجال الرماية كان محدودا على كل حال . على

أن هذا البناء الخشبي الضخم أجبر عددا كبيرا من المدافعين على أن يبحثوا لهم عن ملجأ في الكهوف والثقوب المحفورة في الارض وأصبح وضعهم حرجاً ، ولكن القيصر قدم لهم عفوه مرة أخرى إذا وافقوا على اخلاء المدينة والذهاب حيث يشاؤون .

وفي هذه الاثناء كان وضع الالغام مستمرا في مناطق مختلفة تحت المدينة ، وفي الثلاثين من ايلول من سبتمبر حدث انفجار رهيب تبعه انفجار آخر في الثاني من تشرين الأول اكتوبر . أما التتر الذين طردوا من ملاجئهم بفعل الدمر والصدمة فقد اندفعوا صفوفا متراصة نحـــو الروس على أمل القيام بالتحام اخير ، وحدثت بين الطرفين معركـــة رهيبة دامية في آخر يوم من ايلول سبتمبر . واعتقد البويار أن الساعة قد ازفت لمعركة عامة والحوا على إيفان بأن ينتهز الفرصة للانتهاء من قازان في ذلك اليوم بالذات ، ولكن إيفان لم يكن متعجلاً فقد كان ينبغي على الجيش كله اولا أن يقوم بالاعتراف والمناولة ليكون مهيأ المـــوت والخلود ، أما العقول الاقل ورعا بين الروس فلم تكن مكتفية بالبقاء سلبية في هذا الموقف الديني بل أخذت تستفيد من وقت الصلوات هذا لاعداد نفسها لمواجهة الالتحام العام القادم . وهكذا كرست كميات كبيرة من المواد لردم الالحفر ورأى التتر في معسكر العدو نشاطا غير معتاد ففهموا أنه يعد العدة من اجل القيام بهجوم لاقتحام الحصـــن فأعدوا لذلك أهبتهم وتهيؤوا لموقعة الغداة .

وفي صبيحة اليوم التالي بينما كان القيصر في الخـــدمة الدينية أصابته رجفة لدى سماعه ضجة انفجار رهيب تحت أسوار قازان . لقد انفجر آخر لغم وكان ذلك اشارة لبدء الهجوم . أما القيصر فقد نظف الغبار الذي ملأ عينيه وتابع واجباته الدينية . ونحـــن ندهش اليوم من رؤية شاب ذي مزاج حاد يكتفي بالسجود في الكنيسة بينما

جيشه يحقق نصراً مؤزراً وما كاد ينتهي من تلقي البركات حتى كان النسر ذو الراسين يخفق فوق اعلى برج في قازان .

كان الجيش قد احتل الحصن ، ومضى القيصر محروسا نحو مسرح المجزرة حيث باع كل تتري حياته لقاء حياتين من الروس. وكانت المعركة قد انتهت بنصر كان أشد تنفيذات الاعدام رعبا. وفتح الروس طريقهم من شارع الى شارع وهم يقاتلون بينما الجثث يتكدس بعضها فوق بعض في وسط الطرقات . وأمام كل باب وفي كل ممر من ممرات البيوت كان يدور قتال يائس ، وصليل السيوف والزمجرة والصراخ والزئير كانت وراءهذه الضجة المخيفة التي انتشرت في كل مكان . ولم يكن القيصر والامراء على علم كامل بما يفعله جنودهم هنا وهناك ولكنهم سمحوا لانفسهم بالافتراض بأن الجيش كان يتقدم في كل مكان ولم يكن هـذا الافتراض في بعض الاحيان مبنياً على أساس.وعندما وصل الموسكوفيون الى السوق حيث كانت توجد كميات كبيرة من الاشياء من الفضـة والأحجار الثمينة والفراء والحرير كف الجنود عن احراق بيوت التتر وتوقفوا عن المذبحة ولم يعودوا يهتمون إلا بالنهب والسلب ، وقد اعطى هذا التوقف للعدو فرصة لم الصف حتى بدا للحظة أن مصير المعركة في ذلك اليوم أمرا مشكوكا فيه .

ولكن الروس كانوا كثيري العدد جدا ، اما الناهبون فقد اصيبوا بذعر شديد ولاذوا بالفرار يتبعهم العدو ، واما الجسم الرئيسي مـن الجيش فقد بقي بعيداً عن الانهيار . وانتهت مذبحة التتر ، واصبحت الزوجات ارامل والاطفال أيتاما لانهم لم يكونوا يوفرون سوى النساء والاطفال الذين بيع معظمهم في أسواق العبيد . وفيما بعد الظهر مـن اليوم الثاني من تشرين الاول اكتوبر كان النصر كاملا وشكر ايفـان جنوده وطلب أن يحفظـوا عليهم ما كسبه كل منهم الا الجواهـر الملكية لامراء قازان التي ينبغي ردها اليه والى بيته .

وفي صبيحة اليوم التالي تم رفع الموتى الذين كانوا يملؤون شوارع المدينة واقيم موكب ديني غنى فيه الجميع نشيد الـ «Te Deum» (*) ورفع القيصر الصليب الذي « يعطي الحياة » في المكان الذي كانت ترتفع فيه راية التتر الرئيسية ، وهكذا انضمت قازان الى الأرض الروسية .

* * *

(*) الاصل الكامل هو : «Te Deum Laudamus» اي « إلهنا نحن نحمدك » وهو نشيد شهير ينشد في المناسبات الاحتفالية عند المسيحيين .
المترجم

الفصل الحادي عشر

مولـــد ولي العهـــد

في خلال هذه الحرب لم يطلق إيڤان طلقة واحدة من بندقيـــة ولا استل سيفاً ولا وقف على راس جيوشه لقيادتها في الهجمات ، ولا يبدو أن شخصه الملكي تعرض قط لأي نوع من الأخطار . وكان يلتف حوله حرس وافر العدد من الرجال المسلحين حتى ان نصف الجيش كان احيانا يتفرغ فقط لحمايته . فلم تكن فيه إذن صورة البطل التي يقدمونه لنا من خلالها ولا ارتدى اية عدة للحرب ولا نزل الى الخنادق ليرى كيف يتصرف الجنود ، بل وأكثر من ذلك انه لم يفلت مرة من مراقبة جنوده للقيام بمغامرة ما أو حتى لدراسة احوال العـــدو ، بل اقتصرت مهمة وجوده بين جنوده على أنه كان مصدراً للإيحاء والإلهام . ولم يكن من عادة غراندوقات موسكو أن يباشروا القتال بأنفسهم ، فبدا إيڤان الشاب ذو اللباس الفاخر الذي لم يكن يكف عن التماس شفاعة الله والقديسين لينصروه ، بدا كنجمة لامعة بهية البريق .

« هنيئاً لك أيها القيصر البالغ التقى ! فبفضل مكانتك وحسن حظك أحرزنا النصر وغدت قازان لنا . إن الأمير إيديجر بين أيدينا والناس إما قتلى أو اسرى ، وقد جمعنا من الكنوز ما لا يعد ولا يحصى فبماذا تأمرنا الآن ؟ » .

هكذا قال الأمير ميشيل فوروتنسكي القائد العام للجيش .

« إننا نفوض العزة والمجد للعلي الأعلى » ، بذلك اجاب إيڤان .

واقتيد الأمير إيديجر الى أمام القيصر حيث ركع وأقر بذنبه واعتذر جهاراً فسامحه القيصر على ما بدر منه من مقاومة وتعانق الشيخ علي وإيديجر وبدا ان ثمة تتريين على الأقل كانا سعيدين في هذا اليوم ، ذلك الذي نجا من المجزرة وذلك الذي شارك في النصر ، وقرر إيديجر أن يصبح مسيحياً منذ ذلك الوقت .

ويقول مدون اخبار هذه الفترة إن التبشير الكنسي في ذلك العصر إنما يفسر بواقعة أن إشارة البدء بالهجوم والإنفجار الكبير قد حدثا في اللحظة التي كان فيها الكاهن في خدمته الدينية يقرا هذه الكلمات : « لن يوجد إلا قطيع واحـــد ..... فكل العالم سيغدو مسيحياً » فكان ذلك أمـــلاً وإيماناً . وان يصبح إيديجر مسيحياً كان معناه : « ان على كل مسلم ان يترك دينه لأنه لن ينفعه في القتال ! » .

اما إيفان الذي كان سعيداً بما تم فقد دعـــا جنوده « بالمكدونيين الجديرين بأن يكونوا احفاداً لأولئك الرجـــال الذين قاتلوا تحت إمرة الفراندوق ديمتري عندما انتصر على ملمي الشهير » ، ذلك لأنهم احرزوا نصراً سيكتب لهم في السماء .

ثم اقيمت الولائم والاحتفالات في المعسكر وارتفعت العقائر بالغناء وانصرف الجنود الذين غزوا النساء في خدورهن يتسلون مع سباياهم التتريات اللواتي غدا بعضهن بدون شك تحت ضغط الظروف وبعد أن قتل أزواجهن واقتداء بما فعله إيديجر غدون مسيحيات وأصبحن مع أطفالهن روساً وخلفن بعد ذلك أبناء للروس وادخلن في العروق الروسية دماً أصبح مميزاً لهذا الجنس .

اما قازان فلم تعد شيئاً بعد أن خلت من السكان . وأمر إيفان ببناء كاتدرائية عين مكانها في المدينة كما أمر بإزالة عدد من المساجد وأملى إرادته بأن يرى مكانها كنائس جديدة . ولكن لم يكن ثمة عدد كاف من المسيحيين لإقامة الصلاة في هذه المعابد إلا إذا طلب من الجيش ان يستقر

في هذا المكان الذي استولى عليه . وقد عين القيصر على المدينة حاكماً يساعده موظف إداري ، ومنحت امتيازات لتجــار موســكو ونيجني نوفغورود ومع ذلك لم يكن ذلك كافياً لإعادة الحياة الى قازان . ففي خلال قرون عديدة كانت هذه المدينة قد اصبحت أكبر سوق في الشرق . وعندما كانت مدينة بلغارية في الأزمان الغابرة كانت قازان تتاجر مــع الصين وفارس وبخارى وسمرقند وكانت كل آسيا تعرفها حتى اصبحت تتمتع بالرخاء والثراء . ولكن الروس التابعين للقيصر لم يكونوا قادرين على متابعة هذه التجارة الواسعة مع الخارج فما لبثوا أن تنبهوا الى أن من الواجب منح عفو كامل لكل الهاربين التتر الذين التجؤوا بعد تلك الحروب الوحشية الى الغابات ولكل مسلمي البلاد الذين نالهم الرعب والإحباط . وهكذا ، وعلى الرغم من انتصار الكنيسة وجدت أعــداد كبيرة من التتر المستعدين للإقامة في بيوت ودكاكين أولئك الذين قتلوا ونهبت أموالهم من قبل . وكل ما تطلبه إيفان من هؤلاء هو أن يقسموا يمين الولاء وأن يدفعوا عن كل فرد منهم الى جابي الضرائب مبلغاً مساوياً لذلك الذي كانوا يدفعونه في الماضي لأميرهم . وهكذا لم تكف قازان قط عن أن تكون حصن التتر الحصين ، وحتى تحت حكم روسيا كان لا يزال فيها وحتى يومنا هذا عدد كبير من سكانها التتر .

ثم تهيأ إيفان للعودة الى موسكو . وكان قد أرسل السعاة ينقلون أخبار النصر مع كلمة للمتروبوليت وأخرى لأناستاسيا وثالثة لأخيــه يوري يخبرهم فيها عن عودته الوشيكة مــع الجيش . وترك في قازان حامية مؤلفة من خمسين ألفاً من الجنود من أصلهم ألف وخمسمائة من ذوي المحتد النبيل وثلاثة آلاف وخمسمائة من الستريلتسي (حملــة البنادق أو القربينات) والقوزاق وعــين غورباتي شويسكي حاكمــاً وسيريبراني نائباً للحاكم . وقد تطلبت هذه التدابير ما بين عشرة واثني عشر يوماً اتخذ بعدها إيفان وجيشه طريق الرجوع . وفي أثناء الطريق تلقى نبأ هاماً أخبره به رسول موفد من موسكو أن القيصرة وضعت ولداً .

وفي اليومين الرابع عشر والخامس عشر من تشرين الأول أكتوبر صعد الڤولفا على ظهر مركب حتى بلغ نيجني نوڤغورود حيث كان في انتظاره جمهور غفير من الناس استقبلوه وهم راكعون . وكانت هتافات الجماهير وتهاليلها عالية لدرجة أنها خنقت اصوات رجال الدين ، فنوڤغورود كانت في اتم سعادتها لأن عدوها وخصمها قد دمر تدميراً كاملاً واصبح سوقها الكبير في نجوة من كل منافسة تترية وستزدهر تجارتها ازدهاراً كبيراً بفضل تدمير أسواق قازان .

وبعد أن تحدث إيڤان الى الشعب بما ينبغي اتخذ إيڤان طريقه الى عاصمته على ظهر جواده . وعندما وصل الى ثلث الطريق ووجد نفسه قريبا من فلاديمير قابل ڤاسيلي تراخانيوت موفداً من قبل اناستاسيا . وعندما علم أنه اصبح له ولد ذكر كان فرحه بلا حدود حتى أنه قفز من فوق جواده وقبّل تراخانيوت ثم صلى وحمد الله واخذ يرقص كمجنون . وبدون ان يفكر قدم جواده ورداءه هدية للرسول تعبيراً عن شكره لأنه جلب له هذا الخبر السعيد . فلو انه رزق ببنت لما كان ذلك يعني له شيئاً ، أما أن يكون له صبي فإن معناه أنه يسمع القدر يجلجل باسمه في نفير .

ومن المثير للفضول أن هذا النبأ جعله يبطىء المسير ، فهو لم يستعجل مشية حصانه ولا عدا به ليبلغ القصر بل توقف في فلاديمير ليصلي وأرسل الى اناستاسيا رسائل رقيقة يعبر فيها عن شكره ووداده . كذلك توقف في سوزدال ليصلي فيها أيضاً . واخيراً عندما وصل بعد بضع ساعات الى موسكو توقف في دير سيرجي ترويتسكي حيث قام بالعبادة أمام قبر القديس سيرجي وهناك قطع الخبز مع الرهبان وتلقى زيارة أخيه وعدد من النبلاء الذين قدموا من الكريملين وكان ذلك في الثامن والعشرين من تشرين الأول أكتوبر ١٥٥٢ ، وفي اليوم التالي دخل موسكو على صهوة جواده .

وتأكدت اهمية فتح قازان البالغة بالاستقبال الشعبي الباهر الذي نظم لإيفان في شوارع موسكو كلما تقدمت به الخطـا حتى أنه كان من المستحيل عليـه أن يتحرك أحياناً لكثرة ازدحام الجماهير المتكتلة كي تقبّل يديه أو رجليه . فالروس كانوا يقبلون اول قياصرتهم لأنهم كانوا يرون فيه ضماناً لمستقبل مجيد لروسيا ولأولاد أولادهم ، والشعب يستطيع في بعض الأحيان أن يحسن تقدير معنى حادث تاريخي أكثر من الحكومة أو السلطان .

نزل إيفان عند باب ستريتينكا لينحني أمام إيقونة ام الله التابعـة لفلاديمير بحضور المتروپوليت وحضور آسفف كل كهنة موسكو فاعترف بذلك بقدرة الصلاة على غفران خطايا صباه ، تلك القدرة التي سمحت له بأن يمشي الى قازان ويقضي على من فيها من الوثنيين . ثم انتهى في صلاته الى هذا الدعاء :

« والآن إنني اتضرع إليكِ . اكملي شفاعتك المقبولة أمام عرش الله كي اتمكن من إقامة القانون والحق وحسن الأخلاق في الدولة ولكي يصبح الوطن المتمتع بالسلام قادراً على التنعم بالفضيلة التي تزدهر المسيحية في ظلها ، ولكي يتمكن رعايا روسيا الجـدد من الكفار من التعرف على الإله الحقيقي فيحمدوا ويكرموا الثالوث المقدس عبر العصور ، آمين » .

بعد ذلك اعلن ماكاري العجوز في لهجـة مؤثرة قبوله للنصر الذي تحقق باسم الكنيسة وباسم الدين الحقيقي . ثم صرخ وكأنه يلفظ حكم الله نفسه : « أيها العبد المبارك ! لقد كنت مخلصاً في هذا الأمر الصغير وإنني سأكلفك بمهمات كثيرة في المستقبل » . ثم انحنى المتروپوليت بعد ذلك هو وكهنته أمام القيصر حتى لامست جباههم التراب .

أما القيصر فقد نزع عنه درعه ذا الزرد ورمى سيفه ليعود الى لبس الأرجوان . وكان صليب كبير يزين صدره بينما كان يلمع فوق جبهته

تاج مونوماخ . واصطف المتروبوليت ورجال الدين وحملة الصلبان والإيقونات في موكب واتجهوا بخطا بطيئة نحو الكريملين وهم ينشدون .

واخيراً دخل إيفان الى قصره واقترب من سرير اناستاسيا التي ضمت اليها بطلها وهي تبكي من الفرح ، فنزع إيفان تاج مونوماخ واخذ بدوره يعانق القيصرة ويقبل وريثه الطفل ديميتري برقة وحنان ، وكان إيفان في ذلك الوقت قد اصبح في الضحى من بداية عهده .



الفصل الثاني عشر

تعميـــد ثلاثي

انقضت نهاية عام ١٥٥٢ وسط مجموعة من الأعياد . فبعـد تلك الحملة المتعبة أخذ القيصر للراحة هو وبلاطه وحاشيته . ففي الثامن من تشرين الثاني نوفمبر أقيم في القصر الرحب عشاء ساهر دعي اليه كل كبار الوجهاء ومن يتمتعون بنفوذ كبير كالمتروبوليت والأمير يوري واناستاسيا التي استعادت عافيتها والأساقفة والأمراء والفويفود (كبار الموظفين) وعدد من رجال الطبقة الراقية . وفي هذه المناسبة تم توزيع العطاءات والهبات مقابل الخدمات التي قدمت في الحرب . وكان بين العطاءات فراء السمور وانسجة من البروكار واكواب من الذهب والبسة وخيول وأكياس مليئة بالقطع الذهبية وسجاجيد وأسلحة ، وكانت هذه الهدايا تمثل مبالغ هائلة من النقود . وقد وجد من نال الى جانب هذه العطاءات اراضيَ وهم كثيرون . فالقيصر كان يبذخ عن سخاء ، والقيصرة كانت تصب الخمر لكبار النبلاء الذين كان لهم الامتياز في أن يقبلوهـا قبلة احتفالية .

ودامت الولائم والأفـراح ثلاثة أيـام وأصبحت بدون شك أكثر صخباً ومرحـاً بعد رحيل رجـال الدين . وإذا لم نتكلم عن الطعـام والشراب اللذين تم ابتلاعهما بكل نهم وشراهة فإن هـذه المآدب قلما ارتفعت الى مستوى التسليات الراقية المهذبة . فهم لم يكونوا يرقصون ولم يكن ثمة مهرجون ولا أقنعة ولا من يطلقون النكات الذكية ، فروسيا لم تكن تمتلك شيئاً من المسارح ولم يكونوا يقدمون حتى ولا المسرحيات

الدينية ، ولكن كان القيصر مغنون قدموا للغناء من اجله فتغنوا بمآثر جيشه في قازان في كلمات جديدة صاغوها على ما الفوه من الحان . وكان الموسيقيون يلعبون على آلة الغوسليار Gousliar وهي نوع من القيثارة لمرافقة الموشحات ، ذلك لأنه في الشهر الذي تلا الاستيلاء على قازان انقلبت القصة الى موشح Ballade يستفيض في رواية القصة وينشرها في جميع انحاء روسيا ».

وربما لم يكن الاستيلاء على قازان هو ما كانوا يتغنون به بل الانتصار على تيمورلنغ وجنكيز خان وآسيا ، فإيفان كان ينتقم لملوك الأرض من ذلك الوحش الذي خرج من الشرق ، وكان الفرح يعم كل روسيا .

في هذه الحقبة من الحماسة الوطنية أقيم بناء كان روعة في فن الهندسة المعمارية ومثار دهشة للأجيال هو كاتدرائية ڤاسيلي بلاجهيني التي تنتصب الآن في الميدان الأحمر . في ذلك العصر وضع تصميمها وامر القيصر ببنائها ذكرى لحماية الله له في قازان .

وعلى الرغم من اننا ألمحنا الى أن رجال الدين قد انسحبوا من الوليمة قبل البويار والأمراء بقليل إلا أن ذلك لا يعني أن الأساقفة والمتروپوليت العجوز ماكاري لم يمثلوا في هذه المناسبة . فقد كان القيصر وماكاري كلاهما من اوحيا بمخطط ڤاسيلي بلاجهيني ، ومن المحتمل ان خيالهم استمد المساعدة يومذاك من نشوة الخمرة التي شدت من أزره . فليس ثمة اسم لأي مهندس معماري ارتبط ببناء هذه الكنيسة الغريبة . وقد رووا بعد مائة عام أن القيصر فقأ عينيه كي لا يتمكن من بناء أية كنيسة تنافسها ، ولكنها واحدة من تلك الحكايات التي يحيكونها حول اسم هذا القيصر الرهيب . والكنيسة لا تشبه أي واحد من ابنية القسطنطينية أو ابنية روسيا القديمة وإنما هي تعبر فقط عن عبقرية إيفان .

وقرر القيصر أن تكاليف بناء هذه الكاتدرائية ستدفعها مدينة فازان غرامة عليها . فيمكننا إذن أن نفهم أن انتصار الأرثوذكسية على الإسلام انعكس الى حد ما على مفهوم فن العمارة ، فالعصر كان عصر فتح وعصر دخول عدد من التتر في الدين المسيحي ، وهذا ما يفسر لنا مثل هذه المؤثرات .

ثم ما لبث الطفل ديميتري ان اقتيد الى دير سيرجي ترويتسكي وتم تعميده بوجود مخلفات القديس سيرجي . وتبع هذا التعميد تعميدات اخرى كان أكثرها إثارة للاهتمام تعميد اتامش ابن صوغونبيكا وتعميد إيديجر حاكم قازان القديم . وقد أشرف نيكاندر مطران روستوف على حفلة تعميد ديميتري الصغير ، أما المتروپوليت فقد أشرف بنفسه على تعميد اتامش واعطاه اسماً مسيحياً هو الكسندر . ولم يصلنا شيء عما كان يفكر به الشيخ علي ولكن القيصر الذي تذكر انه ترك يتيماً في صباه تكفل بالصبي التتري الصغير وامر أن يعيش في القصر وان يبدؤوا العناية بتربيته . وأما تعميد إيديجر فقد تم في ٢٦ شباط فبراير ١٥٥٣ واضطروا من أجل الحصول على ماء التعميد الى كسر الجليد فوق نهر موسكفا . وكان المتروپوليت عرابه دون ان يلتزم بخطاياه لأن إيديجر كان في سن النضج . وقد شهد القيصر وبلاطه عملية ارتداد الأمير عن دينه المحمدي . وكانت موسكو المغطاة تغطية كاملة بالثلج لا تزال غارقة في قسوة الشتاء ، والذين حضروا حفلة العماد كانوا يرتدون كلهم ملابسهم الاحتفالية باستثناء إيديجر وكثيرون منهم كانوا يتغطون بالفراء . أما التتري ذو السحنة السمراء فكان يقف بينهم متدثراً فقط بثوب من الكتان . وسئل إيديجر ما إذا كان يترك دينه تحت تأثير القوة أو العنف الخارجي فأكد بجرأة انه يفعل ذلك متبعاً رغبات قلبه : « إنني أحب يسوعاً وأكره ما عداه » ، بذلك صرح بصوت أمكن لكل الناس أن يسمعوه . ثم غطسوه في الماء الجليدي وانتهى الاحتفال واصبح يحمل اسم سيميون منذ ذلك الوقت .

على اثر ذلك قدم القيصر للأمير سيميون بيتاً واسعاً في الكريملين كي يسكن فيه . وعلى الرغم من سقوط قازان فإن هذا الأمير احتفظ بشيء من ثروته ، كما ان القيصر تفضل عليه واعطاه حاشية ومركزاً يكادان يضارعان ما يتمتع به أمير من العائلة المالكة . وفي السنة ذاتها ١٥٥٣ تزوج سيميون من ماريا كوتوسوفا وعاش سعيداً حتى مات أو طواه النسيان .

ولكن حقبة الأحداث المفرحة التي جرت في موسكو هذه رافقتها مصيبة رهيبة وقعت في الشمال الشرقي من روسيا حيث انتشر طاعون ذو قروح دمر تدميراً يكاد يكون كاملاً سكان بسكوف ونوفغورود فيليكي. وقد ابتدأ في بسكوف ونشر ذعراً دفع نوفغورود من أجل الدفاع عن نفسها لأن تصدر قراراً بمنع كل قادم من بسكوف أن يقترب من حدود ولاية نوفغورود . وإذا ما كشفوا في هذه المدينة شخصاً قادماً من بسكوف فإنه كان يلقي بالنار هو وكل مايتعلق به . ولكن ذلك لم يكن كافياً لحماية المدينة ، فالوباء مالبث أن ظهر فيها بصورة غامضة كما لو أنه لم يصل إليها من أية جهة خارجية ، وفي ليلة واحدة قضى نحبه فيها الآلاف من الأشخاص . وبعد قليل أصبح عدد الموتى اكبر من إمكانية دفنهم على يد الأحياء ، أو أن الأحياء كانوا يخافون لمس هؤلاء الأموات من اجل دفنهم ، فانتشرت الجثث في الشوارع والفرجات الغابية التي كانت تحيط بالمدن ، وبدا أن الله أرسل غضباً ليس له سبب مفهوم بعد النعمة التي اسبغها العلي القدير على المؤمنين في قازان . ولكن الروس لم يكونوا يحاسبون الله الحكيم فغضب الإنسان أيضاً يمكن الا يكون له سبب مفهوم إذا قمنا بمقارنة متواضعة بينه وبين غضب الإله .

من بين الذين هلكوا بالطاعون كان سيرابيون مطران نوفغورود فيليكي الذي كان طيباً لدرجة اهتمامه بالمحتضرين دون أن يخشى على سلامته . وبما أن المطران كان قد تلقى من الله مهمة حراسة نوفغورود

فإن موته كان مساساً جدياً بالايمان وبمحبة الذات الإلهية ، واختير بدلاً من سيرابيون راهب بالغ التقى هو بيمين من صحراء أندريا نوفسكي ، وصلى القيصر والمتروبوليت كثيراً لتوفيق الأخ بيمين وحملاه كمية كبيرة من الماء المبارك والمهيأ خصيصاً لتطهير نوفغورود . ويقال إنه هلك أثناء تلك السنة نصف مليون من السكان في المدن وعلى أراضي بسكوف ونوفغورود .



الفصل الثالث عشر

مــرض القيصر

لم تكن ولاية قازان قد هدأت هدوءاً كاملاً بعد . فالقبائل الهمجية وبخاصة تلك التي كانت من أصــل مغولي وهم الشيرميز والورديڤين والشوڤاس والڤوتياك والباشكير هذه القبائل لم تقبل بتغيير الحاكم . ورفضت دفع الضريبة بالرغم من انها حددت بنفس المبلغ الذي كان من المفترض انها كانت تدفعه لأمراء قازان . ومن المحتمل أن الموظفين والبويار الذين تركوا كمعتمدين هناك كانوا أقل نزاهة من حكامهم السابقين فبالغوا بالمطالبات . ولم ينته السلب والنهب اللذان بدءا منذ لحظة الفتح بانسحاب الجيش وإنما استمرت الحامية الباقية تطلب الغنيمة ولم ينجح الأمير غورباتي شويسكي في مهمته في الحكم ولا كان الأمير بطرس شويسكي حاكم سڤيازهسك في أمان في إدارته .

وقد اتسم عيد الميلاد من عام ١٥٥٢ بمشهد مثير للقلق هو مشهد عدد من المشانق تدلى عليها أربعة وسبعون من المحمديين المتهمين بقطع الطرق والفرار من الجيش . هذه الأنباء التي وصلت من قازان إلى موسكو اثرت في القيصر ايما تأثير لأنه كان يعتقد أن نصره كان كاملاً أو انه كان يأمل بأن يكون كذلك . ثم وصلت رسالة من حاكم قازان بأن الضرائب الواصلــة إلــى خزانتــه أصبحت كافيــة . وكانت هــذه الضريبة تدفع على شكل فراء تقوم مقام الأموال كما جرت العادة في ذلك الزمان . ولم يكن المكلفون بجباية هذه الضريبة يظهرون اية شكوى من طريقة الدفع هذه لأنهم لو كانوا يتلقون الضريبة مالاً لصرف مقدارها على وجه الدقة ، أما إذا تلقوها فراء فإن قيمتها عنــد تسديدها ستكون موضع نقاش .

ونجم عن ذلك حركة تمرد . وبنى التتر حصناً على بعد ثمانين كيلو متراً من قازان وهيؤوا أنفسهم جهاراً للقيام بهجوم لاحق على الروس . وفي مطلع آذار مارس قاموا بقتل جامعي الفراء . وثار قطاع من قازان على الروس رغم أن الشعب كان يفتقر إلى السلاح إلى أبعد الحدود . ومع ذلك فقد فقد الستريليتسي ثلاثمائة وخمسين من رجالهم بينما فقد القوزاق اربعمائة وخمسين ، وكانت الهزيمة صاعقة حتى بدا للبعض أن قازان التي تم فتحها بمثل ماوصفناه من نصر كانت بعد كل شيء مكاناً يتعذر الاحتفاظ به ، وحتى قام عدد من البويار بتقديم نصيحة مذلة القيصر بأن يسحب حاميته من قازان ويتخلى نهائياً عن المدينة للمسلمين . ومثل هذا الجبن الذي بدا من مستشاريه كان ينتزع من إيفان جزءاً من مجده ومن هيبته كبطل للمسيحية ، وقد جعله هذا يفترض ان وراء ما كان يتلقاه من مداهنة ورياء كان يختبىء نوع من الحسد والبغضاء .

هذه الأخبار السيئة وصلت للقيصر في العاشر من آذار مارس وفي اليوم التالي اصبح في حالة خطيرة من المرض إذ انتابته حمى قال عنها الأطباء إنها غير قابلة للشفاء . ولم تكن هذه الحمى وباء الطاعون لأن هذا الوباء كان قد تجنب موسكو ولكنها لم تكن أفضل منه لأنها جعلت القيصر طريح الفراش دون قدرة على الحركة وهو ينتظر الموت . وانتشر هذا النبأ السيء بسرعة الصاعقة مما دفع شعب موسكو لأن يسرع نحو الكريملين حيث حاصر القصر وهو يجار بالصلاة والدعاء . لقد كان الشعب يحب سيده كثيراً وقد رأى في هذا الهجوم المفاجىء يد الله بدون شك ولكن أحداً لم يكن يعتقد مع ذلك بأن مرض إيفان كان بسبب خطاياه لأن نقاه كان واضحاً لجميع العيون وقد أرسله الله هبة لهم ولم يكن سوى قديس على هذه الأرض . بل إن الشعب كان يعتقد بكل تواضع بأن خطاياه هو كانت اكبر مما استطاع أن يتصور لان الله كان يهدده بسحب الهدية التي منحه إياها عندما ارسل إيفان .

الا ان الأمراء والبويار لم يكونوا يصلون ويدعون بمقدار ماكان يفعل الشعب لأنهم كانوا قد سئموا إيفان بعض الشيء لكثرة تقاه الذي كان مبالغاً فيه في نظرهم حتى في عصر التقى ذاك . كان حقاً ديمقراطياً إلى ابعد الحدود ، وبدا قادراً على حكم البلاد بدون حاجة الى نصائحهم حتى انه اتخذ له مستشارين ذوي منشأ وضيع وجعلهم مساوين لهم إن لم يكن يفضلهم عليهم . وكان زعيم هذه المعارضة السرية للقيصر رجلاً اسمه فلاديمير اندرييفتش ابن الأمير اندري الذي كانت هيلانة قد أمرت بقتله . وقد تشكلت طباع هذا الأمير في عصر آل شويسكي المضطرب ، وكان أكبر سناً من إيفان واقل ورعاً ولكنه كان من افضل المقاتلين . فقد شارك في حملة قازان واعتبر البطل الحقيقي في احتلال المدينة . وبما ان يوري أخا إيفان كان قد بقي في موسكو اثناء هذه الحملة فقد اصبح الأمير فلاديمير إلى جانب القيصر في الجيش الشخصية التي تنتمي الى أرفع الانساب . وفي اثناء العودة المظفرة تلقى من العطاءات اكثر من اي امير آخر ولكنه كان يتألم في سره من وجود وريث لإيفان . فلو أن هذا لم يصبح له ولد من الذكور لأمكن اعتبار فلاديمير المرشح الرئيسي للعرش بعد إيفان لانه كان يتمتع بمكانة أعلى من مكانة يوري اخي القيصر .

هذا الادعاء وهذا الأمل في المستقبل قد يبدو ان سخيفين إذا عرفنا ان إيفان حكم واحداً وثلاثين عاما ، ولكن الله كان يخبىء قدره عن العباد، وقد بدا أول الفياصرةفي آذار من عام ١٥٥٣ مسجلا على قائمة الأموات .

كان إيفان يتمتع بمزاج مرضي ولكنه يتمتع بحيوية ليس لها مثيل، فعلى الرغم من أنه كان في الثانية والعشرين من عمره إلا انه لم يكن قد بلغ اقصى نموه الجسدي بعد . وكان يقابل ورعه الديني وتقاه حساسية مفرطة . وينبغي أن نعترف بأنه يمتلك توازناً كاملاً في سنواته الأولى لأن تقواه لم تكن تنتزع منه نشاطه ولم يكن ميالا بذوقه الى العزلة والتنسك بحيث يكون غير صالح لاعتلاء العرش . كان يعيش في خوف مما فوق الطبيعة ومن سلطان الأموات على الأحياء ولكن جسده من

الناحية المعنوية كان ينبوعاً للحياة . اما عقله الذي كان في موقع وسط بين البيزنطينية(*) Byzantinisme وبين متطلبات الجسد فكان عنيفا بطبعه . وكان يجد من الناحية الفكرية صعوبة في تفهم الشدة التي يبديها الله في غضبه على عباده ولكن طريق الشك او عدم الايمان كان مع ذلك مغلقا تماما أمامه . فهو لا يشك أبدا . وبما انه كان مؤمنا ثابتا على ايمانه فقد توجب عليه ان يرى في المصائب التي يرسلها الله عقابا على الخطايا . وصلواته وخشوعه كان يقدمها تكفيراً عن خطايا شعبه . والحملة على قازان إنما قام بها بنية الحصول على رضا الله عنه وعن بلده روسيا . ولو انه كان يعرف وسيلة يتصرف بها كما تصرف المسيح بأن يقدم نفسه ضحية وفداء وكفارة عن كل الذنوب التي اقترفتها روسيا لما تردد في فعل ذلك . كان يقدم تضحيته بحسب ما يعرف ويدرك ولكنه لم يكن يستطيع ان يوقف يد الله التي كانت تضرب دون أن يعرف سببا لها في ذلك . وفي عام ١٥٥٣ ظهرت غيوم غطت النور السماوي وجعلته مظلما وسودت وغيرت نور النهار الى ليـــل .

في معركته الدينية لمصلحة شعبه كان إيڤان يتلقى المساعدة من الكاهن سيلڤستر الذي فسر الحملة على التتر تفسيراً صليبيا . ولكن على هذا السرير الذي كان يشبه سرير موت في آذار من عام ١٥٥٣ بدا له ان سيلڤستر قد تخلى عنه وان هذا الراهب لم يكن منفصلا عن هذا العالم وإنما كان يعمل من أجل مستقبله ويبذل فيه اهتمامه . فلو ان القيصر مات وان سيلڤستر تزوج القضية الخاسرة فانه قد يضيع كل نفوذ . فالمسألة كانت هل سيربط سيلڤستر مصيره بمصير عائلة القيصرة آل زاخارين او سيربطه بعصبة ابن عم القيصر فلاديمير اندريفتش . وقد بدا لسيلڤستر أن الأمير فلاديمير سيكون هو الأقوى فسانده ، وفعل مثـــل ذلك الكسي اورداتشيف وكذلك أبوه فيدور .

(*) البيزنطينية ميل الى المناقشات اللاهوتية على الطريقة البيزنطية — المترجم —

ويكاد يكون من المؤكد انه لو مات القيصر فان الأمير فلاديمير كان سيستولي على الحكم اذا لم يستول على العرش نفسه . وعندما وقع القيصر طريح الفراش نظمت مؤامرة على وجه السرعة وبدأ الأمير فلاديمير وأمه الطموحة إيفروسين بمداهنة البويار وتوزيع العطايا وجمع الانصار بغية القيام بثورة في القصر . ومن المحتمل ان تكون أنا ستاسيا القلقة على صحة زوجها قد احست بالمؤامرة التي تحاك خيوطها ولم يكن عماها دانيال وفلاديمير زاخارين يجهلان أمرها أيضا . ولو أن الأمير فلاديمير اندرييفتش قد كتب له النجاح لاختفت القيصرة بسرعة عن المسرح ونحي ابنها ديمتري جانبا إن لم يتعرض لخطر القتل . ولكن من حسن الحظ أن إيفان على الرغم من اصابته بالحمى كان يمتلك قدراته تماما ولا يزال يستطيع ان يفعل شيئا للمحافظة على الشرعية لو انه استدعى العصابة المتمردة لجلسة علنية درامية تعقد الى جانب سريره . وفي هذه الاثناء تجرأ ميكايلوف على أن ينصح المريض بكتابة وصيته ولم يعترض إيفان على ذلك لأن الفكرة كانت حسنة . وهكذا أملى وصيته ووقعها بعد أن عهد بالسلطة الى ابنه ديمتري الذي عينه خليفة له والسيد الوحيد لروسيا .

ثم طلب من كل عضو من أعضاء البلاط أن يقسم يمين الولاء لولده . وتضايق فلاديمير وأصدقاؤه من وجود سيلفستر الذي لم يكن بامكانه أن يحنث بيمينه في المستقبل على الرغم من انه كان سرا من بين المتآمرين . فهو لم يكن يستطيع أن يقبل الصليب الذي قدمه القيصر له ثم يتخلى عن ولي العهد بعد موت أبيه ، بينما كان بامكان الآخرين أن يعرضوا للخطر سلامة انفسهم التي لا تموت لأنه كان شائعا أن يؤدي المرء يمين الولاء ثم ما يلبث أن ينساه تحت ضغط الأطماع . ومهما يكن من امر فقد بدا للأمير فلاديمير ولأنصاره أن من الحكمة الحضور فوراً الى إيفان ومجاملته . وبعد كل شيء كان يمكن الا يموت القيصر وتحدث المعجزة ، فالصلوات كانت قائمة قاعدة وكان لإيفان اكثر من أي فرد في روسيا اوثق العلاقات مع مخلفات القديسين صانعي المعجزات فلو انه شفي فان أولئك الذين رفضوا اداء اليمين سيكونون دائما تحت ظل التهديد .

لقد ادى الأمر الذي صدر للأمراء والبويار بالقدوم لأداء اليمين الى حدوث ذهول ووجوم . واستدار المتآمرون الى الكسي ارداتشيف الذي كان خير من يتحدث الى إيفان . وشعر هذا انه في موقف حرج ، فكيف يستطيع الاقتراب من إيفان الذي كان يحبه وغمره بنعمائه ليقول له إنه في حال موته سيتخلى عن اسرته ؟ ، وهكذا ارسل مكانه اباه الذي كان عجوزا مسالما ولكنه عنيد ، كما انه كان يشعر بنفور شديد تجاه آل زاخارين . ولما اقترب من القيصر قال له :

« قد نقبّل الصليب من اجلك ومن اجل ولدك ولي العهد ديمتري ايها القيصر ولكننا لن نفعل ذلك من اجل دانيا وڤاسيلي زاخارين . وابنك لا يزال في المهد ، ومعنى ذلك ان آل زاخارين هم الذين سيحكموننا ونحن نعرف امثلة عما يعني ذلك ، وانت نفسك تذكر طفولتك ! » .

وكان القيصر أضعف من أن يعترض . اكتفى بزفرة خافته دون اية حركة . كان يصغي لهذا الفيض من الحجج والكلمات الغاضبة التي كانت تتساقط عليه كالضربات . اما الأمير فلاديمير ڤوروتنسكي اخلص اصدقاء القيصر فقام بتكذيب الأمير فلاديمير اندريڤتش (زعيم المؤامرة) وتسفيهه بعصبية وغضب حتى كادت تقوم بين الأميرين مبارزة في غرفة المريض .

وكان ينبغي ان يكون اول من يقبل الصليب دلالة على الولاء للطفل ديمتري هو الأمير اندرييڤتش باعتباره الأرفع نسبا . وانتظر الآخرون أن يبدأ ولكنه رفض أن يفعل .

وكان الليل قد تقدم عندما انتهت هذه الخلافات الحادة وتقدم نحو السرير اولئك الذين كانوا يريدون تقبيل الصليب واداء القسم وهم الأمير إيڤان موتيسلاڤسكي والأمير فلاديمير ڤوروتنسكي وإيڤان شيريميتييڤ وميشيل موروزوڤ وديمتري بالييتسكي ودانيال زاخارين وفاسيلي زاخارين وعدد من رجال الدين والموظفين . فالموافقون لم يكونوا إذن كثرة . لقد خذلوا القيصر أو كادوا ، والمتآمرون كانوا هم

الأكثرية بصورة لا يقوم عليها أي اعتراض . وربما كان معنى هذا الوضع هو ما ساعد القيصر على الشفاء لأن المقاومة أثارت إرادته القوية ودفعتها للعمل إذ لم يكن الرجل الذي يسمح لنفسه بأن يأخذه الاحباط . ثم املى وثيقة خاصة كان ينبغي ان يوقعها الأمير فلاديمير الذي أُدخل عليه ولكن هذا الأمير العنيد رفض بكل صراحة وأمام إيفان ان يؤدي اليمين . وانذره إيفان بأن خطيئة الرفض سترزح ثقيلة على نفسه ثم طلب من البويار الذين ادوا اليمين بأن يبقوا مخلصين لوعدهم وأن يعملوا بمقتضاه إذا ادركته المنون .

وفي اليوم التالي اخطر إيفان هؤلاء البويار بأن عليهم في حال موته ان يحموا القيصرة وأن يقودوها هي وطفلها الى بلد أجنبي يكونان فيه بامان .

ثم صاح ملتفتا الى العمين : « أنتم يا آل زاخارين ، لقد خفتم أليس كذلك ؟ ،ولكن لاتصدقوا أن يقوم سلام بينكم وبين البويار ، فستكونون أول الجثث التي سيجرونها الى الخارج . اظهروا أنكم شجعان واحموا ولدي وأمه ولا تسمحوا للخونة بإذلال زوجتي ! » .

وكان من بين الأنصار الرئيسيين للامير فلاديمير الأمراء بطرس تشيشيناتوف وإيفان پرونسكي وسيميون روستوفسكي وديمتري أوبولنسكي وقد أخافهم الكلام الغاضب الذي وجهه إيفان لآل زاخارين . ولم يكن يبدو ان القيصر سيموت فعلا ، والمرارة والحقد اللذان تبديا في اقواله اظهرا لهم اخطار ما ورطوا به أنفسهم من مؤامرات . وبعد مداولة جديدة فيما بينهم قرروا أداء اليمين وراقب بعضهم بعضاً أدق مراقبة عند تقبيل الصليب .

بعد هذه المجهودات ارتمى إيفان على سريره ولكن ليس من أجل أن يموت ، فقد صمم أن يعيش بعون الله ، وصلى بصوت خافت وظنوا انه في غيبوبة بينما كان في حالته هذه يقدم نذرا بانه اذا استرد صحته

سيقوم مع اناستاسيا ومع ابنه بحج صعب في الشمال الى معبد القديس سيريل بالقرب من كيريلوف . وفي اليوم التالي كانت الحمى قد زالت ونهض من سريره سليما معافى .

كان المرض الذي عانى منه يعرف في ذلك الوقت باسم « الحمى الحارة » التي لم تكن مفهومة ولا معروفة العلاج . ولقد كان شفاء القيصر مفاجئا كما كان مرضه .

وبعد أن تم للقيصر الشفاء كان مليئا بالتسامح والحب فجزى الخير بالشر . فرفع والد أرداتشيف الى رتبة بويار لأنه تصرف مثلهم وينبغي أن يكون منهم . أما الكسي أرداتشيف وسيلفستر « اللذان أرادا مثل هيرود تدمير أطفالي » فقد سامحهما في الظاهر . وتقدم الأمير فلاديمير اندرييفتش الى إيفان مترددا يهنئه بعودة صحته اليه فداعب القيصر رأسه وعامله كأن لم يبد منه ما يغضب . وعندما رأى بقية البويار القيصر في مثل هذا المزاج الرائع المتسامح هرعوا يتملقونه بدورهم وحمدوا الله على شفائه . واخذ إيفان يفكر : فقد كان يعرف من كانوا أعداءه حتى اليوم : إنهم البويار !.

أما تطلعات القيصر المستقبلية فكانت تختلف عما أبداه من تسامح لأنه كان قد أضاع ثقته بألكسي أرداتشيف كما أضاعها بسيلفستر إذ أحزنه ما أظهره من عدم الولاء . وشعر بعزلته كملك وتجمدت عواطفه تجاه الآخرين . ومثل هذا الطبع المرضي الورع كان بحاجة لمؤثر ملطف في علاقاته الاجتماعية . ولم يكن يستطيع أن يغمض عينيه أو يخدع نفسه وكانت أناستاسيا تمنعه من النسيان لأن أرداتشيف وسيلفستر قد أرعباها ولم تعد تطيق أن يبقيا محل ائتمان زوجها .

ومع ذلك فقد كان الله رحيما وأعاد العافية للقيصر . وكان على إيفان أن يفي بنذره بالحج مع عائلته . ويعتقد البعض بأنه كان قليل التبصر بالابتعاد عن موسكو ورعاية شؤون الدولة في تلك اللحظة بالذات . فقد كان عليه أن يهتم بتسوية الأوضاع الخطرة في قازان . لذلك سادت

فكرة بأنه كان ضعيف الارادة وان من السهل التأثير عليه لتغيير نواياه . ولا بد ان هذا الراي كان مصدره ما كان يبــدو من استشارتــه لمختلف المستشارين أو لتسامحه بطريقة حليمة مع أولئك الذين عارضوا ارادته اثناء مرضه . وكان يوجد في ذلك الوقت رجل اسمه مكسيم الاغريقي كان تقياً أصيل التقى وشخصية حية تفوح منها رائحة القداسة ويعيش في زنزانة تنسك في سيرجي ترويتسكي . وكان الغراندوق ڤاسيلي والد إيڤان قد نفاه ولكن إيڤان نفسه عفا عنه ورده وأصبح أبرز وجوه النساك في دير القديس سيرجي الكبير . وكان المتنسكون الحقيقيون من الروس وعددهم يبلغ الآلاف يحتفظون بكلامهم لله وقلما تحدثوا مع القياصرة وبقية الرجال . ولكن كان لا بد للاديرة من أن تتباهى بشخص من النخبة يعيش في القداسة والطهر ، وكان مكسيم في زنزانته مطلعاً على طرائق المناقشات البيزنطية كما كان ذرب اللسان وهو نموذج الرجل الذي كان إيڤان يحب ان يتحدث إليه ، ولكنه قبل أن يباشر رحلة حجه الطويلة إليه مع عائلته زاره زيارة عاجلة ليتعرف عليه .

يقال إن أولئك الذين كانوا يهتمون بأمر هــذه الرحلة سبقوه إلى مكسيم الإغريقي ولقنوه الحجة التي ينبغي عليه أن يرددها أمام إيڤــان : « ان اتمام النذور البعيدة عن الحصافة ليس مقبولا من الله . فالله سيكون اكثر رضا اذا قمت بحملة جديدة على التتر اعترافا منك بجميله على الصحة التي ردها إليك » . وكان هذا بوجه خاص مخطط سيلڤستر وارداتشيف اللذين كانا راغبين جــداً في حمــل كل عناية القيصر إلى الشرق .

« ان الله في كل مكان وتستطيع أن تجده في قازان مثلما تجــده في كيريلوف » .

ولكن إيڤان عندما كان على أبواب الموت وعد بأن يذهب الى كيريلوف لا إلى قازان . وهو سيذهب الى القديس سيريل لأن أمه كانت قد ذهبت إليه قبل مولده لكي تصلي من اجله ، فكان فيهــا إذن في الماضي ولكن عندما كان في بطن امه وسيقتفي خطاها نحو ينبوع الحياة . من أجل

ذلك لم يصغ بسمعه الى نصائح مكسيم الإغريقي فقـرروا عنـد ذلك إثارة الخوف في نفسه ولكن بدون نجاح . فيروى أن الكسي ارداتشيف حمل فعلاً الى القيصر رسالة بعد أن ترك زنزانة الناسك تتضمن نبوءة بأنه اذا أصر على القيام بالحج الى الشمال فانه لن يعود بولي العهـد ديمتري حيا من هناك .

ومن المحتمل ان مثل هذه النبوءة لم تقدم بمثل هذا الوضوح بل صار الناس يتذكرون بعد الحادث المشؤوم بعض التحذيرات الغامضة التي ظهرت قبل السفر عن الأخطار التي يمكن ان تتهدد صحة الغـلام فتذكروها كنبوءة كتب لها التحقيق عندما كان الناس يطلبون إشارات من الله . اما ما وقع فهو أن إيفان انتظر في موسكو الاحتفال بأعياد الفصح ثم ارتحل لحظة ذوبان الجليد مع أخيه يوري وزوجته وولده ديمتري وقد جرت الرحلة أساسا في المركب على نهر اوغليتس نحو الشمال حتى التقاء تشيكسنا بالفولغا الأعلى ومن هناك صعدوا في التشيكسنا لمسافة مائة وستين كيلو مترا عبر بلاد كئيبة موحشة حتى وصلوا الى ديـر كيريلوف ، وفي خلال هذه الرحلة مات ولي العهد الصغير العـزيز . ونحن نجهل ما اذا كانت هذه المصيبة قد نجمت عن نزلة رئوية او حادث كل ما نعرفه هو انهم لم ينقلوه الى الكريملين إلا جثة هامدة. فاية مهزلة ! كان البويار قد اقاموا الف صعوبة كي لا يقسموا يمين الولاء للطفل عندما اعتقدوا أن الاب سيموت ، وها هو ذا الاب يعيش الان بينما يذهب الفتى الى مملكة الاموات .

لم يحمل الينا رواة ذلك العصر ما سببه هذا الحادث من الم وخيبة امـل ويأس ولم يعرف أحـد مدى تاثيره إلا إذا استثنينا اناستاسيا والقيصر . وكان ذلك مثيراً للدهشة والفضول . ففي خلال حج تم تنفيذاً لنذر نذر لله قام العلي الاعلى بتوجيه ضربة جديدة لايفان واناستاسيا وروسيا ؟ ، وانضمت هذه المصيبة كغيرها من المصائب . فماذا كانت خطيئاتهما وخطيئات روسيا التي عاقبها الله هذا العقاب ؟ هل هـي خطايا اكبر بكثير من أن تكون قابلة للغفران ؟ .

الفصل الرابع عشر

مولد ولي العهـد الثاني

تم دفن ديمتري الطفل في شهر حزيران يونيه في كاتدرائية ميشيل رشانج تحت قدمي جـده الغراندوق ڤاسيلي الثالث ، وبعـد تسعة اشهر وضعت اناستاسيا طفلها الجديد إيڤان وكان القيصر عند عودته من الحج لا يزال يحتفظ بلطفه الذي ابداه عندما أبل مـن مرضه . فكان يجزي الخير بالشر ، وإذا اضمر بعض الضغينة فانه لم يظهرها قط . واستمر يصغي لنصائح سيلفستر ويعامل الكسي أرداتشيف وكانه لم تحدث بينهما اية قطيعة . وكان اكثر تسامحا وتحببا تجـاه ابن عمه الأمير فلاديمير أندرييفتش ولم يمارس أي انتقـام مع كبـار الامراء الذين جروا وراء فلاديمير في آذار الماضي مما سبب لكل هـؤلاء قلقا من هـذا الموقف الذي كان يقفـه منهم إيڤـان . فكان الأمراء المتمردون ينتظرون في كل لحظة أن ينالهم العقاب فيجعلهم ذلـك في اقصى درجات التوتر والعصبية حتى أن بعضا منهم كالامير سيميون روستوفسكي رتبوا مخططات للفرار من موسكو والالتجاء الى الخارج .

وانتشرت إشاعة عن حديث صدر عن إيڤان خلال الحج . فقد قابل راهبا عجوزاشرسا اسمه فاسيان كان أسقفا قديما لكولومنا ومستشارا روحيـا لوالد إيڤـان الغراندوق ڤاسيلي ثم طرده البويار ونفوه من منصبه اثناء طفولة إيڤان ، وبما أنه كان صديقاً حميماً للغراندوق فإن القيصر رغب بحرارة أن يتجاذب معه اطراف الحديث .

ونحن نجهل من الذي استطاع أن يحصل على فحوى هذا الحديث الخاص الذي جرى بين القيصر وبين هذا الراهب المتفرد ، ولكن الامير كوربسكي اكثر رجال الحاشية ثرثرة وثقافة اخذ علما بها . ويروي أن القيصر سال الراهب الشيخ : « كيف اتصرف من أجل أن الجم النبلاء » فأجاب فاسيان بحسب رواية كوربسكي : « لا تبحث عن مستشارين أكثر حكمة منك . حافظ على هذه القاعدة بأن تكون انت المعلم لا ان تتلقى العلم من الآخرين . كن قائداً ومطاعاً فتكون راسخاً فوق عرشك وتمسك بكل شيء بين يديك » . ويضيفون أن ايفان قبل يدي الراهب واجاب : « لو أن أبي كان حيا لما نصحني بخير من ذلك » .

على أن إيڤان لم يستدع الراهب من عزلته ولا اعاده لمنصبه الديني ، كما ان ڤاسيان الذي كان على حافة قبره لم يطلب شيئاً منه . وقد افترض كوربسكي أن ڤاسيان الذي كان ضحية البويار كان يغذي في نفس إيڤان انتقاماً منهم ويحرضه على أن يضع حد سيفه في رقابهم . ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار سلوك إيڤان عند عودته لوجدنا أن من العدل افتراض أن ڤاسيان إنما قدم لإيڤان نصيحة مسيحية خالصة : « إجز خيرا بشر واجتذب شعبك إليك بمحبتك إياه » .

وهكذا مضى إيڤان يحكم بدون عنف ولا قسوة كما كان يفعل منذ حريق موسكو وتوبته العامة عن خطايا الشعب . وكان لا بد أن يحدث تغير في هذا السلوك ولكن لم يكن أوانه قد آن بعد . فبعد رجوعه من الحج انكب على دراسة المشكلة التي كانت تتطلب قراراً منذ أن كان يعاني من آلام الحمى وهذه المشكلة هي تهدئة منطقة قازان . وكانت قد هزمت حملة تأديبية برئاسة بوريس سولتيكوف الذي أصبح أسيراً عند القبائل . ثم أرسل دانيال أرد تشيف أخو الكسي الى مناطق العمليات بمساعدة القوزاق فألحق بالعدو بعض الخسائر ولكن ما كان تحت إمرته من قوات لم يكن كافياً . عند ذلك جهز القيصر جيشاً كبيراً عهد بقيادته الى ميكولنسكي وموروزوف وشيرمتييف وكوربسكي . وفي خلال شتاء ١٥٥٣ ــ ١٥٥٤ قام الروس بمهاجمة القبائل وقتلوا منهم الآلاف وسبوا

واسروا عدداً كبيراً من النساء والأطفال . وهلك في هذه المعارك الأمير التتري يانشورا كما هلك اليكا احد زعماء الشيرميز الرئيسيين . ودمر الحصن الإسلامي الجديد على نهر الميش ، فكان كل ذلك سبباً بإشاعة الفرح والسرور في قلب إيفان الذي أرسل بالأوسمة الذهبية الى كل القواد .

ولم يقم إيفان هذه المرة بحملة صليبية مع جيشه بل بقي في عاصمته . وقد وصل اليه فيها رسول من دير القديس نقولا الذي يقع عند مصب نهر الدفينا في البحر الأبيض يبلغه عن مركب كبير جداً لم يروا له مثيلاً من قبل ألقى مراسيه في هذا المكان ونزل منه رجال غرباء ينتمون الى امة لم يسمع بها أحد من قبل . فكم كانت شديدة رغبة جلالته في لقائهم .

كان مركباً إنكليزياً اسمه بونافانتور Bonaventure وكان الوحيد الذي نجا من بعثة تجار مغامرين كانوا تحت قيادة السير هيوغ ويلوغبي بينما قضى البافون نحبهم من البرد على ساحل لابونيا الروسية . وقد ألقى البونا فانتور مراسيه في ٢٤ آب اغسطس عام ١٥٥٣ .

وقد هرب الروس القاطنون عند خليج القديس نقولا كما لو أنهم رأوا أشباحاً ، ثم سجدوا بعد ذلك أمام ريشار شانسيلور صاحب المركب . « لقد انتابهم هلع شديد كأنهم رجال نصف أموات وسجدوا امامه محاولين أن يقبلوا قدميه » ، أما هو « فقد طمأنهم بإشارات وحركات » وساعدهم على النهوض بأن مد لهم يده . وبعد ذلك غدوا أصدقاء ولكنهم لم يتجرؤوا على المتاجرة إلا بعد إذن من ملكهم .

على أننا لن نعرف ابداً كل الحكايات الخيالية التي شاعت في خولمغوري مرفأ الدفينا الشمالي الرئيسي في ذلك الوقت لأنه لم يكن ثمة أي مترجم ينقلها إلينا ، إلا أن من المؤكد أن الفضول قد بلغ مداه وانتقل الى موسكو والى القيصر عند وصول الرسول القادم من الشمال . وقد

أمر إيفان بأن تهيأ خيول وعربات على نفقته للمسافرين وتتخذ كل الإجراءات لإيصالهم الى موسكو سالمين . ولكن الرسول انتابه في رحلة الرجوع تأخير كبير « لأنه تاه وقتاً طويلاً في الطريق » ، إلا أن شانسيلور الذي كان قد اتخذ سبيله نحو الجنوب التقاه اثناء المسير ، واخذ الناس الذين استثارتهم رسالة القيصر يتسابقون ويتشاجرون من اجل ان يكون لهم الشرف في تكدين خيولهم الى عربة الضيف ، ولم يكن لدى شانسيلور أدنى فكرة عن المكان الذي كان يقاد اليه ، ولم يكن يخطر له على بال أنه كان يبعد مسافة تقرب من ٢٤٠٠ من الكيلو مترات . وقد وصلت هذه البعثة الى موسكو في كانون الأول ديسمبر ١٥٥٣ .

وابدى القيصر امام هؤلاء الرحالة الإنكليز كثيراً من مظاهر الترف والبذخ وبذل جهده في التأثير عليهم لأنه كان يتمتع بخيال واسع كما كان على طريقته الطليعة المبكرة لبطرس الأكبر . كان يمتلك تلك الغريزة الخالدة لروسيا في أن تتخلص من كونها دولة نصف شرقية وان تتخذ لنفسها طابع الغرب. وبما أنه كان واقعاً تحت تأثير الكنيسة والمتروبوليت سيلفستر وأرداتشيف فإنه دفع بالحدود نحو الشرق ، ولكنه بدأ الآن يتطلع بأنظاره نحو الغرب ، نحو البلطيق ونحو السيطرة العالمية . فهو لم يتخذ لقب القيصر لولا أنه كان يشتهي الحصول على إمبراطورية واسعة ، وستبقى انكلترا الغامضة تداعب آفاق خياله حتى آخر يوم له في الحياة .

إلا أن المغامرة الشرقية كانت لا تزال مهمته الكبرى . فبعد سفر الإنكليز بدأ التجهيز لفتح الفولغا الأدنى وتم إعداد حملة على أمير أستراخان . كما كان لا بد من توجيه ضربة أخرى اوالد سوغونبيكا الذي كان لا يزال يغذي حقداً مميتاً على الروس . ولم يكن خان تتر القرم قد هيأ بعد قواه بعد هزيمته على يد الروس ، وبدا أن الإسلام كان خالياً من فكرة القتال .

وقد عهد الى الأمير يوري شيمياكين بقيادة جيش من القوزاق والستريلتسي (حملة البنادق) والنبلاء الشباب ذي عدد كبير نقل في المراكب ونزل مع نهر الفولغا . وترددت في جوانب أمنا الفولغا أصداء الأغاني والأهازيج وإيقاع المجاذيف كما لو أن الرحلة كانت حفلة للمسرات . ولم تظهر مقاومة في أي مكان . وهربت حامية استراخان الشركسية ــ التترية فوراً وتمت ملاحقتها في كل الجهات . واستولى الروس على مرفا بحر الخزر وعينوا واحداً من التتر لإدارته على شرط أن يكون للروس الحق في الصيد في كل اجزاء الفولغا بين قازان وبحر الخزر . وينبغي على سكان استراخان أيضاً أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها الف إسترجون واربعون الف التين . وتم قبول كل ذلك وغدا دربيش التتري الذي تم اختياره قيصراً محلياً وأول ذواقة لأفضل كافيار في العالم .

وصل خبر هذا الفتح لإيفان في الخامس والعشرين من آب أغسطس الذي يصادف عيد ميلاده . كان في دوامة العيد الذي يحتفل به مع اناستاسيا ومع البلاط والمتروپوليت فوصلت الأخبار السعيدة في اللحظة المناسبة . كان القيصر في الرابعة والعشرين وكانت روسيا تنمو وتكبر معه . واسترعى الحدث انظار العالم ، وسمعة إيفان التي لم تكن إلا اهلية محلية شاعت شهرتها سريعاً في الآفاق . وعلى الرغم من المصائب التي كانت تنصب عليه وعلى روسيا فإن ذلك العصر كان بلا مراء عصر ظفر وتوسع . وقد تبنى القيصر صيغة جديدة يبدأ بها مراسيمه وكتبه .... « في هذه السنة الخامسة والعشرين من حكمنا لروسيا ، الثالثة بعد قازان والأولى بعد أستراخان » .

كانت الشمس تلمع مرة اخرى فوق إيفان . فالله الذي كان قد أخذ بدأ يعيد من جديد . كان مظفراً في القضية المسيحية ، فقد خضعت له قازان خضوعاً تاماً وموسكو تتمتع بالسلام والرخاء ، وبدا أن المؤامرات والتحزبات قد فشلت أمام لطف إيفان ، فقد كان له علاقات طيبة مع ابن عمه فلاديمير الذي بدا انه عاد الى ولائه وإخلاصه ، واستمرت حياته

مع اناستاسيا رضية دون ان تعكرها الغيوم بعد ان أعطته وريثاً هــو الطفل إيفان الذي بدا انه كان اشد عوداً من أخيه البكر .

وقد لجأ القيصر الى كتابة وصية جديدة جعل فيها الامير فلاديمير اندريفتش وصيا على ولي العهــد في حالة وفاته وحاكماً على البــلاد ووريثا شرعيا للعرش إذا ما مات ولي العهد . فنحن نرى هنا نتيجة تبصرات إيفان فيما كان قد حدث من قبل . كان يشعر أن بإمكانه الثقة بالأمير فلاديمير حتى ولو لم يتمكن من الثقة بامه الأميرة إيفروسين . وكان قد أحضر إليه الامير فلاديمير الذي اقسم امامه على أن يكون مخلصا لمصالح ولي العهد وأن يحمي القيصرة وأن يمنع أمه من ان تلحق الأذى بالقيصرة أو بالطفل وألا يكون منحازاً في إدارة الدولة وألا يعمل سراً ضد القيصرة او المتروبوليت او مجلس البويار . وقبل بأن يخفض عــدد افراد خدمه المسلحين الى مائة وثمانية . اما يوري أخو القيصر فكان قاصر العقل ولم يكن له اي ادعاء بوراثة العرش .

وكان الأمير فلاديمير قد نصح قبل ذلك بالتخلي عن بطانته فاتخذت عائلة روستوفسكي على اثر ذلك دون شــك قرارها بالانســحاب الى ليتوانيا . ولو أن إيفان كان لديه النية في معاقبتهم على سلوكهم غــير الموالي الذي اظهــروه في السنة الماضية فإنه لم يكن لهم من حــام ولا شفيع . وما حدث هو ان الأمير سيميون والأمير نيقولا روستوفسكي أوقفا كلاهما عند الحدود الليتوانية وقدم الأمــير سيميون للمحاكمة وحكم عليه بالموت بتهمة الخيانة سمح لبقية افراد عائلته بالخروج وهم بين مصدق ومكذب . ولكن المتروبوليت مكاري وسيلفستر وعدداً من الأرشمندريتات طلبوا منه الرحمة للأمير فاكتفى بدلاً من سجنه بإبعاده الى بييلو أوزيرو . وكان الدفاع الرئيسي الذي قدمه الأمير سيميون اثناء محاكمته ادعاءه بأنه ضعيف القوى العقلية . وكانت نتيجة كل ذلك ان أصبح آل روستوفسكي في ذلك الموسم موضوعاً للسخرية والتندر . وربما كان إيفان قد اراد قتلهم ولكن سيلفستر واداتشيف منعاه كمــا ادعي بعــد ذلك .

الفصل الخامس عشر

روسيا تتطلع إلى الغــرب

قامت صعوبات مع بولونيا وليتوانيا بسبب الاعتراف بلقب القيصر الذي حمله إيفان . فسيجيسموند أوغست غراندوق ليتوانيا وملك بولونيا المنتخب لم يكن متأكداً من معنى كلمة الامبراطورية . فهو لم يكن يحب الالقاب الجديدة ولم يكن بإمكان إيفان الرابع بدون شك أن يضع نفسه على قدم المساواة مع إمبراطور الإمبراطورية الرومانيــة المقدسة أو مع السلطان !. وكانت بولونيا يومذاك دولة واسعة مزدهرة ولا تعتبر نفسها بطبيعة الحال ادنى مرتبة من موسكوفيا . وعلى الرغم من أن موسكوفيا كانت مسيحية فإن ذلك لم يجعلها أقل بربرية .وكانت بولونيا تعتبر نفسها أكثر تمدناً ولذلك فإن سيجيسموند لم يعتــرف لإيفان بلقب قيصر وارسل له سفراءه يحملون أوراق اعتماد موجهــة لبلاط « صاحب الجلالة غراندوق موسكو » لا إلى «جلالة قيصر روسيا» وفي مقابل ذلك ارسل إيفان رسائل الى غراندوق لبتوانيا متغافلاً عــن تسميته ملكاً لبولونيا .

وفي عام ١٥٥٣ عندما وصل سفراء سيجيسموند إلى موسكو ردت إليهم أوراق اعتمادهم ولم يدعهم القيصر إلى العشاء رغم أنهم اوضحوا أنهم أتوا لعقد معاهدة « سلام خالد » ، ولكن سكرتير القيصر رد عليهم : « إن هذا ممكن ولكنكم لم تبدؤوا بحصافة وذوق » . وأجاب السفراء : « ينبغي عليكم أن تردوا كل الأراضي التي ضممتموها إليكــم في الماضي والتي كانت تخص دوقية ليتوانيا وعندما يتم ذلك نعقد معكم معاهدة

سلم دائم ، ثم بعد ذلك نناقش موضوع لقب القيصر الذي ينبغي أن يعترف به البابا والإمبراطور أيضاً » .

ولكن إيڤان لم ير ضرورة لعقد مثل هذا الاتفاق فعاد السفراء أدراجهم إلى بولونيا » وقامت نتيجة لذلك حالة حرب مبدئية بين البلدين . إلا ان الخطر التتري الإسلامي لم يكن قد انتهى أمره بعد فأعطى القيصر تعليماته إلى مبعوثيه بأن يحصلوا من بولونيا على سلام موقت ، والحقيقة أن سيجيسموند اوغست لم يكن ينوي قط محاربة موسكوڤيا ، أما إيڤان فعلى الرغم مما بذله المتروپوليت وسيلڤستر وأرداتشيف لثنيه عن عزمه فإنه لم يكن يتخلى عن تصميمه في أن يعلن الحرب على بولونيا وليتوانيا في يوم من الأيام لكي ينقذ كييف من السيطرة البولونية . وبقيت مسألة لقبه غير المعترف به بدون حل وأرسل إلى سيجيسموند مذكرة مفصلة في هذا الموضوع .

فبالإضافة إلى الشرعية التاريخية لهذا اللقب كان إيڤان قد استولى على قازان التي كان امراؤها يتلقبون بلقب قيصر فما احرى بفاتح امبراطورية ان يتسمى بهذا الاسم .. وبعد فتحه لاستراخان أبلغ سيجيسموند اوغست بالسبب الجديد الذي يعتمد عليه للاعتراف له بهذا اللقب . ولكن سيجيسموند هنأ إيڤان على نصره على الكفار دون أن يسميه بلقب قيصر . كان ملك بولونيا عنيداً يرفض الاعتراف بهذا اللقب ويصر مع ذلك على سلم خالد . فارسل إلى إيڤان بعثة اخرى مؤلفة هذه المرة من احد النبلاء هو أليان تيشكوڤيتش الذي لم يستقبله القيصر بل عهد إلى المتروپوليت أن يستقبله بكل مظاهر التشريف .

ولم يستطع تيشكوڤيتش أن يقدم ترضية في موضوع اللقب ومع ذلك تعرض لضرورة قيام معاهدة سلام دائم بين الطرفين . وكان لدى إيڤان مايكفي من الأسباب لإعلان الحرب لولا أن ساعة تصفية الحساب مع بولونيا كان لابد لها من أن تتأخر لأن إيڤان كان قد مس وتراً حساساً في الشمال وغدا في حرب مع السويد .

كان الروس والبولونيون يرغبون في القتال ، ولكـن عداءهما كان قائما على نوع من النفور المتبادل أكثر من أن يكون قائماً على ضرورات اقتصادية او حيوية . ومع ذلك فإن الحرب من أجـل الحصول على مرافىء حرة على البالطيق كانت مكتوبة في ألواح القدر بالنسبة لروسيا ، وما بدأ به إيڤان سيكون من نصيب بطرس الأكبر أن ينهيه . اما روسيا القرن السادس عشر فقد كانت مدفوعة بغريزتها العمياء عندما تحولت إلى فتح مقاطعة ليڤونيا .

وعندما وصلت إلى موسكو بعثة جديدة من التجار الإنكليز كـان إيڤان مشغولاً جداً بمشاريع حروبه الجديدة لدرجة انه لم يكن لديه الكثير من الوقت لتخصيصه لهم . فقد كان القيصر عائداً من ميادين القتال في الشرق لأن خان تتر القرم كان طوال الصيف الفائت يسير على خطا الحرب . والسبب في ذلك هو ان الخان كان قد استعاد ستين الفا من الخيول معظمها من نوع الخيول الصغيرة الحجم المألوفة في تلك السهوب كانت في أسر الروس ، ولكن كان بينها مائتان من خيول الحرب ذات الدم النقي كانت ملكاً للنبلاء . وجرت معارك دامية ووقعت خسائر جدية في كل من الطرفين جرح فيها إيڤان شيريميتييف وقتل الباسل الهمام ڤويڤور سيدوروف ، ولكنهم تخلصوا من تترالجنوب لشتاء آخر واصبح على إيڤان أن يلفت انتباهـه الى الغرب الى ليتوانيا وليڤونيا والسويد .

اما ليڤونيا التي كانت قد كفت منذ زمن طويل عن الوجود كمنطقة جغرافية فقد اصبحت ولاية تتألف مما يعرف اليوم ببروسيا الشرقية ومن جزء من لاتڤيا ومن إستونيا . وكان فيها نواة من اغنياء التجـار يقيمون في ريغا وريڤال ودوربات . وكان سكانها من الفينيين والميتون والألمان ولكن الروس كانوا يطلقون عليهم كلهم اسم الألمان دون تمييز . وكانت خاضعة لنظام فرسان التيوتون ورئيسهم الكبير ، وهو نظام يعود الى القرون الوسطى وعلى وشك الانقراض . وكانت ادارتها متراخية ضعيفة من الناحيتين السياسية والعسكرية ، كما كانت ثرواتها التي

لا يحميها احد تشكل إغراء لجيرانها الكواسر . وتلقى ألكسي أرداتشيف مهمة إظهار مواهبه في تنفيذ تطلعات القيصر .

وسأل أرداتشيف : « لماذا تأخرت دوريات في دفع ما عليها من جزيـــة ؟ » .

وفوجىء الليفونيون ولم يفهموا هذا المزاح فأجابوا : « اية جزية هذه ؟ . إننا لم نسمع قط شيئاً عن ذلك ولا رأينا وثائق عن جزية تدفع لدوق موسكو الكبير » . وأجاب أرداتشيف : « اوه ، انتم تفاجئونني . الا تعرفون إذن أن أجدادكم الذين قدموا من الطرف الآخر من البحر غزوا ليفونيا ودخلوا أراضي غراندوقات موسكو الذين لم يشاؤوا إراقة الدم المسيحي فتركوهم يستقرون على أن يدفعوا جزية لهم ؟ . ولم تُدفع هذه الجزية فاضطررنا الآن للمطالبة بهذه المتأخرات » .

وكانت هذه الجزية قد فرضت بالفعل ولكن على ان تدفع عسلا لا نقداً فطالب الآن أرداتشيف بأن تدفع ذهباً . وبما ان الليفونيين لم يكونوا يجرؤون على الرفض فقد التمسوا مهلة ثلاث سنوات رأفة بهم واعدين بأن يسددوا بعدها كل ما يطلب منهم . وكانوا يأملون ان يجدوا في هذه السنوات الثلاث حلفاء في السويديين أو الليتوانيين يساندونهم على روسيا . ورغم أن السويديين والليتوانيين كانوا قوماً اشداء فإنهم لم يكونوا اشد خطورة مما كان عليه جيرانهم من الروس .

أعلن غوستاف ملك السويد الحـرب على إيفـان بسـبب بعض التجاوزات على أرضه على سواحل خليج فنلندا . ولكن ما كان يعرفه عن قدرة روسيا من الناحية العسكرية كان يعود الى ماض بعيد ، فما أن بدا القتال حتى ادرك انه اساء تقدير قوة عدوه . فقد القى الروس الحصار على فيبورغ واجتاحوا الاراضي المجاورة آسـرين الكثيرين من الأسرى حتى انحدر ثمن الفتاة السويدية الى خمسين من الكيبيكات أو اقـل .

وانتشرت الإشاعة في الخارج عن أن روسيا ستدخل مع انكلترا في علاقات تجارية ، فاغتاظ من ذلك تجار ليفونيا وتمت في ريغا مقاطعة البضائع الروسية واظهر التجار السويديون قلقهم ووجهت السويد توبيخات تكد تكون سخيفة الى إنكلترا . واهتم التجار الفلامنديون بالأمر . وبينما كان شانسيلور وأصدقاؤه يتفحصون البضائع في سوق نوفغورود الكبير قام الفلمنديون فزجوهم بالسجن لأنهم كسروا احتكارهم لولا ان إيفان اصدر أمره السريع بإطلاق سراحهم . وكان للتجار البولونيين والألمان ايضاً مخاوفهم وشعروا بالغيرة تأكلهم . ولا شك أن هذا الاتفاق التجاري الأول بين روسيا وانكلترا خلق لروسيا الكثير من الأعداء .



الفصل السادس عشر

همـوم وغـزوات

استمر الترك والتتر يقومون بتهديداتهم بشكل دوري لأن الخان كان في كل ربيع يقرر الأخذ بالثار لإضاعته قازان وأستراخان . ففي كل ربيع كانت قوافل الجنود والجمال المحملة والخيول الصغيرة الحجم التي لا يحصيها عدد والانكشاريون والأمراء التتر ورجال المدفعية وحملة السهام والفرسان الأتراك من حملة السيوف ينقضون نحو الشمال مجتاحين السهول ومهددين وادي الأوكا ومدن تولا وكولومنا وموسكو . وكان سلطان تركيا يشجع هذه الغزوات ويشعر بالغضب لأنه كان مقصراً في حق الإسلام . وأخيراً كان لا بد للتتر وفي عهد إيفان نفسه من بلوغ غايتهم بالوصول الى موسكو وإحراقها وإبادة سكانها. فالخطر كان حقيقياً وكان يبدو في بعض هذه الهجمات ضراوة تكاد لا يمكن مقاومتها .

وفي عام ١٥٥٦ بينما كانت القبيلة(*) تتقدم هوجمت بغتة من جانبها على يد القوزاق الذين أحرزوا نصراً مظفراً بين الدون والدنيبر فأزاح هذا النجاح بدون شك خطر التتر لبضع سنوات . وقد دفعت هـذه المناوشات التي كانت تقع في الجنوبي الغربي نبيلا ليتوانيا ذا سمعة طيبة هو الأمير فيشنيفتسكي الى الخروج من بلـده مع كوكبة من الفرسـان للدخـول الى جانب الروس في هـذه المعـارك المقدسـة فأغضب الملك

(*) القبيلة La Horde يقصـد بهـا التتر — المترجم —

سيجيسموند اوغست الذي كان يحب أن يترك الروس يضعفون وهم يقاتلون وحدهم قوات المسلمين .

وكان سخط سيجيسموند لعدة اسباب : كان يعتمد على السويديين لمقاومة اطماع روسيا في البلطيق ، ولكن غوستاف ملك السويد المسالم سحب جيشه البائس ورضي أن يوقع مع روسيا معاهدة كانت لمصلحتها. وكان لا يعجبه ايضا موقف إيفان العدواني تجاه الليفونيين بعد ان اتخذ بين القابه لقب « سيد الاراضي الليفونية » . وربما لم يكن هذا وحده هو ما كان يسبب الاعتراض لأن سيجيسموند نفسه كان قد اتخذ له بدوره لقب « غراندوق روسيا » .

وفي شباط فبراير ١٥٥٧ وصل الى موسكو من جديد موفدون ليفونيون . ولكن ما أن لوحظ بأنهم لم يكونوا يحملون الجزية معهم حتى طردوهم الى ليفونيا بعد ان قال لهم إيفان : « إذا لم تاتوا معكم بالجزية حالا كما كان وعدكم فاننا سنجد الوسيلة لأخذها منكم » .

وكلف الامير شاستونوف بمحاصرة الحصن الواقع عند مصب نهر ناروفا مقابل نارفا . فغادر في نيسان ابريل ، وفي تموز يوليه كان قد استولى على الحصن واطلق عليه إيفا نفورود ، وهكذا يكون إيفان قد نفذ الى البلطيق في وقت مبكر وحصل على قاعدة تجارية للاتصال بمدن الجامعة التجارية الهانسية(*) Hanseatiques . ولم تكن هذه القاعدة في منجى كامل عن كل هجوم ، فهي تقع مقابل نارفا ذات الحامية القوية المؤلفة من الليفونيين . وقد استعد إيفان لغزو قطاع هام من ليفونيا لاعتقاده هو والبويار بان هذا الفتح سيكون هينا . ومضى كل الصيف في

(*) الجامعة التجارية الهانسية Ligue Hanséatique مؤلفة من مدن المانيا الشمالية الغربية وعلى راسها لوبيك. وكانت تشمل ايضا همبورغ وبريمن وكولون. انشئت عام ١٢٤١ للدفاع عن مصالحها المشتركة ضد القرصان وازدهرت عدة قرون . — المترجم —

الاستعدادات العسكرية . وكان الأمراء الشراكسة بعد سقوط أستراخان قد قدموا من مجرى الڤولغا الأدنى وسهوب القوقاز الشمالة الى الشمال مع كتائب كبيرة من فرسانهم للدخول في خدمة القيصر ، وهكذا فان روسيا كانت مع توسعها قد ضاعفت من قوة جيشها . وكان التسلح بالمدافع يسير في المقدمة كلما نما الجيش . « كان عندهم مدافع جميلة من النحاس وقواعد ومدافع متوسطة وصغيرة وصقور وحنشيات (انواع من المدافع القديمة) ومدافع مزدوجة وملكية ، وعندهم ستة مدافع لها قذائف طول كل منها تسعون سنتمترا بحيث يستطيع المرء بسهولة ان يتتبع مسارها عند خروجها من المدفع . كما كان لديهم عدد كبير من مدافع الهاون والفتحات الجدارية التي كانوا عن طريقها يقذفون بالنار اليونانيــة » .

وكان إيڤان قد الغى الخدمة الاجبارية الاقطاعية التي تتم عن طريق السخرة في الجيش وفرض رسوما على التجارة والأرض كان يجبيها الملتزمون ويوردونها الى خزينة القيصر . وكانت ملكية الأرض لا تزال تجبر صاحبها واتباعه على الخدمة ولكنهم صاروا يحسبون أجر الرجل من هؤلاء ويحسمونها من الرسم المفروض على الأرض . والاقطاعات الكبيرة التي لم تكن تستطيع أن تقدم حصتها من الرجال كانت تنتقص مساحتها أو يفرض عليها غرامة لتغطية الفارق بين ما تقدمه من الرجال وما هو مفروض عليها من رسوم . ونشأت مصلحة للمساحة أصبح بالامكان عن طريقها معرفة القيمة التقديرية لعدد الجيش . وكان كل من يعمل ينال أجر عمله ، وهذا ما يفسر التوسع الكبير في القوات التي كان يتصرف بها إيڤان .

في وسط هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة التي كانت تتم بغية توسيع الحرب في ليڤونيا وصل الى موسكو احد كبار المستكشفين التجاريين وهو انكليزي اسمه انتوني جنكنسون كان قد زار سوق بخارى مع أحمال من البضائع المختلفة . وثمة من يسخر من حكايات الرحالة في ذلك العصر ، ولكن انتوني جنكنسون وضع واحدا من افضل واثمن

التقارير عما كان موجودا في روسيا سواء باللغة الروسية أو بلغات أخرى ولم يشر فيه قط الى « الرجال الذين كانت رؤوسهم تحت أكتافهم »(*).

وتمت دعوة جنكنسون إلى العشاء . « كان يجلس على الطرف العالي من المائدة صاحب الجلالة الامبراطور واخوه يوري وامبراطور قازان اديجر الذي كان أسيرا ، وكان امبراطور قازان يجلس أدنى بمترين وكذلك ابنه ذو السنوات الخمس . وتحته كان يجلس القسم الأكبر من نبلاء الامبراطورية . وعلى مائدة أخرى قرب الامبراطور جلس راهب بمفرده ولكن الخدمات كانت تقدم له من جميع النواحي تماما كما كانت تقدم للامبراطور (هو المتروبوليت) . وعلى طاولة أخرى كانت تجلس أنواع أخرى من الناس يسمون بالشراكسة كان الامبراطور يحتفظ بهم الى جانبه كرجال حرب » .

هذا العشاء الذي قدم في صحاف وأكواب من الذهب دام خمس ساعات . وبينما كان المدعوون يأكلون ويشربون كان ستة من المنشدين يقفون في مواجهة القيصر ويتغنون بأمجاده . وبعد اثني عشر يوما من عيد الميلاد وبمناسبة عيد الغطاس ذهب رجال البلاط كلهم للتبرك بالمياه وحضر الزوار الانكليز هذا الاحتفال . ومن جل هذه الغاية فتحوا ثغرة مربعة كبيرة في الجليد للوصول الى مياه نهر الموسكفا .

« في البدء وفي المقدمة مشى شبان يحملون قناديل من شموع مشتعلة بينما كان أحدهم يمسك بفانوس كبير . بعدئذ تقدمت رايات وصليب وايقونات نوتردام والقديس نقولا (صاحب المعجزات) وقديسين آخرين يحملها رجال على أكتافهم . ثم تقدم كهنة عددهم مائة أو يزيد . وبعد المتروبوليت أتى الامبراطور وعلى رأسه التج . وبعد جلالته أتى كل النبلاء . وقد امتدوا على هذا الشكل حتى شاطىء النهر . وعندما وصلوا بالقرب من الثقب الذي كان قد صنع في الجليد تحلق حوله الكهنة .

(*) يقصد الرجال التافهين الذين لا يستحقون الحديث عنهم . ـ المترجم ـ

فعلى أحد جانبيه قامت منصة خشبية وقف فوقها المتروپوليت بينما وقف صاحب الجلالة الامبراطور فوق الجليد . بعد ذلك بدأ الكهنة بالغناء والتبريكات وحرق البخور واحتفلوا بخدمتهم ، وعندما انتهوا كان الماء قد أصبح مباركاً . وبعد أن تطهر الماء تناول المتروپوليت شيئاً منه ورشه على الامبراطور وبعض الدوقات (النبلاء) . وأتى بأكثر من خمسة آلاف وعاء لملئها من هذا الماء لانهم كانوا يعتقدون أن أي موسكوفي لا ينال منه سيناله الشقاء . وغطس في هذا الماء كثير من الناس ما بين رجال ونساء واطفل » .

ومن بين الملاحظات الوصفية الأخرى التي قدمها جنكنسون وصفه لعيد الشعانين في موسكو : « هنالك جواد مغطى بقماش أبيض يتدلى حتى الأرض . وقد اطالوا أذني الحصان بالقماش نفسه لتصبح شبيهة بأذني حمار . وعلى ظهر الجواد جلس المتروپوليت على هيأة الأمازون(*) وعلى ركبتيه كتاب جميل مفتوح رُصع غلافه بصليب من صنع صائغ . وكان يمسك هذا الكتاب بثبات بيده اليسرى بينما يمسك بيده اليمنى صليبا من الذهب لا ينى يبارك الشعب به كلما تقدم ... وهنالك ثلاثون رجلا يمدون ثيابهم أمام الجواد فما أن يمر فوقها حتى يسرعون لجمعها ويجرون لمدها من جديد أمام الحيوان بطريقة يستطيع بها الجواد أن يسير دائما فوق هذه الثياب ... وكان أحد نبلاء الامبراطور يقود الحصان من رأسه بينما يسير الامبراطور نفسه على قدميه وهو يمسك بطرف اللجام بإحدى يديه بينما يمسك بالأخرى غصناً من النخيل » .

وكان يتبع هذا الموكب جمهور من النبلاء وأناس من الشعب ذهبوا كلهم من كاتدرائية في الكريملين الى كاتدرائية أخرى . « وما أن انتهى هذا الطواف حتى ذهب جلالة الامبراطور وبعض النبلاء للعشاء في منزل المتروپوليت حيث لم يكن يخلو الأمر من انواع الأسماك اللذيذة والمشروبات الطيبة المذاق » .

(*) أي جعل رجليه في جانب واحد من الحصان . — المترجم —

الفصل السابع عشر

الحـرب في ليفونيـا

عاد السفراء الليفونيون يحملون الهدايا الى إيفان دون أن يحملوا الجزية فرفض القيصر هداياهم . حقا قدم لهم عشاء وأولم لهم الوليمة الفاخرة المعتادة في مثل هذه الظروف ولكنه كن يهزأ منهم لأنه أمر بألا يقدم الى السفراء الا صحون لا لحم فيهـا ولا دهن . ولا بـد أن التسلية على حسابهم كانت مشوقة . وكان الشيخ علي ينتظر عند الحدود الليتوانية مـع أربعين ألفـا من الرجـال يكادون كلهم أن يكونوا من الشراكسـة والشيريميز جندوا من الجنوب الشرقي على أساس أنهم أكثر نزوعا من الجنود الروس الى القتل والسلب والنهب . وكان يوجد مع الشيخ علي زعمـاء بواسـل من أمثال إيفـان شيريميتييف ودانيـال أرداتشيف وسيريبراني كما كان يشترك معه في القيادة أندره كوربسكي وميشيل فاسيليفتش غلينسكي . أما السفراء فقد عادوا أدراجهم وأصدر القيصر أمره بالاجتياح .

وكان الفرسان التيوتون الذين يسكنون القصور الجميلة قد غدوا مخنثين وغدا نظام فروسيتهم ملهـاة مضحكة تصلح لإبهار النساء أكثر من صلاحيتها لقتل الرجال . وفي هذه النقطة كان مؤرخو الطرفـين متفقين ، فالفرسان لم يكونوا يستطيعون إبداء مقاومـة كبيرة أمـام الروس . وهكذا اخترق الشيخ علي البلاد وقام بمذبحة كبيرة وحصل على غنائم كثيرة لأن ليفيونيا كانت بلاداً سمينة صالحة للنهب . وقد بدأ الغزو في الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير ١٥٥٨ دون أن ينتبه

الفرسان اليه لأنهم كانوا يحتقلون بزواج مواطن رفيع المقام من ريفال فاجتاح الجيش القيصري البلاد في الجنوب والغرب من دوربات على جبهة طولها مائتان واربعون كيلو متراً حارقاً المزارع والقرى وقاتلاً الرجال وفائداً إلى العبودية النساء والأولاد . فالعنف والقسوة البالغة كانا كما يقال صفة هذه الحملة . فكم من الفتيات اغتصبن وكم من الرجال اختطفهم الموت على يد الجنود البرابرة . فالمسألة لم تكن تماماً مسألة حرب لأنه لم تقم إلا مقاومة ضئيلة في وجه الغزاة بل ربما لم تقم مقاومة قط ، وإنما كانت حملة تأديبية غايتها نشر الرعب وإقناع الفرسان والتجار وسيدهم الكبير وأسقف دوربات أنه سيكون من الأسلم لهم أن يتفاهموا وأن يدفعوا ما عليهم من جزية عن يد وهم صاغرين .

ولم يحاول الجيش الروسي أن يستولي على المدن المحصنة مثل دوربات بل أحال الى رماد التجمعات السكانية الهامة مثل مارينبورغ والتنهون ونيلهاوس . وقد حاولت الجيوش الألمانية القيام بخروج من دوربات ولكن الروس ردوها بعد أن كبدوها خسائر فادحة . عند ذلك اندفع جزء من الجيش نحو الشمال حتى سواحل البلطيق مستوليا على القرى بدءا من ويسمبرغ وعلى امتداد الساحل حتى وصل الى بعد خمسين كيلو مترا من ريفا . وفي حوالي نهاية شباط فبراير عاد الغزاة من هذه الحملة مثقلين بالغنائم وقد مروا امام نارفادون ان يهاجموها ودخلوا ايفا نفورود التي غدت قاعدة روسية منذ ذلك الوقت .

أما القيصر فقد ابدى موافقته على الطريقة التي عومل بها الليفونيون واما الحملة فكان لها شعبيتها لانها حملة مجزية . وقد احسن الشيخ علي التصرف وكذلك الامراء بينما نسي غلينسكي نفسه لدرجة انه قاد بعض العصابات فوق الارض الروسية وصار يقوم بالسلب والنهب والاغتصاب كما كان يفعل في ليفونيا ولكن القيصر انبه بكل قسوة وامره بأن يصلح ما أفسده من المزارع التي قام باحراقها وأن يعيد اليها ما انتزعه منها من غنائم .

عندئذ سمت ليفونيا الحزينة المنتحية الى الصلح . ورد الشيخ علي على المبعوثين : « أنتم تعرفون الشروط » . وسعى السيد الكبير لإرسال سفراء جدد الى موسكو . واعلن إيفان هدنة تبدأ بابتداء الصوم الكبير وتنتهي بعيد الفصح . إلا أن الفرسان في نارفا خرقوا الهدنة واداروا مدافعهم نحو إيفانغورود فارسل إيفان الأمير تيمكين على جناح السرعة بمهمة لتدمير اثنتي عشرة قرية ليفونية ردا على الطلقات التي اطلقت من نارفا . ولكن هذا التدبير لم يؤثر على الفرسان الذين استمروا بإطلاق مدافعهم على إيفانغورود رغما عن إرادة عمدة المدينة وتجارها . وكان سكان نارفا يخشون ان ينالهم نفس ما نال سكان القرى الليفونية الاخرى من مصير . فأرسلوا تحت جنح الظلام مبعوثين الى ايفا نغورود يفاوضون باسمهم ويعلنون انهم لا يرغبون بديلا عن أن يكونوا رعايا القيصر المسالمين المخلصين . وتوجه مبعوثون منهم إلى موسكو مكلفين بالدفاع عن قضيتهم . ولكن إيفان وضع شرطا لذلك ان يضعوا بين يديه مفاتيح المدينة ويسلموه شيلنبرغ قائد الفرسان .

اما ان يكونوا قد نفذوا هذا التسليم فامر مشكوك فيه ، ولكن المعركة اثناء غيابهم غدت أشد ضراوة وصاروا ينتظرون الإمدادات من السيد الكبير(*) وكان الروس مفتاظين الى أبعد الحدود ومستعدين للإفادة من أول فرصة للأخذ بثأرهم . وانفجر الحريق في نارفا . وتروي الأسطورة أن جنوداً ثملين من الألمان دخلوا منزل تاجر روسي كبير كان يسكن المدينة وانتزعوا ايقونة للسيدة العذراء رأوها تتصدر المكان والقوا بها في مدفأة المطبخ فوقعت على الجمر ووجهها الى الاسفل ولكنها لم تحترق بل تسببت في إشعال الحريق . وقد لوحظ ان نصف المدينة قد أمسكت به النيران فاستفاد الجيش الروسي من هذه الفرصة للاستيلاء عنوة على اسوارها . وقد انقض الجنود دون أن ينتظروا أوامر من قوادهم واجتاز بعضهم نهر ناروفا في قوارب بينما

(*) يقصد بالسيد الكبير رئيس الفرسان التيوتون وحاكم ليفونيا — المترجم —

انتزع آخرون ابواب بيوت ايفا نغورود واستخدموها لاجتياز النهر وبنى آخرون لهذه الغاية اطوافا من الاخشاب . وعندما رأى الامراء هذا الهجوم العفوي لم يستطيعوا التخلي عن دعم هذه الأثرة المشرقة واعطوا اوامرهم للقسم المتبقي من الجيش بأن ينضم للمهاجمين . وقد برع في هذه العمليات كل من الامراء دانيال اردانشيف والكسي باسمانوف وايفان بوتورلين . وساد هرج ومرج بين المدافعين الذين لم يتمكنوا من صد الهجمات وسقطت نارفا بأعجوبة بيد الروس .

قام الفرسان فطلبوا الصلح فوراً واعدين بمغادرة المدينة مع نسائهم . وخفق العلم الروسي فوق نارفا . ووجدت ايقونة السيدة العذراء بين الرماد . وما ان عادت الى مكانها واسترجعت مكانتها حتى هدأ الحريق . وقد استولى الروس على مائتين وثلاثين مدفعا وعلى الثروات التي تركها الفرسان ساعة الرحيل . واكتشف ان معظم السكان كانوا من حزب الروس فلم يتعرضوا للاذى بينما اقسم الجميع طواعية يمين الولاء القيصر .

هذه الانباء ملأت قلب ايفان نشوة وسرورا فقام بخدمات شكر في الكاتدرائيات واقيمت الولائم في القصور ، وكان المتروبوليت سعيدا ايضا فأصدر أوامره بتطهير نارفا من الدنس اللاتيني واللوثري وبناء كاتدرائية توضع فيها الايقونة الصغيرة العجائبية للسيدة العذراء .

بذلك أصبح السيد الكبير مرغماً الآن على دفع غرامة كبيرة فارسل مبعوثيه ليقدموها مقابل الصلح . ولكن ايفان رد على ذلك بأنه استولى على نارفا وانه يريد الاحتفاظ بها وأن بامكان السيد الكبير ان يحصل على الصلح اذا اصبح من اتباع ايفان والا فان روسيا ستستولي على كل ليفونيا وتحتفظ بها . وبما أن هذه الشروط لم تكن مقبولة فإن الحرب كان لا بد لها من أن تستمر . وكانت الملامح المميزة لهذه الحرب منذ تلك اللحظة بعيدة بعض الشيء عن السلب والنهب والاغتصاب وتتركز على استسلام الحصون الصغيرة وانخراط الاهالي في الرعوية

الروسية . اما السيئو الحظ من الليتون والالمان فلم يكونوا مسرورين ابداً من تادية قسم الولاء من اجل الحصول على سلامتهم الشخصية واضطر السيد الكبير فورشتنبرغ أن يتنازل عن منصبه لمصلحة فارس شاب طموح هو كيتلر قام بطلب المساعدات من كل المناطق المجاورة فلقي الكثير من العطف ولكنه لم يتلق الا القليل من العون .

اما سيجسموند اوغست فكان اهتمامه بالغا بالنجاحات الروسية ولكنه لم يكن سهلا عليه ولا حصيفا ان يدخل الحرب ضد الروس رغم ما كان يشعر به من خطر ومن خوف كبير .

واما الامبراطور شارل الخامس الذي كان بامكانه مساعدة كيتلر فكان قد تنازل عن العرش منذ قليل وانسحب من الحياة العامة . ولم يشأ فرسان الجزة(*) الذهبية ان يمدوا يد المساعدة للفرسان التيوتون فلم يات احد لمساعدتهم . وفي الثامن عشر من تموز يوليه عام ١٥٥٨ استسلمت مدينة دوربات الكبيرة الى الأمير شويسكي وجيشه وبذلك تكون كل ليفونيا الشرقية التي تكاد تشمل اليوم كل اراضي إستونيا الحالية قد انتقلت الى يد الروس . ولكن الحرب استمرت في الغرب خلال الخريف والشتاء حتى وصلت الى حدود بروسيا وابواب ريغا ترافقها الحرائق والمذابح والتدمير مما لا يفي بوصفه كلام .

وفي شباط فبراير من عام ١٥٥٩ بالغ الأمير سيريبراني فارسل للقيصر رسالة روى فيها أن ليفونيا لم يعد لها وجود . وتوسط ملك الدانمرك لمصلحة ليفونيا فعقد إيفان هدنة معها بعد أن اصبح مهدداً مرة اخرى من خان القرم . وكان التتر قد غزوا روسيا والمملكة البولونية ـ الليتوانية فكان ذلك دافعاً لعقد اتفاق بين سيجسموند وإيفان . ولكن الوضع اصبح معكوساً الآن ، فبعد أن كان سيجسموند يسعى جاهداً

(*) الجزة الذهبية Toison d'or الجزة هي مجموع ما يقص من صوف الخروف .
ـ المترجم ـ

منذ بضع سنين لأن يعقد صلحاً دائماً مع روسيا اصبحت روسيا هي التي تسعى هذه المرة لعقد مثل هذه المعاهدة. ولذلك اجاب سيجسموند: « ردوا لنا مدينة سمولنسك نتعاقد معكم ونمضي لقتال المسلمين » .

إلا ان إيڤان كان أبعد ما يكون عن التفكير بإعادة سمولنسك التي كان الروس قد انتزعوها من بولونيا في القرن السابق ، بل إنه كان يفكر دائما بالاستيلاء على پودونيا واوكرانيا اللتين كانتا روسيتين من حيث اللغة والعادات وتقعان تحت النير البولوني ، وهكذا لم تكن إعادة سمولنسك موضوعاً للمفاوضة. وفي السادس عشر من ايلول سبتمبر ١٥٥٩ اشترك سيجسموند في حرب ليفونيا آخذاً على عاتقه حماية نظام الفرسان التيوتون وممتلكاتهم والوقوف الى جانبهم في وجه روسيا . وبعظمة بالغة كتب الى إيڤان بأن يخلي ليڤونيا ويتخلى عن كل غزو جديد يقوم به في أراضيها لأن ليڤونيا أصبحت تحت حمايته .

وكان دانيال أرداتشيف قد أرسل لمواجهة خان القرم يساعده الأمير فيشنيفتسكي فأحرز سلسلة من الانتصارات المدوية خلال صيف عام ١٥٥٩ . وسمحت هذه الحملة لليڤونيا بأن تتنفس لأن الجيش الروسي كان مشغولاً جداً عنها في ذلك الصيف . ولو ان الروس لم يسحقوا القبيلة التترية لتمكنت هذه أن تحطم العوائق وان تصل الى موسكو وتجعلها عرضة للانتهاب . فقد كان التتر في كل الحالات يشكلون خطراً اكبر بكثير مما يشكله البولونيين والليتوانيون ، فهؤلاء الاخيرون لم يهددوا العاصمة الروسية قط .

وفي اثناء ذلك اعتقد كيتلر بأن البولونيين سيحركون قواتهم لمواجهة الروس فألقى الحصار على دوريات والحصون الأخرى التي كانت في قبضة الروس . وأدت هذه المناورة إلى عودة القوات الروسية الرئيسية إلى ليڤونيا وهي تحمل سيف الانتقام . وصار اندري كوربسكي ودانيال ارداتشيف طوال صيف عام ١٥٦٠ يلاحقان فرسان التيوتون من قصر الى قصر مجتاحين البلاد وجاعلين قوة ليڤونيا تحت الأقدام . ولم يقم

سيجسموند أوغست باي عمل لمساعدة هذا البلد الذي جعلـه تحت حمايته المزعومة . كانت الشمس تلمع فوق الأسلحة الروسية وكل شيء سار على ما يرام . ولكن ما لم يكن في الحسبان حدث في شـهر تموز يوليه ، إذ ان القدر وجه الى إيفان ضربة رهيبة ، ضربة أكبر من أية هزيمة يمكن تخيلها في ساحات القتال ، فقد وقعت القيصرة اناستاسيا مريضة وماتت وتفطر قلب القيصر وإيمانه وربما كانت هـذه المصيبة سببا في تفطر عقله ايضا .



الفصل الثامن عشر

مـــوت أنا ستاسيا

بعد فتح قازان اظهر إيفان مزاجاً اقل نزوعاً الى الحرب ، فقد ترك للآخرين امر العناية بالقتال دون أن يعرض نفسه للمخاطر . حقاً كان الجيش قد ازداد ثقة بنفسه ولم يعد بحاجة لان يشد في عضده وجود القيصر ولكن من المدهش ان هـــذا الفتى لم يعـــد متعطشاً للأمجـــاد العسكرية . يضاف إلى ذلك ان حـــرب ليفونيا لم تكن حربا مقدســـة وحصيلتهـــا لم تكن جليلـــة بالنسبة لامـــير كان يقاتل بالصلاة . كان المسيحيون يتقاتلون مع مســيحيين ، فالحرب إذن دنيوية ولها غاية نفعية ولم يكن الامر يخـــرج عن توسيع سلطـــة روسيا وهيمنتها الزمنية . ويمكننا أن نفترض بأن القيصر الذي لم يكن يعتبر نفسه قائداً عسكرياً ما كان له أن يلمع في ليفونيا . ولكنه في المعارك المختلفة التي قامت ضد التتر الغزاة بقي سلبياً أيضاً . فقد خرج مرة أو مرتين على حصانه كما لو انه ينوي قيادة جيشه ولكنه لم يشتبك مرة واحدة مع العدو . أمـــا فكرياً وعقلياً فقد بدا نشيطاً إذ كان الإرادة والإلهام وراء ارداتشيف وشيرمينتييف وغيرهما من قواد الجيش ، وفي خلال ثماني سنوات كان يمارس حياة خاشعة .

السبب الاول في ذلك هو ان إيفان لم يكن جندياً . فالقيصر الذي لم يكن يميل كثيراً للصيد لم يكن يهتم بحيـــاة المعسكرات ولا بميادين القتال . ولم يكن دمه القليل الحرارة يدفعه الى المعمعان . والسبب الثاني كان الحرص . فقد كان يحمي مستقبل القيصرة والوريث . فمنذ

خيبة الأمل التي تعرض لها اثناء مرضه عام ١٥٥٣ اجتاحه الخوف من انه في حال موته فإن البويار سيعزلون ابنه وولي عهده إيڤان ويسجنون اناستاسيا في دير بعيد . حقاً كان قد اجبر ابن عمه فلاديمير اندريڤتش أن يساند ولي العهد تحت طائلة القسم ولكنه لم يكن من النادر أن يرى المرء رجالاً ضحوا بسلامهم الأبدي من أجل العرش . كان يثق بابن عمه ، ولكنه إذا مات فهل لن يمارس البويار ضغطاً على فلاديمير ليحملوه على التنكر لقسمه والاستيلاء على العرش ؟. اما الكسي أرداتشيف فعلى الرغم مما أدى له القيصر من الخدمات وما منحه من العطايا فإنه لم ينس ما قام به هذا الشاب من إعراض في اللحظة الحرجة من عام ١٥٥٣ . وكان لايزال مستمراً في الإصغاء لنصائح الكاهن سيلڤستر ولكنه كان يعرف مع ذلك أن هذا الراهب لم يكن يحب أناستاسيا . وكان بإمكانه الاعتماد على إخلاص المتروپوليت ولكن ماكاري كان مريضاً وضعيفاً . وعلى الرغم من كل سلطة الكنيسة فإن الحبر لم يكن ضماناً لمستقبل امرأته وورثته . كانت الضمانة الوحيدة هي في ان يحافظ على حياته الشخصية كدرع ودريئة حتى يبلغ ولي العهد سن النضج .

كان بإمكانه ان يتخلص من كل أولئك الذين عارضوا مخططاته لولا أن أناستاسيا كانت تعارض الشدة وسفك الدماء في البلاط . « فلنحارب أعداء روسيا لا ان يحارب بعضنا بعضاً » . فتلك الأخلاق الحليمة التي تتألق بالحكمة كانت الى أبعد الحدود من تأثير القيصرة التي تقوم سعادتها على تخفيف آلام الآخرين . كانت بعد كل نصر في ساحات القتال تمنح الحرية لعدد كبير من الأسرى على انها نعمة من نعم الله . ومن اجل هذا تمكن رحالة غربي أن يقول عن إيڤان في عام ١٥٥٨ : « أعتقد انه ليس من أمير في المسيحية من هو محبوب اكثر منه » .

وفي الكريملين كان إيڤان يعيش عيشة الترف . ولم يكن يظهر إلا في اثواب بهية من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة او في ملابس ارجوانية متوهجة وفراء . وكان يتصرف بكبرياء عظيمة ويتلقى العرائض من الجميع حتى أن افقر الناس في البلاد ولأول مرة في التاريخ الروسي كان

بإمكانه أن يجد السبيل مفتوحاً أمامه الى ملكه . وفي مجلس البويار كان شعلة نشاط . وكان أعضاء هــذا المجلس يحــق لهم بكامل حريتهم أن يدافعوا عن آرائهم حتى ولو كانت متعارضة مع رأيه . وفي بعض الأحيان اكان أرداتشيف يعارضه بشكل صريح دون أن يحمل عليه اية ضغينة . وفي أغلب الأحيان كانت آراء أرداتشيف الصائبة تقود خطاه ويتبعهــا بينما في حالات أخرى كان يصر على رايه كما حدث في موضوع الحرب في ليفونيا وكان أرداتشيف ينصاع في النهاية الى اوامر القيصر . لم يكن يقطع الرؤوس ولا يحرق الناس في المحارق ومع ذلك كانوا يطيعونه كما لم يطيعوا اي حاكم غيره ، ولو أنه طلب الى شخص « أن يشنق نفسه » فإن ذلك الشخص يخرج طواعية لتنفيذ الأمر . وقــد ترك الرجــال شعورهم تنمو وتطول عندما أعجبه ذلك ولم يعودوا الى الحلاق إلا عندما عادت البسمة الى شفتيه .

وعند اداء واجباته الدينية كان القيصر يظهر ورع رجل من رجال الدين الذين كانوا يعيشون في القرون الوسطى كما كان مخلصاً بشكل ملحــوظ للكنيسة وللمتروبوليت ماكاري . ولم ترتد إصلاحــاته ثوب الاغتصاب والاستلاب الذي قدر لها البعض أن ترتديه . وكان همــه الأساسي هو أن يكون الرهبان رهباناً حقيقيين يقيمون الصلاة لا تجاراً ولا مزارعين لأن فساد الأخلاق إنما اتى من التجارة والجري وراء المنافع. وكان يشجع التقشف والزهد حتى انه لم يشهد احد مثل ما قام به من صوم لا من حيث الشدة ولا من حيث عدد الأيام . وكان يوزع الصدقات بسخاء وعلى أوســع نطاق كما انه أنفــق الكثير من الأموال على بنــاء الكنائس . وقد ارتفعت الكاتدرائية التي امر ببنائها في الميدان الكبير دليلاً على شكره لله على النصر الذي منحه إياه في قازان ، ارتفعت رائعة الجمال أمام عينيه واطلق عليها اسم كاتدرائية الشفاعة للسيدة العذراء. وبعد ست سنوات من بدء حفر اساساتها كان بناؤها قد تم . ولم يكن قد أتى بعد ڤاسيلي بلاجهيني او (ڤاسيلي البريء) لينتقص من قدر القيصر بسبب خطاياه فينسب اسمها اليه . والخلاصة انه لم يكن في حياة إيڤان ما يمكن أن يلام عليه .

وفضلاً عن ذلك بدا أن غضب الله قد هدأ . ففي عام ١٥٥٣ تم عن طريق الصلاةطرد الطاعون الذي تفشى في نوفغورود وبسكوف . والله الذي دعا اليه ولي العهد ديمتري عوض عنه في السنة التالية بولي العهد إيفان . وأبدى الله رحمته ايضا بحمايته موسكو مرات عديدة من غزو الوثنيين . وبارك إيفان في ذريته بأن اعطاه ولداً آخر هو فيدور Fédor الذي ولدته اناستاسيا عام ١٥٥٨ . والآن إذا كان على واحد من هذين الولدين أن يموت فإن الآخر سيبقى لوراثة العرش . والرغبة المتعصبة في ان تبقى وراثة العرش في أبنائه تعود الى حماسته المتطرفة في حبه واحترامه لأبيه وامه المتوفيين . والشفقة التي حملها هذا اليتيم على يتمه بقيت في كيانه حية تحيط بها قناديل نذرية غير قابلة للانطفاء . وقد ابتسم الله ايضاً للحرب المشبوهة التي خاضها إيفان في الغرب ، وبشفاعة من العذراء المقدسة استسلمت نارفا إليه .

على ان حرب ليفونيا كانت مشروعاً تم تنفيذه برغبة من القيصر . اما أرداتشيف وسيلفستر وكوربسكي وكثيرون آخرون فقد عارضوا فيها ولم ينقصهم حتى لفت نظر القيصر الى انه إذا اصابه زكام أو مرضت القيصرة والأولاد فإن ذلك سيكون عقاباً من الله على مثل هذا المشروع الملعون . وفي تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٥٩ ذهب إيفان واناستاسيا للصلاة في دير موزهيسك ولكنهما عندما كانا على وشك الإياب الى موسكو وقعت القيصرة فريسة المرض . وكان في رفقتهما سيلفستر الذي بدلاً من أن يأخذ بالصلاة بلغت به الوقاحة ان رأى في ذلك دليلاً على غضب العلي الأعلى . اما أرداتشيف الذي كان مسؤولا مسؤولية جزئية عن رحلة القيصر فقد فاته حسن التنبؤ في هذه المرة . ولم يكن ثمة دواء . والأسوأ من ذلك انه لم تكن توجد زحافة مناسبة لنقل المريضة الى موسكو . فمم كانت تشكو اناستاسيا على وجه الدقة والتحديد ؟. لا أحد يعرف !. اما الراي الذي يقول بأن سماً سكب لها

في كأسها فليس إلا من قبيل التخمين . على أن حالة القيصرة لم تكن مجرد وعكة بسيطة لأن اناستاسيا كانت مريضة بشكل جدي وتتطلب معالجة بدون تأخير . ولم يكن الدفء وبقية أشكال العناية متوفرة في دير موزهيسك المتقشف القاسي خلال الشتاء . وكان القيصر الشديد القلق غاضباً الى أبعد الحدود . وكان نقص العناية الذي تعرضت لـه المريضة لحظة وقوعها في المرض سبباً في تفاقم حالتها التي أودت بها في السنة التالية الى الموت .

ومن العجيب الا تصل الينا عن مرض اناستاسيا اية تفاصيل حتى ولا عندما ادعى كوربسكي بعد بضع سنوات بأنها تعرضت للسم . ومما لا شك فيه أن الطبيب الإنكليزي ستانديش استدعي لمشاورته ولكننا لا نعرف عن ذلك شيئاً . أما القيصر فلم يكن يعتقد أنها ماتت بالسم . وكانت إصابتها الأولى قد وقعت في تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٥٩ ولكنها ابلت نصف إبلالة من مرضها ثم ما لبثت أن تعرضت لنكسة خطيرة في تموز يوليه من عام ١٥٦٠ وبالمرض نفسه . وزاد في حالتها سوءاً تعرضها لرعب شديد إذ نشب حريق في الأرباط دفعته الريح الشديدة فانتشر مزمجراً مهدداً بتدمير المدينة كلها كما حدث في سنة زواجها . ووصل الدخان الى الغرفة التي كانت ترقد فيها واستطاعت أن تسمع زمجرة النيران وترى من النافذة انعكاس اللهب الأحمر حتى أصابتها هزة عصبية لم يستطع تهدئتها الكاهن ولا الطبيب . وبذل القيصر كل ما يستطيع ، فحملها بعيداً عن الخطر بأقصى سرعة حارساً محفتها حتى بيتها في قرية كوليمنسكو بالقرب من موسكو ثم عاد ليعمل مع كل حاشيته للسيطرة على الحريق . وقد نجح في ذلك على الرغم مما سببه الحريق من خسائر جسيمة .

واخيراً عاد الى أناستاسيا فلم يجدها قد هدأت بعد . كانت تهذي وتتخيل أنها ما زالت في وسط المدينة التي تلتهمها النيران . ولم يكن

الكهان ولا الطبيب بقادرين على التخفيف عنها كما لم تستطع ذلك صلاة الاحتضار الرهيبة القلقة التي رفعها إيفان . وفي السابع من آب اغسطس في الساعة الخامسة صباحاً أسلمت القيصرة الروح .

وسكب شعب موسكو الدموع. أما القيصر فقد تبع الموكب الجنائزي منتحباً حاسر الراس من التاج .



الفصل التاسع عشر

نكبة أرداتشيف و سيلفستر

يبدو أن طباع القيصر تغيرت بعد موت أناستاسيا . وربما عاد إلى ما كان عليه قبل التوبة والهداية في عام ١٥٤٧ . وقد مارس حياة سليمة ومستقيمة خلال ثلاثة عشر عاماً صديقاً للفقراء وأكثر القياصرة الذين عرفتهم روسيا فطنة وبعد نظر . لقد تركنا « الرهيب » مشغولاً بحرق لحى سفراء بوسكوف المنقوعة بالفودكا . ومنذ ذلك الوقت مر فاصل زمني طويل كان فيه إيفان يتصرف تصرف ملاك . فقد طرد من قلبه شياطين العنف والفساد وأوصدت أناستاسيا عليهم الباب بعيداً عنه . أما الآن فقد انفتح هذا الباب من جديد ودخل منه الشياطين جائعين ومتعطشين للانتقام .

وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تعلّم أن الاستسلام لليأس معناه ارتكاب أبشع الآثام ، والأخطر من ذلك التشكك بالعناية الإلهية وإنكار الإيمان والاعتراض على إرادة الله . ومن البديهي أن اليأس لدى الصلف من الناس ليس إلا سخطاً على النفس وليس له مثل هذه النتائج ، ولكن إيفان كان مطلق الإيمان ويعيش مع الله ويفسر كل حادث ، في ضوء أعمال الإله تجاهه هو نفسه ونحن لا ندري ما أمكن للقيصر أن يقوله في يأسه لأن إخباريي العصر لم يفيدونا بشيء في هذا المجال . فهل شتم الإله الظالم ؟ ، هل لعن كما فعل أيوب نور حياته ؟ . « فليهلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قيل فيه إن ولداً ذكراً قد حملت به أمه ؟ » .

ما نعرفه انه اثناء الجنازة وخوفاً من أن يرتكب عملاً عنيفاً تجاه نفسه رافقه أخوه يوري وابن عمه فلاديمير وذكره المتروبوليت بأن على المسيحي الا يقف من النكبة موقف اليأس . ونحن نجد التفسير الرئيسي لحالته العقلية في هذا الظرف في أن القيصر انصرف بعد المأتم الى الشراب، ولم يمض أسبوع واحد على الحادث إلا وكانت له عشيقة بين ذراعيه .. « فبعد مـوت القيصرة بـدأ القيصر في أن يصبح همجياً ونزاعـاً الى الفحشاء » كما وصفه احد كتاب العصر (١) .

طبعاً كانت الحاشية كلها تذرف الدمـوع ولم يكن ثمة إلا تعـاز وأحزان ووجوه كالحة . ولكن ما أن تغير مزاج القيصر حتى وضع البويار جانباً حزناً لم يشعروا به قط . فقد كانت اناستاسيا صديقة لشعب موسكو الفقير الذي حزن على موتها حزناً صادقاً . كانت نقية جداً وفاضلة جداً بحيث لم يكن بإمكان طباعها تلك ان ترضي البلاط . وأقاربها آل زاخارين كانوا محدثي نعمة في أعين النبلاء بالوراثة . وكان القيصر قد احتفظ بضغائنه على سيلفستر وأرداتشيف فكان يدعو هذا بالكلب وذاك بالمنافق . ولم يكن من الصعب أن تصل الى آذانه دمدمات وهو سكران بأنهما لا بد قد استعملا السحر ليبدوا في عيني جلالته لا غنى عنهما كل هذا الزمن الطويل » .

في أثناء مرض القيصرة كان القيصر قد قاطع سيلفستر الذي قـدم بركاته لإيفان وانسحب الى الصحراء في دير يقع على بعد بضع مئات من الكيلو مترات من موسكو ولكنه قريب مع ذلك ويساعد على الرجوع السريع فيما لو رضي القيصر عنه . فهل صلى هناك من أجل شفاء اناستاسيا ؟. إذن لكان ذلك عظيم الفائدة له . فلو انه كان يقدر النفوذ الذي كان يتمتع به على ضمير القيصر وإرادته لكان من المهم جداً بالنسبة له ان تتماثل القيصرة للشفاء . اما انه أراد بها الشر فيما مضى وفضل إقالة ولي

---

(١) مخطوطات سينود Synode رقم ٣٦٤ .

لعهد لمصلحة الأمير فلاديمير أندريفتش فهذا شيء لم يستطع القيصر قطعا أن ينساه . وماتت اناستاسيا . فحلت النكبة بالكاهن ونفي الى ابعد الأديرة واكثرها كآبة في ذلك العصر وهو دير شولوفتسك على البحر الأبيض حيث طواه النسيان وابتعد نهائياً عن العالم وانقطع نفوذه في التاريخ حتى أننا لا نعرف كيف مات . ونحن نجد وصفا لخيبة أمل إيفان العميقة بسيلفستر في احدى رسائله التي يقول فيها إنه لم يكن لديه الرغبة قط في أن يحاكم هذا الكاهن في هذه الحياة الدنيا بل ستكون المحاكمة هناك حيث تمثل نفساهما أمام « الحمل الالهي » .

وكانت أوهام القيصر اقل من ذلك تجاه « الكلب » أرداتشيف الرجل الذي رفعه من الأسفل ليجعله في الواقع وزيره الاكبر والمدير الرئيسي لروسيا ، وأقيمت دعوى لم يكن أرداتشيف مخولا بالمثول امام المحكمة للدفاع عن نفسه فيها . ولم يكن له في المجلس إلا القليل من الاصدقاء . وقد تشفع به المتروبوليت كما فعل من أجل سيلفستر من قبل ولكن شفاعته رفضت . وقدر إيفان أن باستطاعته التخلي عن الحكمة وعن سلطة الكنيسة فأصدر أمره باعتقال الكسي ارداتشيف في دوربات حيث مات هناك بعد شهرين بالحمى كما يقول البعض أو مقتولا كما قال آخرون أو مسمما نفسه مقرا بذلك بذنبه لأن ضميره لم يسمح له بمتابعة الحياة . إلا اننا يجب الا ننسى كم كان على الانسان أن يكون قوي البنية كي يتمكن من تحمل قسوة السجن في القرن السادس عشر .

ونحن لانكاد نشك بأن أرداتشيف كان رجلا ذا شجاعة وحصافة ، فعظمة الملوك لاتتأتى غالباً إلا من مقدرتهم على اختيار الرجال ذوي الكفاءة والشرف ليسندوا إليهم اعمال الإدارة . وعندما هاجم القيصر بشدة مناقب أرداتشيف فإنما كان يهاجم صدق حكمه على الرجال في باكورة شبابه . والنجاح الذي لقيه عهده حتى ذلك الوقت إنما يعود إلى فطنة هذا المستشار اكثر من دعوته الى أية ظروف أخرى . وخطأ هذا المحظي انه لم يقف إلى جانب القيصر في عام ١٥٥٣ عندما اعتقد أن

ايفان كان على وشك أن يموت وأن من الأفضل مساندة فلاديمير اندرييفتش . ولكن هذا الموقف الحكيم أخرجه من دائرة الاعتراف بالجميل والولاء البسيط لأنه كان إهانة فادحة لم يقل احد إنه طلب عنها الصفح والغفران . وقد انتظر ايفان وراقب واستمر في الإفادة من خدماته ولكن الرباط الشخصي بينهما كان قد انقطع . وفيما عدا ذلك يقال إن أرداتشيف نفسه كان طيباً وطالما وزع الصدقات عن سعة وسخاء ، وكان يحتفظ في منزله بعشرة ممن اصابهم الجذام ويقوم على تغسيلهم بيديه .

بعد أن تخلص القيصرمن سيلفستر وأرداتشيف فكر القيصر بأنه يحسن صنعاً لو طلب النبلاء إلى قسم ولاء جديد . وكان هؤلاء قد سروا من النكبة التي لحقت بحديث النعمة ولم يصلوا إلى اعماق طباع القيصر ولم يفهموا أنه كان في بدء سلسلة من الأعمال الانتقامية التي كان قد صبر عليها طويلاً حتى الآن . فهو سينتقم من كل اولئك الذين وقفوا ضد القيصرة في ١٥٥٣ ومن خلفاء أولئك الذين أساؤوا إليه وهو في طفولته .

لقد انصب غضب القيصر في باديء الأمر على خاصة الكسي أرداتشيف فقام فجأة باعتقال أخيه دانيال الذي كان جندياً باسلاً وبطلا في عدة حملات وأمر بإعدامه على الفور دون أية جريرة أو اتهام وحتى بدون أن ترد كلمة الخيانة على أي لسان فإرادة القيصر ليست بحاجة لأن يكون لها أسباب . وهكذا قتل دانيال أرداتشيف وقتل معه ابنه ذو الإثني عشر عاماً من العمر ولا يعرف أحد كيف قتلا . ونحن إنما نلحظ مافي هذا العمل من وحشية بمقارنته بلطف معشر القيصر خلال سنواته الثلاث عشرة السابقة . فالقيصر الواسع التقى الآخذ بالنصيحة المعتدل في حكمه يرتكب مثل هذه الجريمة العنيفة المثيرة . وكان يعرف أنها جريمة او بالأحرى « جريمة فظيعة » . وهكذا من أجل أن ينتقم لنفسه من الإله ارتكب هذه الخطيئة الدنيئة وعيناه بصيرتان مفتوحتان لقد كان إيفان اكثر ذكاء من رئيس الكنيسة ماكاري الذي كان يعتقد

بالسحر والسحر الأسود كما كان قادراً ــ وهذا مافعله دون شك ــ على إرسال الكثيرين من السحرة إلى المحرقة . اما في هذه الحقبة فلم يكن إيفان يؤمن كثيراً بالسحرة ويعرف جيداً ان الكسي أرداتشيف لم يمارس عليه نفوذاً آخر غير نفوذ ذكائه وعقله . فعندما كان يلعب الشطرنج معه لم يكن أرداتشيف يستعمل الأحصنة ولا يتخذ اي تدبير لمحاصرة ملكه . وعندما احترقت موسكو حتى أساساتها في عام ١٥٤٧ رفض القيصر قبول نظرية المتروبوليت بأن الحريق كان من عمل السحرة بل رأى في هذه المصيبة عقاباً من الله على الخطايا . ويمكننا الآن ان نفكر بأنه عندما كان يخضع لسيطرة الخمرة كان يسمح بنشر الإشاعة عن بعض الأشخاص بأنهم كانوا سحرة وكان يأمر بقتل بعض الناس تعويضاً عن الضربة التي وجهها الله إليه .

وكانت أبشع خطاياه الجديدة مقتل ماري مادلين وابنائها الخمسة وكانت ماري مادلين هذه ارملة تخلت بعد وفاة زوجها عن العالم ودخلت في حالة من الزهد والتقشف عن طواعية وطهارة وقيدت جسدها بسلاسل انتهى بها الأمر إلى ان اخترقت اللحم . وبعد سنوات من الصيام والتأمل والصلوات وصلت المرأة العجوز إلى مرتبة القداسة التى اثرت في خيال الجماهير حتى نسبوا لها لقدرة على الشفاء . وكانت بطبعها حانية على الفقراء والبؤساء وهذا مافتن بها الكسي أرداتشيف ، وربما بتأثيرها كان يغسل بيديه المجذومين الذين كانوا يقطنون عنده . وكان من المعروف عنها صلاتها الحميمة مع أرداتشيف . وكثرت الاقاويل في آذان القيصر انه بسبب ممارساتها السحرية اكتسب الكسي القدرة على السيطرة على عقل القيصر فأمر هذا بقتلها وقتل أولادها .

وتلك كانت خطة إيفان ان يقتل الأسرة كلها لا افراداً منها فحسب . وليس ذلك بسبب من حذر أو خوف من ان يقوم الأبناء الأحياء بالانتقام لموت آبائهم وإنما كان بدافع من وحشية محضة .وعندما يقضي على الأسرة كان يصادر ممتلكاتها .

وهكذا فإن القيصر الشهير « ذا البلاط الذهبي » الذي كان قد لقيه الرحالة الغربيون قد تحول الآن إلى كائن غريب مثير للسخرية يحمل تاجه مائلاً قليلاً على رأسه ويترنح في القصر بعد العشاء برفقة خطيبات جديدات من نوع جديد . ولم يعد ثمة من أرداتشيف مستقل اريب ولا سيلفستر كفي ليرفع يده باسم الملك سيد الجميع ، فغرائز القيصر الجديدة هي التي كانت تتحدث إليه في أذنيه عن النساء المرغوبات وعن زواج جديد . واعلن إيفان انه يريد الزواج من إحدى اخوات عدوه ملك بولونيا ثم أصبحت هذه النزوة التي صدرت عن رجل ثمل فكرة ثابتة . وقد بدا له في غروره انه ليس عليه إلا ان يطلب من سيجسموند أوغست اجمل اخواته حتى يحصل عليها على الفور . وهكذا طلب من سفرائه أن يتفحصوا هؤلاء الفتيات ويروا من هي التي ينبغي من بينهن إرسالها إليه . كانتا اختين آنا وكاترين وكان على السفراء أن يختاروا من بينهما أكثرهما امتلاء . وإذا كانت إحداهما قد تجاوزت الخامسة والعشرين فهذا سبب كاف لغض النظر عنها . كان ينبغي الا تكون يابسة العود وإنما سليمة وبدون عاهة او عيب .

وكان القيصر يعيش بين مخالب حياة داعرة دمرت حياته الدينية نفسها . فقد نسي الصيام او اهمله ولم يعد يذكر الا قسوة ماضيه وتجربته مع النبلاء في صغره فاخذ يعامل حتى الاتقياء الحقيقيين من البويار على انهم منافقون وبدا انه اغفل في تصرفه هذا شرف روسيا . وفي إحدى الليالي تسبب بعض مدعويه الذين كانوا يحملون اقنعة على وجوههم بقيام ضجة في القصر . وكان القيصر الثمل نفسه يحمل قناعا ايضا وحاول ان يضع قناعا على وجه الأمير رپنين فرفض هذا مبادرته وانتزع القناع من يد القيصر ورماه على الأرض وداسه بقدميه . « يستطيع الملك ان يجعل من نفسه مهرجا اما انا البويار النبيل وعضو المجلس فلا أريد أن اكون الأحمق الغبي » ، هكذا قال الأمير . وغضب إيفان غضبا شديدا وطرده من القصر . وبعد بضعة ايام ارسل من اغتاله . ويروي كوريسكي إنه قتل بينما كان راكعا في الكنيسة ، ولكن كوزبسكي

كان دائما يروي الاحداث في اسوأ ظروفها لان القيصر قال في احدى رسائله ان ريبنين لم يمت في الكنيسة ولكنه قتل على كل حال لأنه ابدى ملاحظة للقيصر .

ونحن نستطيع ان نضيف عذرا هو ان القيصر كان ينوي يومذاك إسلام نفسه لتوبة جديدة تكون نهائية ويتنازل عن العرش ويقص شعره على هيأة الرهبان ويقضي بقية ايامه في دير القديس سيريل القاسي في بييلو أوزيرو حيث كان قد عاقب العديد من رعاياه ، وكان يسوغ حالات سكره بقوله : « لقد قتلوا اناستاسيا » أو يكتب الى كوربسكي : « لو انهم لم يفصلوني عن جبيبتي لما صار هذا العدد الكبير من الضحايا » . وإنه لمن السائغ أن نتأمل انه على الرغم من هذا التغير الكبير الذي كان يعانيه فانه لم يكن يتنكر لأيام السعادة التي عاشها مع اناستاسيا . وعلى الرغم من انه كان يسعى لزواج جديد في أسرع وقت فان ذكرى القيصرة الفقيدة كانت لا تزال مقدسة في قلبه ، وعلى الرغم من اهماله لبعض الصلوات فانه لم ينس قط ان يصلي من اجل أناستاسيا وان يقوم باسمها بالعظيم من الصدقات . ولكن سفراءه كانوا قد مضوا للتجسس على أحوال الأختين البولونيتين ولم يخطر على بال إيفان قط أن احلامه كانت مستحيلة التحقيق .

كان سيجسموند يكرهه ويعارض مخططاته منذ أن اتخذ لنفسه لقب القيصر . وكان في تلك اللحظة في حرب مع روسيا بعد أن أعلن نفسه حامياً لليفونيا وطالب الروس باخلاء اراضيها . ولم يكن جيشه قد التقى بعد بجيش القيصر ولكن تصادما وشيكاً كان مقدراً له أن يحدث في أي وقت على الحدود الليتوانية .

ومن البديهي ان يصاب سيجسموند بالدهشة ولكنه لم يقل فورا إن هذا الزواج غير معقول لأن البولونيين لا يقولون «لا» أبدا بشكل صريح . وقدم موفدون من موسكو الى فرصوفيا ليروا أختي الملك ويقوموا فاختاروا كاترين التي كان لها المهر الأكبر على كل حال . وابدى

سيجسموند اوغست ملاحظة هي انه لا يعارض الزواج من حيث المبدأ وإن كان يفضل أن تكون المرشحة له هي انا وعلى شرط ان ينال موافقة الامبراطور وضمانا على أن اخته ستبقى على مذهب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهكذا اعطى موافقته او بدا للناس انه أعطاها بينما لم تكن له في الواقع النية الى ذلك . كان على العكس يريد أن تكون كاترين والسلام بعيدين عن متناول إيفان . وتم إرسال الماريشال زيمكوفيك الى موسكو يحمل شروط الملك في الزواج . فالقيصر ينبغي له أن يتخلى لتاج بولونيا وليتوانيا عن مدن نوفغورود وبسكوف وسمولنسك وكذلك عن الاراضي المتاخمة الليفونيا . وقد وصل سيمكوفيك إلى موسكو في السادس من شباط فبراير عام ١٥٦١ محملا بعروض كثيرة كل منها اكثر ازعاجا من الأخرى . وكان يروى بين الناس أن سيجسموند أرسل له بدلا من امراة « حصانا أبيض » . ولكن بما أن سيمكوفيك قد مكث اثني عشر يوما في موسكو فربما لم تكن مهمته مذمومة الى هذا الحد . ومع ذلك فان الشروط التي قدمها كانت مطبوعة بشيء من الاحتقار الذي لم يتسامح معه إيفان . وهكذا تخلى عن فكرة ارتباط زواجي مع بولندا وقرر الانتقام منها في ميادين القتال .

ولكن القيصر بدا متيما . فهو على الرغم من انه لم يشاهد كاترين فقد كان وطد نفسه على الزواج منها ولم تكن إرادته تحتمل المعارضة . ويقال إنه كتب الى سيجسموند ينبئه بأنه حفر حفرة ليطمر فيها راس ملك بولونيا عندما سيقطعه له . وسواء كان ذلك صحيحا ام لا فاننا نستطيع أن نتخيل رغبته باهراق الدم يغسل به مهانته . أما البلاط فقد حمل الأمر محمل الاستخفاف تماما كما كانوا يقولون: «اناستاسيا كانت عذبة ولكن كان يوجد غيرها » ، والآن كانت كاترين أبعد من أن تكون وحيدة عصرها فالبولونيات كن زوجات صالحات ، وفي امبراطوريته نفسها كان يوجد من هو افضل منها ويعدن بمباهج أكبر في الزواج . وكان الأمراء الشراكسة يدعون بأن نساءهم كن الأجمل في العالم وامتدحوا للقيصر مفاتن ابنة احد الأغنياء من الشراكسة وأحضروا هذه الفتاة المسلمة الى

البلاط فرفعت نقابها لترى كيف يحكم إيفان على جمالها . كلا لم يكن الأمراء الشراكسة مبالغين . كانت ابنة تيمغريوك جميلة . ولكي يخفف القيصر عن ضميره ويقدم الراحة لجسده قرر الزواج منها . ولكن لم يكن ذلك بدون شعور منه بالخطيئة ان ترك نفسه يسعى لهذا الالتحام الجنسي الدنس . كانت لحظات توبته شديدة . وعلى الرغم من قراره المرضي بالتخلي عن العرش وأن يجعل من نفسه راهبا كان يشعر بعائق كبير يقف دون هذا التقشف هو تخليه عن الجنس . ولا بد ان المتروپوليت كان منذ موت اناستاسيا ومن اجل هذا السبب يطالبه دائما بأن يتزوج من جديد . ولولا الكنيسة وشعوره بانه يرتكب خطيئة لكان قد فضل اتخاذ هذه الفتاة الشركسية خليلة له . ومن اجل إعدادها للزواج تم تعميدها ولكنها لم تكن تحمل في حياتها الزوجية ظلا من شعور مسيحي لتكون قادرة على أن تكون أما جديدة لاطفال إيفان . كانت جاهلة أسيوية ابنة قبيلة تجهل روسيا جهلا تاما ، والغريزة والتربية لدى النساء في القبائل الآخذة بتعدد الزوجات تجعلان هؤلاء النساء قادرات على الارضاء في فراش الزوجية ، وكانت ابنة تيمغريوك بدائية شهوانية ، وتروي الأسطورة التي ربما كانت تسعى للاضرار بها انها بعد زواجها كانت ذات اخلاق متساهلة . وقد أعطوها اسم ماري عند التعميد واحتفل بزواجها في ٢١ آب اغسطس عام ١٨٦١ قبل اربعة ايام من بلوغ إيفان الحادية والثلاثين من العمر .



الفصـــل العشرون

القيصر يصبح أكثر نزوعاً للحرب

في خلال الصيف من عام ١٥٦٠ قام جيش كبير مؤلف من ستين الف رجل بين فرسان ومشاة ومعهم اربعون من آلات الحصار وخمسون مدفعا من اصغر عيار بحملة احتلت مدينة فيلّين الحصينة واخذت السيد الكبير السابق فورستانبرغ اسيراً وارسلته الى إيفان. وقد عامله القيصر بلين ورفق كان يحتفظ بهما دائمـا للملوك المهزومين واعطـاه إقطاعا في كوستروما حيث قضى بقية ايامه بسلام .

وفي عام ١٥٦١ عندما تم هجر مشروع الزواج بين إيفان وكاترين ارسل سيجسموند اوغست جيوشا دون ان يكون واثقا من نجاحهـا الدفاع عن ليفونيا . وبما أن الفرسان التيوتون كانوا دائما يتعرضـون للمصائب فقد كانوا على حق في افتراض ان نيته انما كانت الاستيلاء على جزء من ارض دولة كانت تحتضر . فالسويد كانت قد دخلت ريفال بنـاء على اتفاق ، والسيد الكبير كتلر تخلى علنـا عن السلطة وكان اقتسـام ليفونيا بين جاراتها على وشك أن يتم . وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٦١ اعلن سيجسموند أوغست نفسه ملكاً على ليفونيا ورضي كتلر بان يكون تابعا له . ولكي يرد ردا حاسما على طلب القيصر يد كاترين قام سيجسموند اوغست فعقد معاهدة زواج مع السويد بخطوبة اخته كاترين من جان دوق فنلندا والوريث لعرش السويد وحدث الزواج في عام ١٥٥٢ . وكانت بولونيا منذ قرون عديدة تتمنى ان تصبح دولة بحرية وبدا أن هذه الوحدة العائلية قد أمنت لها منفذا على بحر

البلطيق . ولكن من اجل دعم مثل هذه الادعاءات كان لا بد من ضمانة من قوة مادية . ولم ينتظر إيفان اكثر من ذلك إذ كتب الى قواد جيشه أنه في حالة حرب مع ليتوانيا لأن الحرب جرت في الواقع ضد ليتوانيا لا ضد بولونيا اي ضد غرانــدوق ليتوانيا لا ضد ملك بولونيـــا رغم انهما كانا شخصـــا واحـــدا .

وكان إيفان قد عقـــد العزم على ان ينتقم لنفسه من الإهانة التي وجهها له سيجسموند اوغست برفضه طلبه الزواج من أخته . ولم يكن لغزو الجيوش الليتوانية ايفونيا واستيلائها على اراض منها باسم سيد جديـــد من الاهمية في نظر إيفان ما كان للاهانة الشخصية التي وجهت إليه . فحشد احد اكبر الجيوش التي حشدها للمعركة في حياته حتى ليقدر عدده بمائتين وثمانين الفا من الرجال ، وربما كان هذا الرقم مبالغا به بأن اضيف إليه العدد الكبير ممن تبعه من خلائق .

وكان إيفان قد خسر بعض افاضل قادته من امثال دانيال ارداتشيف المتوفى والأمير ميشيل فوروتنسكي الذي نفي مع عائلته الى بيبيلو أوزيرو والأمير ديمتري كورلياتيف الذي قتـــل مع افراد عائلتـــه ، وقد اختفى هؤلاء جميعهم بسبب صداقتهم لالكسي ارداتشيف . وكانت تلك خسارة كبيرة للجيش . واذا استثنينا ابن عمه فلاديمير اندريفتش الذي بقي سالم الراس حتى الآن فان هياة أركان الحرب كانت مؤلفة من الأسيويين بوجه الخصوص . وكما لو أن نفوذ زوجته الجديدة كان هو السبب فان إيفان كان محاطا بعدد من التتر والشراكسة المتحمسين سواء اعتنقوا المسيحية او لم يعتنقوها من امثال الشيخ علي وكيبولا وايباك وتوختميش وبيكبولات ، ولكن بقي عليه طلب المساعدة والنصيحة من الأميرين إيفان موتيسلافسكي وبطرس شويسكي اللذين كانا يقودان الجيش في ليفونيا خلال عدة سنوات . ولم يكن إيفان شيرميتييف قد وضع بعد في السجن . ولم يكن كوربسكي قد لاذ بعد بالفرار ، ولذلك خدما كلاهما في الجيش الكبير الذي أعده إيفان .

بمثل هذا الجيش الهائل الذي لا يعد ولا يحصى والذي يتألف نصفه من الشرقيين مشى ايفان الى ليتوانيا وكأنه أحد الخانات الكبار . ولم يكن سيجسموند يتخيل أن بامكان ايفان ان يحشد هذا العدد الكبير من الجنود والواقع انه لم يصدق ذلك . فأصدر امره لقريبه رادزيويل بان يتقدم مع اربعين الفا من الرجال حشدوا في منسك ، ولكن رادزيويل اصابه الخوف عندما أصبح وجها لوجه أمام هذه (القبيلة) الروسية الزاحفة . وفر الليتوانيون وقد اخذ منهم الذعر والفزع كل مأخذ افواجا افواجا امام القيصر الذي بلغ في الحادي والثلاثين من كانون الثاني يناير ١٥٦٣ اسوار مدينة بولوتسك التجارية الكبيرة ، وفي السابع من شباط فبراير كانت قد سقطت دفاعاتها الخارجية بعد الهجوم عليها ، وفي الخامس عشر سقطت المدينة كلها واضاف ايفان الى اسمه لقبا جديدا هو غراندوق ليتوانيا .

ولم يكن الليتوانيون قد دافعوا عن مدينتهم الا قليلا . لذلك لم يكن غضب الروس من الشدة بحيث يعملون السيف في رؤوسهم بل اكتفوا بنهب المدينة كما فعلوا من قبل في قازان. وكانت الغنائم كبيرة إذ استولى القيصر على الخزينة وعلى كل ما كان يملكه الاغنياء من المواطنين . واتخذت كميات كبيرة من الذهب والفضة طريقها الى موسكو . وكان من سكان المدينة عدد كبير من اليهود الذين سببوا للمغيرين من الصعوبات اكثر مما سببه تجار التتر عند فتح قازان . وقد قام القيصر بتعميدهم بالقوة ومن قاوم منهم اغرق في النهر . ومحيت الكنائس اللاتينية من الجذور ثم كرست من جديد ووضعت فيها مخلفات ارثوذكسية . وقام التتر بقتل اعداد من الرهبان العائدين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

وارسل القيصر ابن حميه ميشيل بيمغريوك الذي اعتنق المسيحية بدون شك في الوقت نفسه الذي عمدت فيه أخته،أرسله القيصر برسالة شخصية الى القيصرة ينبئها فيها بالنصر الجديد وارسل معه الى المتروپوليت صليباً مرصعاً بالألماس . كان إيڤان راضياً عن نفسه . فما فعله في قازان عام ١٥٥٢ اعاده بعد احد عشر عاما في بولوتسك . ولا

ينبغي ان ننسى انه اصبح الآن أقل اهتماما بالصلاة ، فبتأثير من زوجته المسلمة كان يحارب اكثر ويصلي أقل . ومع ذلك كان عليه أن يقاتل في سبيل الله حتى عندما كان خصومه من ابناء دينه المسيحيين ومن هنا اتت بدون شك هجماته على اليهود . ولكن كان من الصعب عليه أن يخفي ما كانت تحمله هذه الحرب من كفر وزندقة لانها كانت حرب عدوان . حرب انتقام شخصي يكمن فيها الغيظ والكيد . كانت بولوتسك مدينة حصينة جداً وفتحها كان يؤمن للقيصر امتلاك ليتوانيا كلها لذلك كان سعيدا لانه اظهر لسيجسموند اوغست انه أكبر وأقوى سطوة منه . ومع ذلك كان بامكان ملك بولونيا أن يحصل على الصلح بشرط أن يتخلى عن كل ليفونيا ويسلم كاترين . « ولكن متزوجة من دوق فنلندا ! » ، « وماذا يهمنا في ذلك ؟ » فالقيصر سيحتفظ بها رهينة ويولي شخصها اعظم احترام .

وعندما راى الجيش الذي احتل بولوتسك ضعف ما واجهه من مقاومة قام يجتاح البلاد مهددا مدن فيلنا وموتيسلاف ومدمرا المزارع والقرى وجامعا كمية كبيرة من الغنائم . وعلى الرغم من ان سيجسموند اوغست كان من خير الملوك الذين حكموا بولونيا كما تدل على ذلك سمعته لا انه لم يكن ملكا محاربا . ولم يكن على راس جيش يمكنه تصفية حساباته الشخصية مع القيصر المتعجرف . وقد سمع انهم أتوا معهم الى بولوتسك بتابوت فاخر صنعوه في موسكو ليكون مسكنا له اذا وافق هواه ، فقرر الابتعاد ما أمكنه عن هذا التابوت . كان خائفا جدا . لذلك أرسل برسالة الى خان القرم ينصحه فيها بالافادة من الفرصة وقيادة التتر الى موسكو التي غدت بدون دفاع ، وهو عرض عجيب من ملك مسيحي يقدم الى وثني(*) وقد وعده الخان ، ولكن كان من الصعب عليه أن يقود فرسانه القساة عبر المروج المغطاه بالثلوج

(*) لم يكن خان القرم وثنياً بل كان مسلماً ولكن المؤرخ استعمل مفاهيم ذلك العصر .
— المترجم —

وهكذا لم يتحرك . ومن حسن حظ سيجسموند وليتوانيا أن ايفان كان قلقا وقد تلاشت حماسنه للقتال واكتفى بالاستيلاء على بولوتسك . وبدلاً من ان يفيد من الفرصة ليضم إليه اكبر جزء من ليتوانيا اتخذ قراره بالعودة الى حياة النعيم والمباهج والاحتفالات التي تنتظره في موسكو . وقد أمر بأن يعاد النظر في سكان بولوتسك فيطرد منها الاناس الخطرون وتنزع الاسلحة من الباقين ، وبنى فيها تحصينات حديثة باسرع ما يستطيع وترك حامية تحت قيادة بطرس شويسكي وفاسيلي وبطرس سيريبراني . واخيرا عقد هدنة مع سيجسموند اوغست يناقشان أثناءها شروط الصلح . وكان ذلك تخفيفا كبيرا عن كاهل ملك بولونيا الذي وعد بارسال مفوضين مطلقي الصلاحية الى موسكو لهذه الغاية دون ان يكف مع ذلك عن تحريض التتر بالمسير اليها . واتخذ القيصر طريق العودة الى عاصمته ليتلقى التهليل والتحيات من شعبه ويحصل على بركات الكنيسة المعتادة ثم اسلم نفسه للشرب ليصبح اكثر جنونا واشد قسوة .



الفصل الحادي والعشرون

عودة إلى عنف أشـد

كشف سلوك القيصر غير المنطقي عن نوع من المرض العقلي بل ربما عن إصابة زهرية في المخ ، وكان من الصعب التنبؤ عن مكان ضربته القادمة . وكنا قد أشرنا من قبل الى أنه كان قد صمم على الانتقام من الزمرة التي رفضت في عام ١٥٥٣ أداء قسم الولاء الى ولي العهد ديميتري الذي أصبح اليوم في عداد الأموات . ولكن ما فعله في الواقع بعد موت اناستاسيا لم يكن يدخل في عداد هذا المنطق . فقد رافقه في حربه في ليتوانيا ابن عمه فلاديمير اندرييفتش الذي كان يكن له أعظم تقدير . وبعد ان أحرز النصر ارسل برسالة خاصة الى والدة الأمير وهي الأميرة الطموحة افروسين التي كانت تعيش في أراضيها في ستاريتسا ، ولا بد ان هذه الأميرة فهمت عند ذلك بأن بإمكانها أن تعود الى الحظوة عندما سمح لولدها مع حاشية كبيرة بالقدوم اليها للاحتفال بعودة الجيوش الظافرة . ولكن ما أن مضت بضعة أيام على ذلك حتى أجبرها القيصر على أن تصبح راهبة ونفاها الى بيبيلوزيرسك ثم اغرقها في البحيرة .

وفي موسكو استقبل الشعب إيفان استقبال الظافرين إذ أراد أن يحيي ذلك الاستقبال المسرحي الذي حظي به لدى عودته من فتح قازان . وكانت القيصرة الشركسية من أجل أن تقلد اناستاسيا قد ولدت في غيابه ابناً له . ولكن هذه العودة لم يكن لها بهاء عودته من

قازان لأن الاستيلاء على بولوتسك لم يكن نصراً للمسيحية ، ومع ذلك فقد كان الحادث مناسبة لإقامة عدد من ولائم القصف والتسلية .

على أن اشد ما ارتكبه إيڤـان من أعمال القسوة غـير المعقولة كان اعتقاله للأمير إيڤان شيريميتييف أحـد أبطال الحرب وصديق القيصر الذي وقف الى جانبه عام ١٥٥٣ والرجل التقي ذي الحياة الفاضلة . وقد ألقي به في زنزانة نتنة واخضع للتعذيب بالرغم من أن أية تهمـة محددة لم توجه اليه . ثم نفي بعد ذلك الى كيريلوف وصدر أمر بمصادرة أملاكه ولكنهم لم يجـدوا شيئاً لأنه كان قد أعطى كل شيء للفقـراء . ويدخـل القيصر الوقح العـديم الشعور زنزانة شيريميتييف المقيـد بالسلاسل ، فهل فعل ذلك من أجل أن يرى الأمير أنه لا شيء وأنه هو القيصر كل شـيء ؟. كل ما نعرفـه عما دار بينهما من حديث يتلخص بالسؤال التالي : « أين خبأت أموالك ؟ » .

عام ١٥٦٣ كان عام وفيات . ففي أواخر نيسان ابريل توفي ڤاسيلي آخـر أبنائه بعـد خمسة أسابيع من ولادته . وفي السنة نفسها توفي المتروپوليت ماكاري فانكسرت بذلك حلقة أخرى من الحلقات التي كانت تربط إيڤان بالماضي . وكان ماكاري قد سعى منذ بعض الوقت لأن يبتعد عن البلاط حيث رأى أن الأمور صارت تسير في مسار سيء . وكان يفهم أنه أصبح عجوزاً جـداً بحيث لم يعد يستطيع أن يوجـه التأنيب الى القيصر على خطاياه . كان ينبغي وجود متروپوليت أكثر شباباً ونشاطاً للوقوف في وجه مفاسد القيصر . وأراد الشيخ العجوز الانسحاب الى الصحراء ليعيش فيها سنواته الأخيرة في تقشف وزهد لولا أنه كان ينصح دائماً بالانتظار حتى وافته المنية أخيراً وجعلته ينسحب من المسرح الذي لعب فيه دوراً ذا شأن . ولا شك في أن المتروپوليت في أثناء حياته لم يكن الرجل الذي يقدم النصيحة الحكيمة ولم يمارس على إيڤان نفوذاً سليماً جداً وملائماً ، وإنما كان قد أصبح منذ زمن طويل شيخاً وعاجزاً إلا عن الصلاة .

وفي تلك السنة ذاتها وقع يوري اخو القيصر الصغير مريضاً ثم غادر الحياة وأقيمت لـه في الكريملين جنازة حافلة بدا فيها إيفـان شديد التأثر . كان يوري عطوفاً محباً ولم يقف قط في وجه أخيه لأنه لم يكن طموحاً ولا ذكياً ، كما كان موالياً وصديقاً ممتازاً للقيصرة أناستاسيا . أما زوجته أوليانا فكانت امرأة صالحة جداً وتكاد تشبه أناستاسيا في سلوكها وتصرفاتها . وبعد وفاة زوجهـا دخلت الدير عن رغبة منهـا وطواعية ، ولكن القيصر فرش لها مقصورتها فرشاً باذخاً كما لو انه لم يشأ أن تضحي بطيبات هذا العالم . ووجب على أخت الإحسان المتواضعة أن يكون لها بلاط وحاشية حتى ولو كانت تسكن مقصورة في دير . إلا أن أوليانا كان لهـا عناد المتدينة الناعمة فاعترضت على محبة القيصر المفرطة فكان أن اغتاظ وغضب غضباً شديداً وأمر بقتلها .

ثم وجهت التهمة للأمير فلاديمير اندرييفتش بعدم الولاء . وقـد استخدموا لذلك كلمة نيپراڤدا Nepravda التي يمكن ترجمتها بالنفاق او عدم الصدق ، وشمل الاتهام امه أفروسين أيضـاً . ولكن القيصر سامحه بفضل تدخل عدد كبير من الأشخاص على أن ينسحب الامـير الى ممتلكاته في ستاريتسا وأن يبدل حاشيته بحيث يستطيع إيڤان أن يتلقى معلومات جديرة بالثقة عن أعماله ونواياه . وهكذا يكون القيصر قد قام بعمل متناقض وغريب بأن يظهر له محبته وعطفه في الوقت الذي يضعه فيه تحت المراقبة ثم يذهب بين الحـين والآخر الى ستاريتسا مدعواً الى ولائمه .

وكان إيڤان في تلك الفترة يتسلح دائمـاً بعصا طويلة من الخشب تنتهي بسن من الفولاذ . كانت عصا ضخمة طولها مائة وعشرون سنتمتراً ذات حربة ثقيلة ومقبض حسن النقش ، وقد اعتاد القيصر أن يضرب الناس بهذه الحربة فيؤدي بهم الحال احياناً الى الموت . ولم يكن أحـد يدري مسبقاً ما إذا كان القيصر غاضباً أو حسن المزاج. وقد بدأ بأن يكون ذا نزوات إجرامية ، وبدأ الخوف الأكبر منه في عام ١٥٦٣ وهو التاريخ الذي بدؤوا يطلقون عليه فيه لقب الرهيب « Le Terrible » . ولم يؤد

زواجه ولا انتصاره في ميدان المعركة الى التلطيف من طباعه . وما أن بدأ به الأمر بموت اناستاسيا حتى كان بديهياً أن يستمر فيه وأن تتفاقم حالته الى الأسوأ بمرور الوقت . وتجنب الناس الدخول في خدمته . ولوث القضية المسيحية فكانت النتيجة ان عاد الصليبي فيشينفتسكي الى وطنه وقدم خضوعه اسيجسموند أوغست . وكان ملك بولونيا مستعداً للتسامح مع هذا الصليبي على شرط ان يخدم في الجيش الليتواني ويقاتل الروس رفاقه السابقين في السلاح . ولكن الرجل الشريف لم يقبل فأسلمه ملك بولونيا الذي لم يكن ذا ذمة ولا عهد الى السلطان التركي الذي دبر له ميتة قاسية .

وهرب الأميران الشركسيان الكسي وغبريال الى بلاد الأعداء ، كما ان من المؤكد أن عدداً كبيراً من الروس تركوا في ذلك الوقت روسيا ووضعوا انفسهم في خدمة بولونيا ، وكان الأشهر من بينهم هو الأمير اندري كوربسكي الذي كان فيما مضى صديقاً حميماً للقيصر في زمن الصبا . وقد لجأ الى ڤولمار ودخل في الجيش البولوني . وفي إحدى المرات كتب الى إيڤان من مكان أمين . ويروى ان القيصر عندما تلقى الرسالة القى بثقله على العصا الحديدية التي وضعها فوق قدم الرسول الواقف أمامه حتى خرقها ، ثم أمر الرسول بفتح الرسالة فجاء فيها ما يلي :

« الى صاحب جلالة كانت فيما مضى صافية وقد جعلها الله مشهورة بفضله ولكنها الآن أظلمت بالخطايا والكراهية الشيطانية التي تحرق قلبها وتميت فيها الضمير . أيها الطاغية الأوحد بين أكثر الأسياد ضلالاً في العالم اسمع هذه الكلمات ! في زحمة الألم الذي يخنقني لا استطيع أن أكتب إلا القليل من الكلمات ولكنها ستكون الحقيقة . لماذا تغرق في اليأس رجال الله الأقوياء وزعماء الحرب الأشداء الذين ارسلهم لك العلي الأعلى سافكاً دمهم المقدس هم الذين حملوا النصر الى كنائس الله ؟. أليسوا متحرقين حمية لقيصرهم ووطنهم ؟. بإشاعات ملفقة وجدت أن

البويار كانوا خونة والمسيحيين سحرة والضياء ظلمة واللطف مرارة . أليس بهؤلاء الرجـال كنت قد كسرت نير التتر ؟. أليسوا هم الذين استولوا على حصون الألمان على شرف اسمك ؟. ثم كانت مكافآتنا الموت فهل تعتقد نفسك خالداً ؟. أليس هناك إله ومحكمة عدالة ينصبها العلي الأعلى لمحاكمة القيصر ؟. في اضطـراب قلبي لا أستطيع ان اذكـر كل ما سببته لي من ألم . لن اقول إلا شيئاً واحـداً هو انك حرمتني من روسيتي المقدسة ، والجراح التي تلقيتها في خدمتك أفوض أمرها الى الله فهو يقرأ ما في قلبي . لقد تفحصت ضميري ووزنت اعمالي وتقصيت خفي أفكاري فلم اجد البرهان على أنني تجنيت عليك . لقد قدت كتائبك ولم ادر ظهري قط للعدو وكان مجدي مجدك . ولم أقض في خدمتك سنة او سنتين وإنما عدداً كبيراً من السنوات وفي العديد من المشاريع القاسية الجريئة دون ان ارى امي ، محرومـاً من زوجتي وبعيداً عن بلدي العزيز . أحص جروحي وأحص معاركي ترني لا أبالغ ولا أتباهى فالله يعرف كل شيء ، فإليه اتضرع على امـل ان يشفع لي القديسون وجدي الأمير فيدوريار وسلافسكي .

لقد انفصلنا عنـك الى الأبد ولن ترى وجهي بعـد اليوم إلا يوم الدينونة الرهيب ، ولكن دموع الأبرياء تعِدُ لقتل جلادهـا . فاخشَ الأموات ، أولئك الذين قتلتهم . ذلك لأنهم سيحيطون بعرش العلي الأعلى سائلين الانتقام . لن ينقذك جيشك . وكلمات المتملقين لن تجعلك خالداً عصياً على الموت . ونبلاؤك التافهون ، أولئك الذين هم الساعةَ رفاقُ تخنثك ومفاسدك يقودون إليك أبناءهم لإرضاء شهواتك الداعرة ، أولئك البويار لن ينقذوك .

فلتدفن معك هذه الرسالة التي بللتها بدموعي لكي تظهر معك امام محكمة الله . آمين . كتبت في ڤولمار من املاك الملك سيجسموند سيّدي الذي آمـل بفضل الله ان احصل منه على العفـو والعزاء في تعاستي وشـقائي » .

بعد ان سمع القيصر ما جاء في هذه الرسالة امر بكل برود ان يقاد حاملها للعذاب كي يحصلوا منه على معلومات اخرى . ولكن الخادم كان رابط الجأش فهدا غضب القيصر حتى أنه وجد الرسالة ممتعة . فهي كما لو أن كوربسكي قام بهجوم خاطف غير منتظر في لعبـــة شطرنج . وقبل ان يرد إيفان عليها اخذ وقته في التفكير . كان نوعية اخرى أعمق من طراز كوربسكي . ورغم كل شيء فإن كوربسكي كتب للقيصر وعن القيصر . ولم يكن يعرف أسباب تصرفاته فإن علم النفس يقبع دائماً وراء التاريخ . ولقد غدت كتاباته قطعـا مقدسة في المتاحف ومصادر ثمينة جداً لدراسة عهد إيفان . ومع ذلك فإننا إذا اتبعناها بعماء فإن التاريخ يمكن ان ينخدع . وقد اجاب إيفان :

« ايهـا الشقي ، لماذا تهلك نفسك بالخيانة ؟. لماذا تنقذ جسدك الفاني بالفرار ؟. إذا كنت صادقا وفاضلاً فلماذا اردت ان تتجنب الموت الذي يمكن ليدي ان تقدماه لك وترفض تاج الشهداء ؟. خيلاء وخديعة للعقل أن ياتي الموت بسلام للنفوس . خذ مثلاً على ذلك رسوالك . فهو تحت التعذيب وحتى على ابواب الموت لم يشأ ان يخون سيده . فاخجل من ان ترى نفسك هارباً من غضبي ومحمــلاً نفسك ونفوس أجدادك جريمة الخيانة . ذلك لانهم اقسموا يمين الولاء لجدي ليس من أجلهم وحدهم وإنما من أجل ذريتهم أيضاً » .

كان جواب إيفـــان طويلاً لأنه راجع فيه مهنـــة الأمـــير كوربسكي العسكرية وأبدي له بالتفصيل أنه لم يكن مكللاً بالمجد كما تهيأ له . فقد كان الأمير كوربسكي يحضر وليمة بينما كان الخان ياوذ بالفرار وتركه يمضي دون أن يلحق به آية خسارة . وبعد ذلك لم يتمكن مع خمسة عشر الفا من عساكره أن يقهر اربعة آلاف فقط من الليتوانيين . ولم يشهد الاستيلاء على أستراخان : « لم تنعم قط برؤية المدينة .... وعندما أسلم الله قازان إلينا ماذا كنت تفعل ؟ . قمت بالنهب ... في بسكوف، وتظاهرت بالمرض ... فلولا عصيانك هذا وعصيان الكسي أرداتشيف

لكنا الآن أسياد ليفونيا كلها . . . وادعيت انك اهرقت دمك ؟ . حسناً .
لقد اهرقنا نحن عرقنا ودموعنا بسبب تمردك وعصيانك . » .

اما القسوة فقد انكرها القيصر تماما . فلم يطلب احد قط كشف حساب من ملوك روسيا عما إذا كانوا قد سامحوا أو قتلوا رعاياهم .

« هذا ما كان وهـذا ما سيكون . وانا لم أعد طفلاً . وملكاتي الفكرية كافية بفضل الله وفضل السيدة العذراء الطاهرة والقديسين الشفعاء . وانا لا أطلب النصائح من الرجال فبفضل الله ستكون روسيا مزدهرة ونبلائي يعيشون في سلم وصداقة . اما أصدقاؤك فهم وحدهم من يتآمرون ويجنحون للشـر . انت تهددني بمحكمة المسيح ، ولكن الا تظهر قدرة الله هنا على الأرض ؟ . إنها لهرطقة مانوية (*) . اتظن ان الله لا يوجد إلا في السماء وان الشيطان لا يوجد إلا في الجحيم ؟ . كلا ، كلا ، إن سلطان الله في كل مكان في هذه الحياة الدنيا كما في الحياة الآخرة . وأنت تريد أن تحيط ضحاياي بعرش الله ... وتلك هرطقة اخرى . فإذا تبعنا قول الحواري « فإن احداً لم ير الله » . وانت تطلب مني ان ادفن رسالتك مع جثماني ، وانا أجيبك : هل انطفأ فيك آخر قبس من المسيحية ؟ . ذلك لأن المسيحي ينبغي ان يموت على محبة وإحسان مع قريبه لا على ضغينة وسخيمة .

واخيراً ، وبدافع من خيانة عظمى ، انت تسمي مدينة ڤولمار منطقة نفوذ الملك سيجسموند متطلعاً الى نوال نعمائه ومتخليا عن مليكك الذي أعطاه الله إليك . لقد اخترت مليكاً أفضل ! . إن مليكك هو عبد العبيد ، فهل من العجيب ان يكيل له المدائح عبد ؟. لقد انتهيت . فقد قال لنا سليمان الا نبدد كلامنا على الحمقى ولا شك في أنك واحد منهم ! » .

(*) نسبة لماني منشىء الديانة المانوية في فارس . — المترجم —

أما كوربسكي فقد غدا مستشار سيجسموند أوغست وكوفيء على ذلك بمنحه إقطاعاً في كوڤيل في بولونيا . وأما انه كان خائناً لبلاده حتى ولو كان يحكمها طاغية فتصرف من الصعب الدفاع عنه . ولا بد لنا من افتراض أن كوربسكي كان يأمل في اختفاء القيصر عما قريب بواسطة يد منتقمة مما يعطيه الفرصة للعودة الى روسيا . ولكنه بمساعدته التتر على غزو روسيا وتسهيله لهم الوسائل لم يبد خائنا لمليكه فقط وإنما للكنيسة وتقاليد دينه أيضا . وأخيراً مشى الخان وألقى الحصار على ريازان ولكن المدينة كانت منيعة جداً فانسحب وقد لحقت به الهزيمة والخذلان . وانضم كوربسكي وبقية الفارين الروس الى الجيش البولوني الليتواني ومشوا مع رادزيڤيل لاستعادة پولوتسك ولكنهم فشلوا هم ايضا ، فقد قاتلت جيوش القيصر قتالاً حسناً على الرغم من وحشية مليكها وبدا واضحاً ان فرار كوربسكي لم يتسبب في زعزعة العرش . وكان بإمكان إيڤان لو انه اراد ان ينتهز الفرصة ان يبدأ انطلاقة جديدة اكثر فطنة وتوازناً ونضجا ولكنه لم يستطع أن يوقف تدهوره العقلي والمعنوي .

وزاد في طبيعة إيڤان الحذرة المتشككة انقلاب كوربسكي عليه ، ولم تهديء انتصاراته شيئاً من قلقه . كان يعض شفتيه وهو يتطلع الى البويار والى بلاطه الذهبي المصفوف أمامه في القصر أثناء العشاء ، ويصغي للاحاديث ويستقبل ناقلي الأقاويل ويشجعهم بما يقدمه اليهم من مكافآت ، ويجتهد في أن يقنع نفسه بوجود مؤامرة واسعة عليه دون ان يستطيع الحصول على معلومات في هذا الموضوع لعدم وجود اية مؤامرة في الأصل . وقد أوقف العديد من الناس وعذبوا ولكنهم عندما كانوا يسألون لم يكونوا يكشفون شيئا لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئا . ويبدو أن القيصر منذ التوبيخات التي وجهها اليه كوربسكي صار أكثر تطلباً الدماء ليقدم اليه رداً أفضل في زعمه مما جاء في الكتاب المقدس . وكان المتروپوليت أثاناسيوس قد استقدم من دير شودوف ، ولم يكن يملك من المبادرة أكثر من اي كاهن في البلاط ولا يجرؤ ان يوجه الى القيصر اي

لوم او تأنيب . أما المقربون الجدد من أمثال الكسي باسمونوف وميشيل سالتيكوف واثناسيوس فيازيمسكي وإيفان شيبوتوفي فكانوا أفراد حاشية يصفقون للرذيلة ويشجعون القسوة والفجور .

في كانون الأول ديسمبر عام ١٥٦٤ قرر القيصر القيام بعمل خارق يمكن من خلاله بشكل ما أن يتنبأ المرؤ بغرابة الفترة الأخيرة من عهده . فقد ترك المدينة ومضى مغامرا في أمكنة مجهولة ليس لها اتجاه محدد تاركا اختيار طريقه « لإرادة الله » . وفي الساعة الأولى من يوم الثالث من كانون الأول ديسمبر تجمع عدد كبير من الزحافات المكدنة الى احصنة مع سائقيها فوق الثلج في ساحة الكريملين واقيمت حفلة وداعية في كاتدرائية الصعود . وكان البويار الذين حضروا الاحتفال يتطلعون الى بعضهم مشدوهين لأنهم لم يكونوا على علم بشيء . وأعطى المتروبوليت أتناسيوس بركاته وهو يجهل هو الآخر نوايا القيصر . وكان العمال مشغولين بتحميل الزحافات بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يأتون بها من القصر . واستقر القيصر والقيصرة وطفلاه في زحافتهم . وركب أيضا السكرتيرون وعدد من الموظفين وانطلقت القافلة بالجميع دون ان تترك وراءها اي عنوان .

وفي اللحظة التي اتخذ القيصر فيها طريقه كان التجار والأمراء قد قبلوا يده ، ولكنهم عندما رأوا حرسه من الفرسان وخيول الجر التي تجري غزا الخوف قلوبهم ، فهذا السفر الغريب بدا علامة شؤم لهم ولموسكو . وقد انقلب هذا الخوف الصغير إلى ذعر كبير عندما تلقوا في مدينتهم أولى الرسائل التي بعث بها القيصر بعد سفره والتي يقول فيها : « بما أنني عاجزعن تحمل الخيانات التي تحيط بي فقد هجرت الدولة وذهبت حيث يقود الله خطاي » .

وليس الأمر ان شعب موسكو خشي عقاب القيصر فإن إيفان لم يكن يتكلم في ذلك . لقد قال ببساطة إنه تعب منهم وإنه يهجرهم كما يهجر زوج متمرد زوجته وبيته . فالملك الذي تلقى البركات هجرهم «فماذا نفعل الآن

بعد أن هجرنا ملكنا وسيدنا ؟ » . بعد قليل من الوقت تعطلت التجارة ولم تعد الدكاكين تفتح أبوابها وبقيت البيوت مغلقة وغزا الشعب الكريملين يطالب بضحايا كما كان قد فعل بعد الحريق الكبير . فهو يريد أن يعرف من من البويار أغضب القيصر ليجعله لقمة سائغة بين فكيه !.

كان ذعراً شبيهاً بما يصيب خلية النحل عندما تموت ملكتها . فقد خرج الناس جماعات من منازلهم يتوقعون الخطر والهم الشديد .

وعقد المتروبوليت مؤتمراً مع البويار . كان ينبغي القيام بشيء ، وناقشوا في البدء احتمال إرسال المتروبوليت إلى القيصر يتوسل إليه في الإياب . ولكن أثناسيوس لم يكن يجد في نفسه القوة ولا السلطة المعنوية الضرورية للتأثير على إرادة العاهل . وبدلاً من ذلك ألف الأساقفة وفداً منهم يذهب إلى القيصر باسم المدينة . ومضوا ليتذللوا إلى سيدهم تحت الثلج وأتى بعدهم الأمراء إيفان ديميتريفتش بيلسكي وإيفان موتيسلافسكي وكل البويار ورجال الحاشية ونبلاء أقل قيمة وموظفو البلاط ولم يجرؤ أحد على التخلف .

وفي أثناء ذلك كان القيصر قد أقام مع آل بيته نهائياً في مدينة صغيرة تقع إلى الشمال الغربي من فلاديمير على بعد مائة وستين كيلو متراً من موسكو هي ألكسندروف التي تسمى بوجه عام سلوبودا ألكسندروفسكا. وكانت على وجه التأكيد المكان الأكثر غرابة مما يمكن أن يشير به الله كملجأ وسكن لسيد البلاد . وفي الخامس من كانون الثاني يناير ١٥٦٥ وصلت إليه سرية التوبة والندامة والكل يتوسلون إليه بالعودة ويستدرون شفقته المعروفة عنه . كان بإمكانه أن يهجر بلاطه ولكن كيف يمكنه أن يهجر معابد العاصمة المقدسة ومخلفات القديسين. « أتذكر ! — قال له الأساقفة — أنت لست حارس الدولة فحسب بل حارس الكنيسة أيضاً ، فمن سيحافظ في غيابك على إيماننا في حقيقته ونقائه ؟. من سينقذ ملايين النفوس من اللعنة الأبدية ؟ » .

إن استنزال سلام النفوس من قيصر كما لو كان المسيح كان مهيناً حقاً بعض الشيء ، ولكن هذا التملق كان محسوباً ومدبراً خير تدبير . وسجد الجميع وبقي القيصر وحده منتصب القامة كما لو أنه كان يتمتع بتمثيله للسلطة المطلقة ، وهم لم يتوسلوا إليه من أجل أن يعود لتسلم سلطته الزمنية على الأجساد والأرزاق فحسب وإنما أن يتسلط ضمناً على النفوس أيضاً حتى ولو أوردها مورد اللعنة والهلاك . ووعظهم إيفان طويلاً ، ولكن هذه الموعظة لم تكن إلا تمهيداً كلامياً لإعلان حقيقة نواياه .

« ومع ذلك فإنني بدافع من محبتي للأب أثناسيوس ولكم وللأساقفة والمطارنة الحجاج اوافق على العودة إلى العرش ولكن على شرط ان أكون حراً في إعدام الخونة بمحض إرادتي وأن أعاقب — رغم استيائي — حتى بعقوبة الموت والسجن ومصادرة الأملاك دون أن أتعرض لحرمان الكنيسة أو نواياها السيئة » . هذا ماقاله إيفان للمستعطفين .

واستقبل المستعطفون هذا الكلام بدموع الفرح . « افعل بنا ما تشاء ، ولكن عد إلينا ! » وأبدى إيفان إعجابه بخضوعهم وطلب من معظمهم وهو يبتسم أن يبقوا ليحتلفوا معه بعيد الغطاس في ألكسندروف .



الفصل الثاني والعشرون

عمليـــة انتقـــام

في الثاني من شباط فبراير عام ١٥٦٥ قام القيصر بدخول عاصمته التي كان قد تركها قبل شهرين بينما كانت آلاف الجماهير تبكي من الفرح وهي راكعة على ركبتيها تتطلع إلى العائد إليها . ومع ذلك فإن المرء إذا ألقى نظرة عجلى على هذه السحنة الإلهية رأى فيها مظاهر مريبة من عدم الانسجام . فالقيصر الفتي المهيب الذي لم يكن له من العمر إلا أربعة وثلاثون عاماً كان شاحباً منحني الظهر وله شعر مبعثر . وبما انه كان قد اقتلع شعر لحيته فقد بدا كمجنون ، ومابقي من تلك اللحية كان مشعثاً . وبدا رأسه أصلع ونظرته ثابتة كما لو كانت عينه حولاء . وتحت جبهته المتغضنة كان يختبىء كامناً تصميم حار على انتقام قاتل . ولم يكن حسن الشكل ولا معتنياً بمظهره ، يرتجف ويضطرب فمه كما لو كان يعاني من ألم أو من رغبة في الانتقام . هكذا قام بدخوله الغريب إلى المدينــة تحت قرع جميع النواقيس بينما كانت زحافاته تتقدم ببطء فوق الثلج المتجمد .

وعندما وصل إلى الكريملين أصدر أوامره في عدة أمور . فأولاً هو لن يقطن الكريملين وأن عليهم أن يبنوا له بأقصى سرعة ممكنة بيتاً حصيناً في وسط المدينة بين مساكن الشعب بين أرباض ونيكيتسكايا . ثم عدد من جديد أخطاء البويار وحصل من الكنيسة على تأكيد بألا تقوم بأية انتقادات على ماسيقوم به من تدابير ضد أولئك الذين تسببوا في سخطه وغضبه . وعبر عن مقاصده بانتقاء ألف شخص من بين النبلاء ليكونوا حرساً

شخصياً له ويقوموا على خدمته وسيطلق على هـذا الجيش اسـم اوبريتشينا Opritchina وهو اسم انشاه بنفسه ، ولم يكن معروفاً من قبل في روسيا ولابد أنه كان يحتوي على دلالة جديدة . وقد خصصت بعض الشوارع في موسكو لسكنى افراد الاوبريتشينا بينما طلب من سكان هذه الشوارع أن يفتشوا لهم عن مأوى في شوارع أخرى . في الوقت نفسه وضع خدم القيصر مخططاً سهروا جيداً على صياغته ينظم سقوط الحق في المواريث واعادة تقسيم جديد للممتلكات والثروات والضرائب .

وكان هذا المخطط توسيعا لافكار القيصر الأولى التي راودته بتأثير من الكسي ارداتشيف عند وضع قانون العقوبات عام ١٥٥٠ . وقد وضع في الحقيقة ليحل الاوبريتشينا محل كبار البارونات والأمراء الاقطاعيين ويهدف الى إقامة اوتوقراطيـة تعتمـد على خدم مأجورين بـدلا من أوتوقراطية مزعجة تعتمد على نبلاء مستقلين اقوياء وموسرين . وكانت الاوبرويتشينا اشبه بنظام جزويتي فاسد تضمن له الكنيسة سلفا عفو الله عن كل ما يرتكبه من جرائم باسم القيصر — ويضع ضميره تحت تصرف إيفان لانه يتلقى مرتباته لقاء هذه الخدمات .

اما البويار الذين لم يكونوا جزءا من الأوبريتشينا فانهم سيشكلون الزيمشينا . وستكون واجبات الأولين مكرسـة القيصر بينما تخصص واجبات الآخرين للادارة المدنية ويقتصرون على خدمة الدولة بعيدا عن البلاط . وكان اول عمل للقيصر هو انه سحب من خزينة الزيمشينا مائة الف روبل ليدفع منها مصروفاته في الكسندروف . وازداد بخله بمقدار ما كانت تزداد قسوته . واضافت مصادرة الأملاك والأرزاق الشخصية متعة جديدة لأعمال القتل .

كان إيفان قد وصل في الثاني من شباط فبراير ، وفي الرابع منـه بدأت اعمال الاعدام . فقتل الأمير الكسندر غورباتوف شويسكي قائـد حملة قازان الشهير ومعه ابنه بطرس الذي كان له من العمر سبعة عشر

عاما : وتم ذلك في الساحة الحمراء وسط مشهد مثير للدموع . فقد كان ينبغي أن يقطع راس الابن أولا . ولكن الأب لم يتمكن من تحمل مشهد ابنه يقتل أمام عينيه فوعدوه بأن يوضع راسه أولاً على قاعدة النطع. وعندما تدحرج الراس على الأرض أخذه الابن بين يديه وقبل وجهه الداكن قبل ان يسلم نفسه للجلاد .

وفي اليوم نفسه قتل عدد آخر من البويار ، ووضع الأمير ديمتري تشيقيريف على الخازوق ليتحمل أفظع الميتات وبقي السيء الحظ ينازع يوماً كاملاً وهو يبتهل حتى آخر لحظة الى المنقذ الفادي. وكان أحد الذين قطع راسهم الامير بطرس غورنسكي الذي ألقي القبض عليه وهو يهم بالفرار من المدينة على حصانه . وكان التفسير الوحيد لهذه الاعدامات هو رباط المودة الذي كان يربط هؤلاء الضحايا بالأمير غوربسكي ، ولكننا لو توخينا الصدق فان بعضهم نجا من اللوم والتوبيخ ، كما أن القليل من الذين هلكوا كانوا على صلات حميمية مع الأمير الهارب أو يحلمون في اتباع خطاه .

ولم يقتصر العقاب العام الذي فرض في ذلك اليوم على أعمال الاعدام . فكثيرون من الذين نجوا من سلطة الجلاد تم نفيهم الى أقاصي البلاد . وقد اضطر بعضهم في بعض الحالات أن يدفعوا كفالة بمبلغ خمسة وعشرين الف روبل ليضمنوا عدم تركهم للبلاد .

ومع ذلك كان ثمة بعض التسامحات . فالجندي البطل الأمير ميشيل فوروتنسكي الذي كان منفيا الى بيبلو زيرسك أعيد الى موسكو . ونال ياكوليف أحد أقرباء القيصرة اناستاسيا نال العفو في اللحظة الأخيرة بتدخل من الكنيسة .

وهكذا تم تدشين عهد ارهاب عميق بدأ بتنظيم الأوبريتشينا . فقد اراد القيصر الجالس بين محظييه باسمانوف وفازيمسكي وسكوراتوف ان يتوسع في مخططه فاختار من بين أبناء البويار أفتاهم وأعنفهم طبعا

ليشكل من بينهم حرسه الخاص الجديد . وتم إنشاء صيغة قسم خاص بهم ، فكان ينبغي عليهم الا يعرفوا احدا ، لا أبا ولا أما إلا القيصر . وينبغي عليهم أن يسكنوا سوية ولا يترددوا على مساكن أفراد الزيمشينا ولا منازل التجار . والواقع أن القيصر لم يجند في هذا التنظيم الف رجل فحسب وإنما ستة آلاف قدمت لهم الإقامة المجانية واضيف إليها دخل صغير ، وغدا اثنا عشر الفا من الأشخاص بدون مأوى ليخلوا مكانهم لأفراد هذا التنظيم . وكان هؤلاء الحرس من الأوپريتشينا هم الأبناء الصغار في عائلاتهم فكانوا فقراء ولكنهم الآن وفي سحبة قلم وجدوا أنفسهم نسبيا اغنياء وبعد أن تقلدوا السلطة التي أوكلت اليهم اخذوا فورا في اضطهاد جيرانهم كي يجملوا منازلهم وممتلكاتهم لأنهم كانوا في الحقيقة فوق القانون ولم يكن عليهم أن يقدموا حسابا عن اعمالهم . فكانوا يستطيعون فرض الغرامات على الجنح والجرائم ويجلدون علنا اي انسان حتى يدفع ما يطلبون .

هذا الحرس الامبراطوري المؤلف من ستة آلاف من رجال العصابات أرهب الشعب . كانوا كلاب صيد للقيصر وبقية شعبه كانوا الطرائد ، ولذلك كان بعضهم يضع في بعض المناسبات على راسه قناعا يمثل راس كلب . ومن الصعب علينا ان نصدق بعض المؤرخين الذين يؤكدون بأن هؤلاء الحرس الستة آلاف كانوا كلهم يخرجون عادة براس الكلب هذا ويحملون مقارع في قرابيس سروجهم .

وبعد أن أنشأ إيفان هذه الآلة الرهيبة للتخريب انخرط من جديد في التوبة والصلاة . ولكن كان من علامات تقاه المميزة الا يصلح ابدا ما قام به من شر . فكان يترك الشر يستمر والضحية تحترق حية دون أن يقوم بحركة واحدة لابعاد اللهيب . وقد انتهت الآن حقبة الخطايا التي تلت موت اناستاسيا لتحل محلها حقبة من التعصب الحزين . لقد كانت تقوى إيفان في سنواته الأولى تحت تأثير سيلفستر اكثر لمانا بينما عقله الآن قد لفه ظلام من عمل الشيطان . فكان يتلوى تحت الم التوبة والصلوات وهو مجبر في الوقت نفسه على الاستمرار في اغضاب الله .

وكانت ريبته تزداد ايضاً . وتملكه في موسكو جنون من الارهاب لم يكن يستطيع للتخلص منه إلا ان يقوم بعمل عنيف . وخيل إليه انه سمع ناقوس موته في الكريملين . ثم بدد كل أمل في إزالة مخاوفه شهاب ساطع عبر السماء فتملكه قلق سوداوي لانه لم يكن ثمة شخص يؤمن بالنجوم اكثر منه . ولم يكن بيته الجديد في موسكوعلى الرغم من حصانته وحسن حراسته يكفي لاعطائه الشعور بالأمان ، فخلف كل جدار في العاصمة كان يتربص قاتل . هذا على الأقل ما كان يعتقده ومن العجيب ان احدا لم يفكر قط باغتياله ، ذلك لأن الروس كانوا قرويين بطبعهم وكانوا ابدا عاجزين بشكل يستدر الشفقة عن قتل أولئك الذين يكيلون لهم الاضطهاد والعذاب . لقد كان إيفان المحارب القاسي الشديد في أمان اكبر مما يتمتع به حاكم مثالي ، ذلك لأن الروس اعتادوا على أن يحكمهم طاغية ظالم .

من ملامح إيفان الطبيعية البارزة انه كان جريئا وفي الوقت نفسه ينتابه ذعر شديد . وبما انه كان جبانا فقد كان يسير على أطراف اصابعه متخفيا في ارجاء القصر . ولكنه ما ان يكون على رأس جيشه أو رأس الاوپريتشينا التي انشاها حتى يصبح قادرا على الهجوم وقتل الآلاف من الأعداء . وتظهر التدابير التي اتخذها في مجال السياسة وخلقه للأوبريتشنيا أنه كان يتمتع بعقل جريء . اما ماذا كان يشغل فكره في الكسندروف عندما انتزع شعره ولحيته في جماع كفه فلا أحد يدري . ويمكننا أن نتمثله ميدانا لمعركة بين الخير والشر على ان يكون الشر منتصرا والخير مسحوقا حتى العظام . وفي موسكو لم يشأ أن ينام الى جانب رفات اجداده المحترمين لأن نفسه كانت قد أصبحت دنسة فأقام بيته في وسط المدينة دون ان يجد الراحة هناك ايضا ، وهكذا كان لا بد له من الرجوع الى ميدان المعركة في الكسندروف حيث كانت نفسه قد ضاعت عساه ان يجدها هناك .

وكان قد وضع في كنيسة أم الله في الكسندروف صليبا فوق كل قرميدة فيها وزين الهياكل بالذهب والأحجار الكريمة وحفر حول بيته

حفرة لا يتمكن الشيطان من اجتيازها واطلق على هذا البيت اسم الحرية بينما اطلق على المركز العسكري خارج المدينة اسم العبودية . وكانت بعض الشوارع بكاملهـا مخصصة لحرسه الشخصي حيث بنيت فيها بيوت حجرية . وشيدت كنائس جديـدة ومذخرات لوضـع بقايا أجسـاد القديسين والذخائر الدينية . وكانت هذه المجموعة الصغيرة من الأبنية التي تحيطها الغابات الكثيفة ذات أبهة غير عادية وتعج بالرجال شـاكي السلاح ، فهي شبيهة بمدينة خارجة من حكايا الجن يكتشفها المسـافر بعد أن يضيع في غابة لا يعرف لها قرار . وكان يحكمها أمير أكثر غرابة مما أخترعته الأساطير . وفي لحظة من لحظات التعصب قرر القيصر أن يجعل من قصره ديراً ومن أفراد الأوپريتشينا رهباناً فيه على أن يكون هو رئيس هذا الدير العجيب . وكان يوجد ثلاثمائة من حرس الأوپريتشينا غدوا كلهم رهباناً يرتدون المسـوح السود فـوق أطواق من الفـراء وثياب من الذهب .

والقيصرة ؟ . . . هذا الوضع في أن يكون لرئيس الدير زوجة وأن يعيش في الخطيئة لم يكن داخلاً في عين الاعتبار . ومع ذلك فإن حياة الرهبنة هذه لم تكن متصنعة ، فالقيصر نفسه هو الذي أنشأ قواعد النظام الجديد وأعطى المثال على التمسك بها . ففي الساعة الرابعة من الصباح كان يذهب مصحوباً بولي عهده إيڤان وأخيـه الصغير ليقرع الناقوس من أجل أن يدعـو المتدينين الى صلاة الفجر وويل للمتباطىء أو المتخلف ! . وتستمر الخدمة الدينية حتى الساعة السادسـة أو السابعة كان القيصر يسجد في خلالها معظم الوقت حتى ليصل به الورع الى إيذاء جبينه وخـروج الدم منه لشدة ما يفركه على حجارة الكنيسـة . وبين الثامنة والعاشرة كانوا يقيمون الصلوات الخاصة وبعد ذلك يجلس القوم الى طعام الإفطار . ولكن إيڤان لم يكن يشارك قط في هذا الطعام كما لو أنه كان يشعربأنه ارتكب من الخطايا أكثر من الآخرين فيبقى واقفاً مع إخوته الرهبان يقرأ بصوت عال بعضاً من مواعظ الدين . ثم يعطون للفقراء بقايا هذا الطعام ويجلس القيصر ليتناول إفطاره على انفراد . ويقال

إنه كان بعد الظهر من كل يوم يزور السجون ويأمر بتعذيب الموقوفين ليمتع نفسه فيما بقي من النهار .

وفي الساعة الثامنة يجتمع الناس كلهم لصلاة المساء . وفي العاشرة ينسحب إيڤان الى غرفته حيث كان ثلاثة من الرجال العميان مكلفين بأن يرووا له الحكايا والأساطير واحداً بعد الآخر حتى ينام . إلا أن النوم لم يكن يستمر طويلاً لأن عليه في منتصف الليل ان يعود الى الكنيسة من جديد ويبدأ اليوم بالصلوات .

وكان لا بد لقصة هذه الحياة الغريبة من أن تنتشر الى الخارج . وفكر سيجسموند أوغست أن يفيد من هذا الوضع . فقد كان إيڤان يستقبل السفراء الأجانب ولم يكن من الممكن إخفاء حالته التي لم تكن طبيعية قط ، فإلى أي مدى بلغ به الجنون ؟. كان الجواب على هذا السؤال صعباً بطبيعة الحال . وقد وجه سيجسموند بسؤاله للسفير الروسي في فارصوفيا : « ما هي الأوپريتشينا ؟ » . وأجاب هذا : « ليس من وجود لذلك » . ومع ذلك فإن ملك پولونيا كان مقتنعاً بعكس ذلك لأن اللاجئين الى پولونيا كانوا يصلون كل يوم هرباً من طغيان الأوپريتشينا ويضعون انفسهم تحت حمايته . وعندما علم بأن إيڤان يكاد يمضي كل وقته في الصلاة في الكسندروف ظن ان اللحظة قد أزفت ليقوم البويار المستاؤون بالاستيلاء على السلطة في موسكو . وهكذا بدأ عن طريق وسيط روسي اتصالاً تآمرياً مع نبلاء الزيمشينا الرئيسيين .

كانت الحكومة الفاعلة مشلولة في البلاد والأوپريتشينا وحدها هي من يصنع القانون . ولم يكن في الإمكان التظلم او كسب اي دعوى تقام ضدها . وكان البويار يعتدى عليهم وينسرقون في ممتلكاتهم الخاصة . فكانوا يفتقرون بينما كانت الأوپريتشينا تغتني . وامتلأت بيوت أفرادها الجديدة بمنهوبات البيوت الأخرى وكان من الصعب التذمر او التمرد . كان الرعب الذي يثيره القيصر وقدرته على الانتقام يشل كل عمل . وابتعدت التجارة عن موسكو وتذمر التجار ولكنهم لم يتجرؤوا على تقديم

اية عريضة . والعادة التي كان القيصر قد جرى عليها في استقبالهم اصبحت عادة باطلة ومهجورة . فكان اعضاء حرس القيصر الشخصي هم الذين يستولون دائماً على هذه العرائض ويجيبون عليها كما يحلو لهم ويشتهون ، وكان الجواب غالباً هـو القتـل والانتهاب . وسكتت الكنيسة ايضاً كما لو أن إرادة الله كانت هجر روسيا للخراب والشيطان .

ولا بد ان المتروبوليت أثناسيوس قد ندم ندامـة مرة على ضعفه وضعف اساقفته عندما قبلوا بالعفو عن كل ما يقوم به القيصر من أعمال . فقد كان بعيداً عن تقاليد الكنيسة ان تقوم بمثل هذا التصرف العبودي تجاه اي واحد من الملوك . فالكنيسة منذ عصور لا تنالها الذاكرة كانت قد استعملت سلطة الحرمان للحصول على الرعاية والحظوة وتجرأت على اتهام الفساة والخاطئين دون أن تهتم بما يمكن أن يفعلـه الأقويـاء . وبمعاملتها للقيصر كأنه إله غدت الكنيسة متمردة على الإنجيل الذي فصل بوضوح بين ما هو لقيصر وما هو لله . ولكن أثناسيوس كان ضعيفاً ، فهو لم يترك القيصر يعذب الرجال والنساء البريئين فحسب وإنما لم تكن له الشجاعة الادبية ايضاً على اتهام الدير الهزلي الذي أنشأه .

عندئذ دخلت الصفة غير المسؤولة لسلوك إيفان الديني مرحلة جديدة . فقد استقبل عدداً من المساجين الليفونيين الألمان وبدأ نوعاً من الغزل الفكري مع المذهب البروتستانتي . كان معجباً بالألمان وميالاً للتسامح معهم لأنهم يمتازون بثقافتهم ، فالنبلاء منهم يتحدثون جيداً والعامة حرفيون مهرة . وكان إيفان يظهر منذ أمد طويل ميلاً لاستخدام الألمان لتستفيد البلاد من معارفهم ومهارتهم . وقد تم التأكد من أن إيبرفلد كاد ينجح في هداية إيفان الى مبادىء مذهب أو غسبورغ حتى أن القيصر سمح للوثريين بأن يكون لهم كنائسهم في موسكو . وكان ذلك كثيراً بالنسبة للمتروبوليت أثناسيوس الذي سقط مريضاً في أيار مايو عام ١٥٦٦ وقرر الانسحاب إلى إحدى مقصورات الدير .

ومن المحتمل أن إيڤان سعى بذلك إلى تهيئة نفسه للزواج من الملكة البروتستانتية الكبيرة . فقد كان أرسل منذ بعض الوقت رسالة إلى الملكة إليزابيت مع التاجر جنكنسون يطلب من العاهلة الزواج لأنه مل من زوجته الشركسية ، والآن هو ينتظر الرد . وكان يستطيع بجرة قلم أن يجعل من روسيا بلداً بروتستنتياً وكان قادراً على ذلك .

وأجرى جنكنسون حديثاً خاصاً طويلاً مع الملكة إليزابيت ، أما ما قاله وماقالته فليس مسجلاً في التاريخ . والرحالة الإنكليزي الذي كان على اطلاع واسع في الأمور التجارية بدا لسوء الحظ رسولاً حذراً جداً ومتروياً . واتضح من مراسلاته ومراسلات مرافقيه في السفر أن انكلترا كانت مهتمة بالتجارة مع روسيا وبالتجارة فحسب . ولم يكن اكتشاف روسيا وبخارى وأسواق الشرق ينطوي على أي عنصر من الفخار ، فالغاية كانت كسب المال لا القيام بالكشوف ، والتجارة تساوي أكثر من الحياة وأكثر من الشرف أيضاً . لقد كانت الملكة إليزابيت على رأس أمة تاجرة حتى ليمكن القول إنها كانت امرأة أعمال مميزة وهذا ما أعطاها شعبيتها . ولم تكن الملكة تعيش عالة على بلدها وإنما كانت على العكس من ذلك تساعده على أن يصبح أكثر رخاء وثروة . وفيما يخص روسيا وضعت الملكة في أول مخططها وبصورة مطلقة مصالح الشركة الروسية . كان بإمكانها أن تسمي القيصر أخاها وأن تشرفه بكل ألقابه ويحمر وجهها أيضاً من البهجة لطلبة الزواج منها ، وهو أجدر بأن يكون منطرياً ملاطفاً من أن يكون عاهلاً كبيراً من الشرق يشبه المغول ، ولكن الأهمية الجدية كانت للتجارة . وكان جنكنسون قد حصل على امتيازات واسعة جداً للتجار الإنكليز في روسيا مما أثار غيرة زملائهم في الدول الأخرى مما أحرزته الشركة الروسية . ولو أن إليزابيت رفضت عرض إيڤان بصراحة لخاطرت عندئذ بكل شيء . وقد كان لها مسوغ للغضب ، ذلك لأن زوجة إيڤان كانت لاتزال على قيد الحياة والعرض لايختلف عما لو كان القيصر يدعوها للدخول في حريمه . ولكنها بدلاً من ذلك أخذت تغازله وتسعى لكسب الوقت . لم تكن

تنوي الزواج من أي إنسان فهي تستطيع إذن أن تغازل على راحتها . وكان يمكن إطالة النقاش في شروط الزواج والحصول خلال ذلك على امتيازات أخرى للتجارة والتجار .

ووصل جنكنسون في آب « اغسطس » أو إيلول « سبتمبر » من عام ١٥٦٦ ومكث في روسيا زمناً طويلاً لأنه كان يتمتع بتقدير عال وربما شهد بعض الأعمال التي قامت بها الأوپريتشينا وتم استقباله في الكسندروف أيضاً . ولكن مارآه أو ماتحدث به مع القيصر لم يتم تسجيله . مانعرفه هو النتيجة الحسية لمحادثاته حيث نال الشركة الروسية امتياز احتكار تجاري في كل أراضي روسيا الشمالية . أما بضائع الأمم الأخرى فإنها ستكون عرضة للمصادرة وتوقف أيضاً مراكبها وحمولاتها إذا وجدت في الشمال . « صادروا لمصلحتنا ، نحن الإمبراطور والدوق الكبير » . وسيدخل التجار الإنكليز بحرية الى دوربات ونارفا والأماكن الأخرى التي احتلتها روسيا منذ عهد قريب . والخلاصة أن إيفان منح الإنكليز معاهدة تجارية مجزية جداً ، وماطلبه في مقابلها لم يكتب عنه شيء . ونحن لانملك الرسالة السرية التي كان قد حملها جنكنسون ولا جواب الملكة عليها . ومن السهل أن نقبل بان إليزابيت طرحت على القيصر بعض الأسئلة التي كان من العسير الإجابة عليها وطلبت اشياء اخرى غير الامتيازات التجارية . على أن الوقت كان في مصلحة انتوني جنكنسون ومصلحة الملكة إليزابيت والتجارة الانكليزية ، ومع ذلك فإن جنكنسون كان لا بد له من العودة إلى جلالة الملكة في النهاية واعداً بأن ينال منها جواباً شافياً على عرض القيصر وانه سيعود عما قريب .



الفصل الثالث والعشرون

المتروبوليت فيليب

كانت الكنيسة على وشك أن تنتخب هرمان مطران قازان ليحتل كرسي المتروپوليت اثناسيوس ولكن القيصر تدخل في الأمر ووجب على هرمان أن يعود الى قازان بينما وجهت دعوة الى فيليب رئيس دير سولوفتسك على البحر الأبيض الذي كان اكثر النساك تقشفا وزهدا في روسيا ، وهذا الدير هو الذي كان قد نفي اليه سيلفستر في اقاصي المناطق الباردة في الشمال واستقبل فيه كما يستقبل قديس لا كما يستقبل رجل مغضوب عليه . وقد قص على رئيس الدير كل ما جرى له عندما كان المستشار الروحي للقيصر . فكم كانت هذه الدعوة لرئيس الدير فيليب غير منتظرة !. كان ذلك بمثابة إشارة عفو . لقد أرسل القيصر في طلب رئيس دير سيلفستر ! ، أليس ذلك إشارة الى انه يجد فيه الخليفة الروحي البديل ؟.

كان فيلب ذا ارومة نبيلة ، وقد تمرد في صباه على المباهاة والتفاخر في حياة البويار . وبدلا من أن يقيم في البلاط فضل تأمين سلام النفس بأن يعيش في القفر . ولم يمض كماله الأخلاقي وميله الى التضحية دون أن يلحظها القيصر الذي كان يتصل به ويرسل له الهدايا لهياكله والمواد اللازمة لما يبغي إشادته من أبنية ويعرف أنه في محيطه الصغير كان خير اداري يجمع بين القداسة والحس السليم ، وكان ذلك من اندر الامور . وكان بامكان الملائكة أن تقدر له صلواته ولكنه تمكن الى جانب ذلك من صرف المياه في مستنقعات التوندرا واقام نظاما لتربية حيوانات الرنة في

تلك الأصقاع واستصلح الغابة وفتح فيها الطرقات وأقام منشأة لاستخراج الملح وخلق أسطولا للصيد . كما أنه أصلح أبنية الدير وجعل في أحسن حالة « فتيلة قنديل الاله » التي أصبحت تضيء الآن أصقاع اقاصي الشمال .

ويمكننا أن نقبل قصة كوربسكي التي تقول إن القيصر رفض انتخاب هرمان لان هذا انذره بوجوب التوبة من جديد وتساءل كيف يمكن للقيصر ان يظهر أمام العلي الأعلى ليسوغ سلوكه كقيصر ولي على العباد. كان هرمان مطرانا فاضلا ولكنه كان يقطن في ابرشية قازان الفاخرة فلن يكون أبدا الشاهد اللامع كما كان الأمر مع فيليب . ولم يكن إيفان ملكا عاقلا ولكنه لم يتخل عن هرمان لمصلحة فيلب على أمل أن يجد فيه شخصا اكثر لينا أمام طغيانه وإنما دعا اليه طواعية رجلا يتمتع بقوة معنوية عالية ليكون نداً روحياً له وشريكاً ومساوياً في إدارة الكنيسة والدولة على السواء .

وبينما كان فيليب يتجه الى الجنوب لحق به في اطراف مدينة نوفغورود مفوضون عن سكانها يرجونه ان يشفع لهم ويحول عنهم غضب القيصر الذي كان يهددهم في ذلك الحين . وكانوا يخشون منذ ثلاث سنوات قبل هذه الحادثة قسوة العقاب الذي سينزله القيصر بنوفغورود .

أما فيليب الذي كان قد هجر الدنيا فها هو ذا يعود إليها الآن . وبينما كان يقترب من موسكو كانت تذمرات روسيا التي طاش صوابها تتزايد دون انقطاع في أذنيه . وفي تواضعه انتابه شعور بأن العبء سيكون ثقيلا عليه وانه لا يملك لا القوة الكافية ولا الحكمة الكافية ليكون ممثلا لسلطة الكنيسة الأساسية على هذا الشعب المضطرب المتألم الخاطىء . وفي اول حديث له مع القيصر أعلن عدم رضاه عما كان يجري ورفض أن تتحمل الكنيسة مسؤولية خطايا البلاط . وهو لا يريد أن يحتل منصب المتروبوليت لأنه تابع صغير جدا تجاه المهمة التي يريد القيصر أن يلقيها

على عاتقه . وهو لا يستطيع أن يعاقب هذه الأوبريتشينا بلوى روسيا وشجنها المقيم . اما القيصر فقد غضب الجانب السيء منه ، اما الجانب النادم التائب فقد لاحظ أنه يجد له عضدا وسندا ، وبدلا من ان يطرد فيليب فان إيڤان أصبح اكثر اقتناعا مما مضى بانه وجد الرجل الذي كان يبحث عنه .

لم يكن بامكان القيصر ان يأمره بامتلاء كرسي المتروپوليت . كان بامكانه أن يقنع الاساقفة الخاضعين بأن ينتخبوه ولكن لم تكن لديه القدرة على ارغامه إذا اصر رجل الله على الرفض . ففي اية ظروف تمكن إيڤان من أن يقنع فيليب ؟. لا ندري !. على ان ذلك لم يكن الا لخير روسيا وسلامة الشعب . وقد حاول رئيس الدين أن يملي شروطه مقدما فرغب في ان تحل الأوپريتشينا وأن يلغى التوزيع الجديد للمتلكات وتعود المواريث الى اصحابها الاصليين . ورفض إيڤان ومع ذلك غدا فيليب على كرسي المتروپوليت وتعهد بألا يتخلى عنه بدافع من اعتراض على تصرفات القيصر في شؤون الدولة . ومع ذلك فان من المستغرب أن يختار إيڤان خصما للأوبريتشينا بمثل هذا التصميم ليكون رئيسا للكنيسة . وقد جرى حفل التكريس في الحادي عشر من آب أغسطس بحضور القيصر وولديه والأمير فلاديمير اندرييفتش والمطارنة والأساقفة .

وفي خطاب العرش طلب فيليب من القيصر أن يعود أبا لشعبه وأن يدير ظهره للمتملقين الذين يتدافعون حوله وأن يراعي العدالة في إدارة رعاياه . وقال له أن انتصارات المحبة اكثر فخارا من انتصارات الحروب، وقد أصغى إليه إيڤان بانتباه عميق كما لو أنه كان مصمماً على بدء حياة جديدة وغدا خلال بضعة الأشهر التي تلت رجلاً مختلفاً كل الاختلاف. كان يحب المتروپوليت الجديد ويكن له مودة عميقة فلجم ما كان يقوم به انصاره من طغيان .

أما فيليب الذي باركه الشعب فكان يعيش أياما سعيدة وبنى في موسكو كنائس جديدة وضعها تحت حماية القديسين سيدي دير

سولوفتسك : القديس زوسيما والقديس ساباتي . إلا أن فترة الهدوء انتهت بصورة مأساوية على إثر مؤامرة سيجسموند أوغست مع الزيمشينا وتحركاتها . وقام شعور بأن روسيا انقسمت على نفسها وأن عدد النبلاء المستائين كان قد ازداد لدرجة القدرة على إثارة حرب اهلية. فاذا امكن إثارة الزيمشينا الدين كانوا حتى الآن سلبيين فانهم سيدمرون الاوبريتشينا ويطردون إيفان عن العرش . وكان مبعوثو ملك بولونيا لا يكفون منذ بعض الوقت عن السفر بين بولونيا وموسكو فليس من المدهش أن يتم توقيف احدهم ، وكان ذلك فرصة رائعة للمقربين من القيصر كي يبدؤوا عهدا جديدا من الارهاب وينعشوا ما في نفس القيصر من قوى الشك .

كان بعض النبلاء بدون شك متقبلين لعروض سيجسموند . وقد لعب دور الوسيط الرئيسي في هذه المؤامرة روسي مقيم في ليتوانيا اسمه كوزلوف كان يحمل الرسائل الى موتسيلافسكي وبيلسكي وميشيل فوروتنسكي الذي تم العفو عنه منذ عهد قريب وإلى آخرين . ولكن هذه الرسائل إما انها احتجزت أو سلمت شخصياً لإيفان من الأمراء الخائفين، وقد تسلى القيصر في بادىء الأمر بكتابة الردود باسم هؤلاء البويار : « فليعطهم الملك سيجسموند كل ليتوانيا، كل روسيا البيضاء ، غاليسيا، پودواسك وممتلكاته في بروسيا ، وعندئذ يثيرون حربا اهلية » . وتلقى الأمير الشيخ فيدبروف حامل سلاح القيصر امرا بأن يرد كما يلي : « كيف تستطيع الافتراض بأنني أقبل ــ وقدمي على حافة القبر ــ بأن أعرض نفسي التي لا تموت لمثل هذه الخيانة المقيتة ؟ » .

لقد شغل إيفان نفسه بهذه المؤامرة في بادىء الأمر وهو في مزاجه الحسن ، وكان في ردوده المزعومة قبس من المزاح وشيء من الايحاء والكياسة والعظمة . ولكن ردود فعله المرضية ما لبثت ان الفت ذكاءه المتوقد فعاد الى الحذر حتى راوده الشك في إخلاص المتروپوليت الجديد. وعندما كان يتلفت حوله كان يعتقد ان كل انسان إنما يتآمر على سلطته. وقد بدأ هذا التغير في عقليته بمزاح انتهى باغتيال الأمير فيديروف .

كان يقول لنفسه : « وبعد كل شيء كان لا بد من الاستسلام لسيجسموند » . وقد أجبر فيديروف أمام كل البلاط ان يرتدي عباءته وتاجه ثم انحنى أمامه وحياه بلقب قيصر روسيا وتمنى له حياة طويلة . واعتقد البويار أن الأمر على سبيل المزاح فاخذوا يضحكون لأن إيفان كان يحب كثيرا أن يقوم بادوار هزلية واوضاع مسرحية . ولكنه عندما نقل التاج الى شخص آخر خطرت له فكرة كانت مخبأة في ثنايا عقله . ما كان سيفعله لم يكن مؤكداً لانه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك . قد يستطيع اجبار فيديروف على المحافظة على الامبراطورية لبضعة أشهر كما فعل بعد ذلك مع الأمير سيميون ، ولكن كلا ، لقد فضل قتله . قال له : « كما أن لي القدرة على جعلك قيصراً فإنني أملك هذه القدرة بدون شك على قتلك » . ثم رفع خنجره وغرزه في قلبه فسقط فيديروف وتدحرج الى خارج السرداق . اما جثته فقد قطعت الى قطع في باحة القصر ، واما امرأته وكانت امرأة قديسة ليس لهاأولاد وقد نذرت نفسها للمسيح — فقتلت هي الاخرى . وقد تسببت هذه الجريمة الثانية بفرح غامر ملأ قلب القيصر أكثر من الجريمة السابقة .

والآن فإن الاوپريتشنينا التي أهملها إيڤان بضعة اشهر بتأثير من فيليب عادت الى سيطرتهاوتمكن ثلاثة من كبار القواد هم موتيسلافسكي وبيبيلسكي وميشيل فوروتنسكي من الفرار والتخلص من الانتقام . اما الآخرون فان أوامر صدرت بأن يقتل منهم كل من كان مشاركاً في مؤامرة الملك سيجسموند . وكان آل روستوفسكي على وشك أن يهربوا فيما مضى الى ليتوانيا فأمكن الافتراض بانهم ربما حاولوا الفرار من جديد . ولم يكن العفو الذي نالوه في عام ١٥٥٤ بشفاعة من الكسي ارداتشيف وماكاري قد منحه إيڤان عن طيب خاطر فهو لا يفتأ يأسف عليه ويفكر فيه . وهكذا أرسل بثلاثين رجلا الى نيجني نوفغورود حيث كان احد افراد روستوفسكي يقود احد الجيوش فقطعوا رأسه وحملوه معهم حيث رموه تحت اقدام القيصر الذي ارسلهيتدحرج بركلة من قدمه . وبحسب الرواية التي يرويها كوربسكي فإن بطرس تشيشيناتوف أحرق ببطء

فوق صفيحة شواء في حجرة من احد الأديرة . واغرق إيڤان پرونسكي . وقطع تيوتين خازن الدولة مع امرأته وعائلته الى قطع على يد أخي القيصر وعصابة من الاوغاد . وقتل رجال آخرون لامعون مع نسائهم وأولادهم ونهبت الاوبريتشينا منازلهم وقراهم ودمرت حظائرهم وأسماكهم في الانهار والبحيرات وبلغ بها الامر ان قتلت كلابهم وقططهم ايضا . وقتل عدد كبير من ابناء الشعب حتى انهم لم يكونوا يوفرون الأطفال في المهد . ويقال إن رجلين ممن ارسلوهم لقتل إحدى العائلات انفطر قلباهما وهما ينظران الى طفل صغير يبتسم لهما في المهد فحملاه إلى إيڤان الذي قام بطبع قبلة على وجنته ثم رمى به من النافذة آمراً أن يسلموه للدببة . اما الجلادان اللذان تركا نفسيهما عرضة للإشفاق على الطفل فقد قتلا بحد السيف .

وجثم الرعب على موسكو مرة اخرى وعلى كل روسيا . وكان رجال مقنعون يحملون السكاكين يجوبون الشوارع يسرقون ويقتلون . وكانت الجثة ترقد في الشوارع بدون دفن لأن احداً لم يكن يجرؤ على لمس ضحايا غضب القيصر خوفا من ان يناله المصير نفسه . وبصورة عامة كانت الضحايا تعرى من ثيابها كي لا تبتل بالدماء لان الثياب كانت جزءاً من الغنيمة ، وكانوا يعرون النساء بوجه خاص لأن الاغتصاب كان يسبق القتل .

هذه الأحداث الرهيبة دامت طوال الشتاء والربيع والصيف من عام ١٥٦٨ . وكان المتروپوليت يرد بالصلاة كلما تجدد العنف ولكنها لم تكن تكفي . وقد سمح له في بادىء الأمر بأن يناقش القيصر ، وبدا جريئاً عندما دان في وجهه خطاياه ولكن إيڤان تجنبه على الاثر . وفي احد الأيام دخل الى كاتدرائية الصعود عدد كبير من أفراد الاوبريتشينا وهم يرتدون الأردية السود وعلى رؤوسهم القلانس ومعهم القيصر يرتدي زي رئيس هذه المجموعة العجيبة . وكان بعضهم سكارى ومن المحتمل ان القيصر نفسه كان تحت تأثير الخمر . واستمرت الخدمة الإلهية كما لو أن شيئاً

لم يحدث . واقترب القيصر ثلاث مرات من المتروبوليت كما لو أنه يريد ان يتلقى منه المباركة ولكن فيليب لم يعره أي التفات . وعندئذ ارتفعت همهمة من بين أفراد الأوبريتشينا :

« أيها الأب المقدس !. إن القيصر إيڤان ڤاسيليڤتش يطلب منك مباركتك » . هكذا صاح واحد من بينهم .

واجاب المتروبوليت وهو يخفض بصره نحو القيصر ذي القلنسوة السوداء : « ماذا أنت فاعل بنفسك ؟. انت تفسد كل ما هو حسن فيك تحت قناع من القماش . منذ ان بدات الشمس تضيء في السموات لم يوجد ملك شريف واحد أساء لشعبه كما أسأت . أيها القيصر !. بينما نحن نحتفل بالضحية المقدس فوق المذبح تريق أنت دم الابرياء من المسيحيين في كنائس الله . حتى في البلاد الوثنية هنالك قانون وعدالة وتسامح بينما لا يوجد في روسيا شيء من كل ذلك . إن السلب والنهب والاغتصاب والجرائم ترتكب في كل مكان باسمك . ولكن مهما كنت رفيعاً فوق عرشك فإن هناك من هو ارفع منك : قاضينا وقاضيك !. كيف تأمل في القدرة على المثول امام محكمته وسط عاصفة من عويل الضحايا وانت ملطخ بدم الابرياء ؟. وبما انني راعي النفوس فإنني أحذرك : لا تخش إلا الله وحده ! » .

ونال الغضب من إيڤان فضرب بلاط الكاتدرائية بعصاه ذات الرأس الحديدي وصاح بصوت غريب : « أيها الراهب ، فليكن الأمر كما قلت . لقد جنبتكم العقاب حتى الآن أيها المتمردون اكثر مما كان يجب ، أما بدءاً من الآن فإنني سأعمل تبعاً للدور الذي أسندته إلي ! » . وخرج من الكاتدرائية بعد هذا التهديد .

في ذلك اليوم نفسه تم توقيف عدد كبير من رجال الدين ووضعوا تحت التعذيب . كما أوقف وقتل عدد من البويار المنتمين الى الزيمشينا ومن بينهم الأمير ڤاسيلي برونسكي . كان القيصر قد وعد بطغيان اكبر ،

ومع ذلك فإن من الصعب القول بأنه حدث طالما أنه لم يضع يده على المتروپوليت وإن كان لا بد أن يحدث ذلك عما قريب . ثم قامت ضجة اخرى في الكنيسة بعد ذلك بقليل . فقد أراد المتروپوليت أن يعترض على الزي الذي كان يرتديه أحد أفراد الأوبريتشينا فأثار هذا الحدث التافه حفيظة القيصر حتى أتهم الحبر بالنفاق والخبث والغواية . كان من الصعب عليه أن يهاجم فيليب الذي كانت الجماهير تقدره في ذلك الوقت كقديس حي . وكانت هـذه السمعة مع سلطة الكنيسة قوتين كبيرتين جـداً بحيث تمنعان ارتكاب جريمة علنية . لذلك أخذ إيفـان بمساعدة من المقربين إليه يجمع عناصر اتهام تضع نهاية لهذه السمعة الطيبـة . فأرسل مفوضون الى سولوفتسك ليجمعوا كل الإشاعات الممكنة . ولكن معظم الرهبان وقفوا سنداً ثابتاً لفيليب الذي اعتبروه نموذجاً للتقى والورع . إلا پيزي رئيس الدير الذي لم يخشَ من أن يشهد زوراً وبهتاناً على أمل الحصول على الرفعة والارتقاء .

وتم اختراع الكثير من المطاعن لإعداد تهمة للمتروپوليت الذي ما لبث أن مثل امام محكمة في موسكو كان فيها رئيس الدير هو المتّهم الرئيسي. ودافع فيليب عن نفسه بثبات كبير قائلا : إنه يفضل أن يموت شهيداً على أن يستمر في رؤية جرائم القيصر دون أن يعارضها . واجاب القيصر: « أنت من سيحاكَم ولستَ القاضي » ، ولكنـه لم يأمر بتوقيفه فوراً ولا طرده من منصبه . واستمر فيليب على الاحتفال بقدّاساته وهـو ينتظر كل يوم وكل ساعة أن يتلقى الضربة التي كانت تُعَد له .

وفي الثامن من أيار مايو في عيد رئيس الملائكة القديس ميكال هجم باسمانوف وآخرون على كاتدرائية الصعود وانقضوا على المتروپوليت في الهيكل وهو في ثيابه الكهنوتية واندفعت نحوه ثلة من الأوپريتشينا وفي أيديهم العصي فمزقوا ثيابه وألبسوه رداء أبيض ربما لم يكن أكثر من غطاء ورموه في زنزانة في دير البشارة . وخيم على الكاتدرائية صمت مرعب ، ثم ما لبث الشعب أن بدأ بالصراخ والنحيب وهو يتبع بجحافله

الزحافة الخشنة التي وضع فوقها فيليب ، وبقي الجمهور أمام الدير في انتظار معجزة .

في اليوم التالي ألصقت بالمتروبوليت جريمة السحر وحكم عليه بالسجن المؤبد . وعند ذلك عفا عن أعدائه وانذر إيڤان مرة اخرى بان يتوب وأن يتذكر تقاليد أجداده ولكن ذلك لم يؤد الى اية نتيجة في نفس إيڤان . ووضع فيليب في زنزانة مكبلاً بالاغلال . ولكن الشعب كان يتجمهر أمام سجنه أينما أرسلوه لكي يكون على مقربة من « قديس حي » ضحى بحياته من أجل إيمانه . وعند ذلك كان لا بد من إبعاده . وكان إيڤان يعرف أنه رجل قديس وربما كان من المحتمل ان يستدعيه الى موسكو مرة اخرى ، ولكنه أرسل إليه احد المقربين إليه وهو سكوراتوف ليحصل على المباركة من العجوز ، وكان يومئذ سجيناً في تڤير بينما كان القيصر قد توجه ليمارس انتقامه الرهيب في نوفغورود . اما فيليب فقد رفض منح بركته وقال : « إنني ابارك المشروع الصالح الذي يهدف الى فعل الخير » . عند ذلك قفز سكوراتوف عليه وخنقه فمات واحد من اعظم رعاة الكنيسة الأرثوذكسية وخلفه سيريل أرشمندريت دير ترويتسكي في منصب المتروبوليت .



الفصل الرابع والعشرون

موت القيصرة الثانية

كان القيصر ينتظر عودة التاجر الإنكليزي مع جواب الملكة اليزابت ولكن يبدو أن رجاءه قد خاب بعض الشيء عندما رأى وصول توماس راندولف بدلا من جنكنسون المبعوث السابق . وكان إيفان تحت سيطرة مزاج أسود على أثر إقالة المتروبوليت فلم يبد اهتماماً بالسفير الانكليزي الجديد . وهكذا لم يلق راندولف استقبالاً حاراً وتوجب عليه أن ينتظر اربعة اشهر في موسكو قبل أن يبدي القيصر رغبته بمقابلته . ورغم وصوله في نهاية إيلول سبتمبر من عام ١٥٥٨ فإنه لم يمثل امام القيصر إلا في العشرين من شباط فبرآير عام ١٥٥٩ . وقد عاش راندولف طول هذه المدة كسجين في البيت الذي خصص له ، فالحراس كانوا يراقبونه لكي لا يخرج منه ولا يأتي أحد إليه ليراه . وكانوا يجلبون إليه الطعام في كل يوم دون أن يحملوا إليه اية مكاتبات أو رسائل ، وقد رفضت كل طلباته والتماساته في إطلاق سراحه .

ولم يكن راندولف قد حمل معه اي رد واضح من الملكة إليزابت على عرض القيصر بالزواج منها بل اتى بكل بساطة يسعى وراء امتيازات تجارية أكثر سعة من قبل . ولو أنه أتى برفض أُحسنت صياغته فربما استقبل بكرامة وتشريف ، اما أن يجيب على طلب زواج بالمطالبة بتسهيلات تجارية أوسع فذلك كان إهانة بينة .

واخيراً استدعي راندولف في إحـــدى الأمسيات الى قصر جبـــل العصافير الذي يقع خارج موسكو وبقي ثلاث ساعات في محادثة مـــع إيفان . وعما دار في هذا الحديث بقي السيد توماس راندولف متكتماً لسوء الحظ .

يمكننا فقط أن نفترض انه أعطى لإيفان انطباعاً خاطئاً وهو يظن أن من الأفضل له كسب وده والحصول على امتيازات تجارية من أن يعرض للخطر كل شيء بإفصاحه له عن الحقيقة الفظة . ومع ذلك كان يوجد دائماً سبب وجيه لرفض إليزابت الزواج من إيفان وهو أنه كان متزوجاً بالفعل . وكان يمكن التلاعب بملك بكل يسر وتسليته بمعسول الكلام عندما يعرض التخلص من زوجته ليتخذ بدلاً عنها زوجة أخرى . على كل حال كان إيفان مسروراً مما قاله له راندولف ، فربما أصبح الوضـــع أكثر وضوحاً بالنسبة لإليزابت إذا ماتت القيصرة ، وبخاصة إذا كان موتها طبيعيـــاً .

وبما أنه كان خفيف العقل فيما يتعلق بشؤون البذخ وبأمـــوره الشخصية فان ايفان أعار اذنا صاغية لطلبات الامتيازات الموســـعة . وهكذا وقع معاهدة جديدة ضمن بموجبها سلامة الطرق البرية حتى الاراضي الفارسية وبخارى ومنح الاذن ببناء مستودعات أخرى وأطلق سراح بعض المسجونين من الانكليز ونظم التجارة مع ليفونيا . وفي الفاتح من سبتمر من العام نفسه ماتت القيصرة بالسم على ما يقال .

فإذا كانت القيصرة قد سممت فإن الأكثر احتمالاً أن يكون القيصر نفسه هو المسؤول عن تسميمها . ولم تكن القيصرة تلعب في السياســة أي دور وغدا القيصر غير مهتم بمفاتنها منذ زمن طويل ولذلك كان الحداد الذي أعلن عليها نوعا من السخرية . واعلن القيصر بنفسه أن القيصرة ماتت بالسم ولم يعارض في ذلك أحد ، بقي أن يعرف من الذي كـــان موضع الاتهام .

حدثت الوفاة في موسكو . ولكن القيصر ما لبث بعد الجنازة أن سافر الى الكسندروف وهو في مزاج شيطاني ، وما كاد يصل الى هناك حتى صمم على أن ينتهي من ابن عمه بطرس فلاديمير أندرييفتش وعائلته . وكان خلال سنوات طويلة يغذي في نفسه هذا الانتقام ، وكان من المدهش أن يبقى ابن عمه على قيد الحياة هذا الزمن الطويل . وهو لم يتهم بتسميم القيصرة بل اتهم بتقديم السم لأحد طباخي القصر واغوائه بأن يضع هذا السم في طعام القيصر . ودعي الأمير فلاديمير وزوجته إلى الكسندروف وتلقى كل منهما – بحسب ما يذكره أحد التقارير – قدحا من السم أجبر على اجتراعه أمام القيصر .

ويرى اخرون انه قطع راسيهما أو أطلق عليهما النار أو أغرقهما . والواقع أنه لم يرد شيء في الحوليات الروسية عن هذه الجريمة ولكن الذين تحدثوا عنها كانوا من الاجانب الذين زاروا روسيا . ومهما كانت الطريقة التي هلكا بها فإنهما اختفيا مع ابنيهما من صفحات التاريخ في الخريف من عام ١٥٦٩ . ويقال إن الشعب الروسي لم يخش من اظهار ألمه على وفاة الأمير فلاديمير ومن لبس الحداد عليه . وقد أعلن القيصر بكل هدوء عن مؤامرة كانت تحاك على حياته وانه نوى أن يكون عديم الرحمة تجاه اولئك الذين شاركوا فيها .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

الانتقــام من نوفغورود

ان المبالغة في جنون العظمة هي التي دفعت القيصر لارتكاب جرائم اكبر . كان يشغله موضوع ولاء السكان في نوفغورود وبسكوف فوضع يده خلال الربيع على رهائن ضمانا له على حسن سلوك هاتين المدينتين وهكذا اقتيدت خمسمائة عائلة من بسكوف الى موسكو ومائة وخمسين عائلة اخرى من نوفغورود . ولم يكن ثمة نفور حقيقي ، ولكن سكان هاتين المدينتين كانوا يحافظون على تقاليد استقلالهم . وكانت نوفغورود هي الاكبر والاكثر فخارا بين المدينتين . اما بسكوف فكانت آخر واحدة بين الدوقيات المستقلة ضمت الى موسكوفيا . وكانت العائلات القديمة في نوفغورود لا تزال تذكر أن مدينتهم كانت تشكل دولة مستقلة وتستطيع عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية . كان اسمها نوفغورود فيليكي أي نوفغورود العظمى ، وكان للمدينة تاريخها واسطورتها وتنظر الى موسكوعلى انها مدينة حديثة نعمةكما ستنظر موسكو الىبطرسبورغ فيما بعد ، ولم يكن ثمة تمرد في هذه التحفظات من الكبرياء المحلية .

وكان لكلا المدينتين تظلمات ومطاعن وبخاصة بعد إنشاء الأوپريتشنينا وإن لم تكونا اقل خضوعا لارادة القيصر من بقية المدن الروسية . أمـا الضجة التي أثيرت حول طلبهما الحماية مـن سيجسموند اوغست فيمكن ان يقال إنهـا سخيفة لأن سيجسموند كان قد بدا أمام انظار الجميع عاجزا عن حماية المدن الاجنبية وتشهد على ذلك الحاميات الروسية الموجودة في مدن ليفونيا . وأكثر من ذلك سخفا ما قيل عن

مؤامرة حاكمها مطران نوفغورود لضم المدينة الى ليتوانيا مما يجعل الارثوذكسية تدخل طواعية في خليط من البروتستانتية والكاثوليكية الرومانية . ولكن وجد من الاشخاص من انتحل وثائق لها علاقة بهذه المؤامرة المزعومة .

وقد تسبب نقل هذه العائلات الى موسكو بدون شك في استياء عميق بقي كامنا خلال الصيف والخريف من عام ١٥٦٩ . وكان الحزن قائما في نوفغورود وبسكوف على خسارة الاقرباء الذين كانوا يذوون في المنفى وقد اودع قسم هام منهم في السجن أو اقتيد الى غرفة التعذيب وكانت ممارسة التعذيب على اشخاص من الطبقة البرجوازية تمثل لعبة وليس هوساً من القيصر فحسب . فهي عادة النبلاء وتسلية ساحة لأولادهم . وكان من المعروف أن المحظيين الثلاثة باسمانوف وسكوراتوف وفيازمسكي يتمتعون بفظاظة وشراسة كبيرتين ، بينما الإبن البكر للقيصر ذو الخمسة عشر عاماً من العمر والذي يسمى إيفان أيضاً كان يشارك أباه في القسوة والعنف . وتاريخ المجتمع عن ذلك العصر غير كامل لأنهم لم يكونوا يعتبرون شراً ما يوجه الى الطبقات الدنيا من إساءات . فأن ترمى الى دب غاضب ضحية بشرية لم يكن سوى الفرجة والجريمة المرتكبة في حق الضحية لم تكن سوى مسألة قليلة الاعتبار . وكان استثناءً أن يمارس أي مالك للسلطة سلطته من غير طغيان . لقد برزت بربرية إيفان الرهيب واضحة في التاريخ ولكن كان يشجعها أيضاً ما كان يرتكبه رعاياه حتى ليمكننا القول إن القيصر عندما كان يرتكب قسوة ما فإن كل الذين كانوا يمتلكون جزءاً من السلطة حتى مستوى « صف الضباط » كانوا يقلدونه في أعماله . هذا الجو من الإرهاب الذي كانت تعيش فيه روسيا كان خانقاً .

كان القيصر بحاجة الى حجة يعتمد عليها لعقاب سكان نوفغورود . وقد نجح في إلباسهم تهمة الخيانة بفضل تاجر متجول حمل الى موسكو قصة عن مؤامرة . فاستغل بعض المقربين من القيصر ما قدمه هذا الرجل من معلومات بسبب ما يكنه لهذه المدينة من ضغائن صغيرة . والقصة

التي تم الاعتماد عليها هي أن مطران المدينة والنبلاء من مواطنيها كانوا قد كتبوا رسالة جماعية الى سيجسموند أوغست يعرضون عليه أن يخلصهم من التبعية للقيصر . ولم تكن هذه الرسالة قد أرسلت ولكنها وجدت حاليا وراء إيقونة السيدة العذراء في كنيسة القديسة صوفيا في نوفغورود . وما أن علم إيڤان بذلك حتى أرسل فوراً مندوباً اكتشف الرسالة المجرمة في المكان المعين . وتدل هذه الحادثة التي كان فيها توقيع الأسقف مقلداً احسن تقليد على انه كان وراءها رجل أكثر ذكاء من بطرس البائع المتجول . وانطلاقاً من هذه الرواية الوهمية وهذه الرسالة المزورة قرر إيڤان ان يعاقب نوفغورود . وكان يومئذ في ألكسندروف وقد تخلص من ابن عمه الأمير فلاديمير اندرييڤتش فقرر الآن ان يمارس جرائمه وآثامه على مسرح أوسع .

في كانون الأول ديسمبر من عام ١٥٦٩ سافر القيصر من ألكسندروف في حملة تأديبية يصحبه فريق قوي من الأوپريتشينا وولده إيڤان وقسم كبير من نبلائه . كان تواقاً الى الدم . وعلى الطريق الى نوفغورود قامت عصاباته بذبح سكان كلين دون أن يثيروا ضدهم ادعاءً — سواء كان صادقاً أو كاذباً — عن إرسال رسالة موجهة الى ملك بولونيا . وهكذا انتشرت في المدينة المنكوبة الحرائق والاغتصاب والقتل والنهب وغطت الجثث الشوارع وكان بينها جثث لأطفال ونساء وامتدت المذبحة من المدينة الى قراها المجاورة . وانتشر قتلة القيصر المأجورون في كل اتجاه يلوحون بسيوفهم المسلولة التي تقطر بالدم . وتجدد المشهد نفسه في تڤير Tver حيث كان سكوراتوف قد خنق المتروپوليت القديم فيليب .

وفي تڤير أخذ إيڤان وقته في تعذيب الله . فبينما كان يصلي في أحد الاديرة خلال خمسة أيام كان جلادوه يتنقلون من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع يقتلون الناس إرضاء لنزواتهم . وكان فيليب قد دفن وراء هيكل الكاتدرائية الكبير وهو يحمل تاج الشهداء .

وعلى طول الطريق من تفير الى نوفغورود كانت تتنافس وحشية القيصر ووحشية حرسه الخاص . فكل بلدة صغيرة اجتيحت بالسيف والنار ، والناس الذين قابلهم رجال القيصر في الحقول قتلوا على الفور لأن « الحملة ينبغي أن تكون سرية » فلا ينبغي أن يذيع أمرها أحد .

وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير ١٥٧٠ وصل القيصر والأوبريتشنينا الى تخوم نوفغورود . والواقع انهم كانوا يشكلون جيشاً كبيراً . وبدم شيطاني بارد وضع إيفان خططه لحرمان المدينة من سكانها. فاتخذت في بادىء الأمر احتياطات لكي لا يفر منها أحد وكان لا بد من أن تقام حولها أسيجة عالية . ثم اغلقت أبواب كل الكنائس بالمفاتيح لكي لا يقدم أحد على إيجاد ملجأ له في هياكلها . وكان على الرهبان أن يخلوا اديرتهم التي ختمت ابوابها لمنع الضحايا من الاختباء في زنزاناتها المظلمة أو يفروا منها عن طريق السراديب . وأقفلت بيوت كل تجار المدينة الأغنياء وموسريها وأجبر سكانها على أن يبقوا سجناء في داخلها . وأوقف كل الموظفين والأفراد العاديون من رجال الدين . وأسكتت كل اجراس الكنائس وغلف المدينة صمت مقلق قبل القيام بعملية التنفيذ .

وكانت خيمة القيصر منصوبة خارج أسيجة المدينة التي أمر القيصر بإقامتها . ومنذ تلك اللحظة تطلب إيفان من رجاله المسلحين إطاعة عمياء وحصل على ما يشاء . ولم يقم فوراً بإسلام المدينة الى الموت وحتى إعطائه الإشارة بذلك لم تقم فيها أية عملية قتل . كان له مخططه ، إذ كان عليه أن يدفع رواتب جيشه الذي قاده الى هذا المكان . وكانت تكاليف الحملة باهظة . وبما أن الكنيسة في شخص مطرانها كان من المفترض أن تتحمل جريرة هذه الخيانة الرهيبة فقد كان عليها أن تتحمل النفقات التي سببها العقاب . وكانت المدينة تضم آلاف الكهنة والرهبان فأصدر إيفان قراره بأن يدفع كل واحد منهم عشرين روبلاً ، فكيف يستطيع رهبان فقراء كانوا قد تخلوا عن الدنيا أن يجدوا مثل هذا المبلغ ليدفعوه لإيفان ؟. ولكن إيفان لم يكن يهمه شيء من ذلك !. فأولئك الذين لا يستطيعون الدفع كانت تنزع عنهم ثيابهم ويربطون الى أوتدة في

الشوارع والساحات العامة ويجلدون بالعصي حتى يقروا أين يخبئون ثرواتهم . والأمـر الذي صدر لهم كان هـذا نصه : اعطوا نقودكم أو تموتون . وعلى هذه الطريقة وجد المئات من رجال الدين نهايتهم القاسية وحملت جثثهم الى الاديرة لدفنها . لقد كان أيسر على إيفان أن يستولي على آنية الكنائس الذهبية وكنوزها بدلاً من أن يلجأ الى هذا السبيل ، ولكن ذلك كان معناه سرقة الله علناً وقد ادعى أن لديه وساوس في بادىء الأمر في ان يفعل ذلك . ولكن عندما بدا أن الضريبة التي فرضت على رجال الدين لم تكن مجزية لم ينتظر القيصر وقتاً طويلاً حتى يبدأ بنهب الكنائس مباشرة وبالذات .

في الثامن من كانون الثاني يناير دخل القيصر المدينة مصحوباً بولي العهد وبفرقة كبيرة من رجاله المسلحين ، وخرج المطران پيمين متبوعاً بكل الإكليروس تقريباً لاستقباله . وجرى مشهد ليس له مثيل فوق الجسر الكبير في وسط المدينة حيث رفض القيصر بركة المطران ، وبدلاً من ذلك أتهمه بالخيانة قائلاً له إن الصليب الذي يحمله ليس شعاراً للحياة وإنما هو اداة للقتل .

« إنني أعرف نواياك ونوايا رعيتك المتمردة » ، هكذا صرخ القيصر ، « لقد هيأتم انفسكم للجوء الى سيجسموند فرويد . انت لست راعياً بل ذئب مفترس وعـدو للكنيسة والتاج » . ثم أمر المطران واتباعـه بالدخول الى كنيسة القديسة صوفيا ، وبدا متناقضاً مع نفسه عندما تابع الخدمة الدينية بكل صبر وخشوع . وقد سجد كما هي العادة وصلى بحماسة كبيرة ثم صار الى قصر المطران واتخذ مكانه الى المائدة مع عدد كبير من المدعوين وبدأ العشاء وبدا ان كل شيء كان على ما يرام .

إلا أن دماغ القيصر كان يعمل بطريقة غريبة كما لو أن سحابات من الدخان كانت تستر صفاء ذهنه . وفجأة اتسعت عيناه ولمعتا فكف عن الطعام والتفت الى الأمراء والبويار واطلق صرخات غضب غير واضحة

الالفاظ . ورأى حرسه علامة في تلك الصرخات فانقضوا فوراً على المطران العجوز وانتزعوه وقادوه الى زنزانة وبدؤوا بنهب القصر وانتزعوا كل ما هو ذو قيمة فيه بينما كان القيصر يتابع الطعام .

وفي اليوم التالي افصح عن نواياه بشأن العقاب . كان ينبغي أن يتقاطر في كل يوم بضعة آلاف من السكان وأن يتعرضوا للتعذيب حتى الموت أمام ناظريه وناظري ابنه ولي العهد . على أن القسوة في هذا المجال كانت متنوعة ، فالأزواج والزوجات كان ينبغي أن يتم تعذيبهم بعضهم أمام بعض . وكانت الأمهات ترين أطفالهن ينزعون من احضانهن وتساء معاملتهم تحت انظارهن قبل أن يضربوا حتى الموت أو يحرقوا على نار هادئة . وقد قاموا بحفر ثقوب في جليد النهر والقوا فيها بعائلات كاملة . وكان إيفان يثقف بهذه الطريقة ابنه ووريثه الذي كان مع ذلك مرشحاً للاغتيال .

ويروى ان هذه التعذيبات والاعدامات التي كانت تجري بالجملة استمرت خمسة أسابيع ثم تبعها نهب لكل ما يملكه السكان . وأخيراً غادر القيصر المدينة ليقوم بقتل مزارعي المناطق المجاورة وتخريب بيوتهم وزرائبهم . ثم زار الأديرة ليستولي على كل ما امكنه الحصول عليه من ذهب فيها بينما قتل كل من فيها من الرهبان بحد السيف . واختفت من نفس القيصر كل الأوهام التي كانت تساوره بسبب ما يمكن أن يحدث نتيجة لنهب الكنائس ، ولم يبق في أماكن نوفغورود المقدسة ما يستحق الانتهاب . ومع ذلك فإن القيصر جمع في الثاني عشر من شباط فبراير كل من تبقى من السكان واخبرهم بانه عفا عنهم وطلب منهم أن يصلوا من أجله بعد سفره .

في صبيحة اليوم المذكور كانت سحنة القيصر شاحبة شحوب الأموات وقد امتطى حصانه ووقف في احد شوارع نوفغورود ينظر بكلل الى الرعاع الذين جمعهم ليستمعوا الى مقالته قائلاً بصوت خفيض وعيناه الكامدتان قد زال منهما بريق الغضب : « يا سكان نوفغورود

الذين ما زلتم على قيد الحياة ، صلوا الى الله ان يبارك حكومتنا وقيصرها ، صلوا كي يستطيع الجيش الذي يحب المسيح أن ينتصر على كل أعدائه الظاهرين والمستترين ، صلوا اليه كي يدين المطران الخائن پيمين ومستشاريه الفاسدين الذين كانوا سبباً في سيلان الدماء . ولتكفوا عن العويل والبكاء وانسوا ما تسببتم به من شر !. عيشوا في رخاء !. وها انذا تارك لكم حاكمي الجديد الأمير بطرس دانييلوفتش برونسكي . والآن عودوا الى منازلكم بسلام ! » .

وهكذا انتهى عقاب نوفغورود ڤيليكي . وتلك صفحة من التاريخ ليس لها ما يماثلها في تاريخ أوروبا كلها . ويقال إن ستين ألفاً من السكان قد هلكوا . وكتب كوربسكي أن القيصر قتل في يوم واحد خمسة عشر الف انسان . اما توب وكوز — وهما ألمانيان كانا يعيشان في البلاط ، فيقولان إن الرقم كان سبعة وعشرين الفاً ، ولكن الآلام والموت لا يمكنها ان تتجمع لتشكل رقماً يفهمه العابر المحايد . ولو أن احداً لم يقم بأي إحصاء فإن الهول الذي سببته هذه الأعمال سيبقى على ممر العصور .

عندما غادر إيڤان الرهيب نوفغورود بدا متعباً . ومع ذلك تابع طريقه ليكرر في بسكوف ما فعله في أختها . ولم يكن جيشه قد تعب من المذابح والانتهاب . وعندما وصل القيصر وعصاباته الى تخوم المدينة كان الرعب قد شل سكانها ، اما القيصر من ناحيته فكان متعباً أو مشفي الغليل . وقد قضى الليل في دير القديس نقولا خارج بسكوف بينما لم يغمض لسكان المدينة جفن وهم يقضون ليلتهم بالصلاة منتظرين الصباح. وفي منتصف الليل أخذت اجراس الكنائس تدق ، فاستيقظ القيصر وتقلب في فراشه وأصغى : « إنهم يصلون لينقذوا انفسهم من غضب القيصر » . هكذا غمغم في نفسه . وأعجبته الفكرة ودغدغت غروره فتأثر بها وقرر تجنيب السكان هول العذاب . وعندما دخل المدينة في اليوم التالي استقبله السكان وهم راكعون .



الفصل السادس والعشرون

نكبـــة المحظيين

بعض الرجال القديسين ذوي العقول القليلة كانوا يثرثرون كثيراً في حق إيفان . كان منهم نقولا في بسكوف وفاسيلي البريء في موسكو كما كان ثمة آخرون بدون شك . « إذا كانت الأصوات البشـرية قد سكتت فإن الصلوات بدأت تصرخ عليك يا إيفاشا !. ها هي ذي قطعـة من اللحم النيء خذها وكلها رغم أننا في الصوم الكبير . ذلـك لا شيء بالنسـبة لك يا من تتغذى بلحم الإنسان ودمه . إن غضب الله وراءك . من أجل كل عذاب ألحقته بالأبرياء في هذه الحياة الدنيا سيعاقبك بعشرة أمثاله في الجحيم . كعلامة ودليل أتنبأ لك أنك عندما ستحاول أن تنزل الى الأرض ناقوس الثالوث المقدس سيقع حصانك ميتتاً . لقد أرسلت وراءك صواعق الله تبحث عنك وإنها ستجدك » .

يقال إن إيفان وقع في الحيرة والقلق على يد قديس ضامر الجسم من بسكوف . فقد حاول أن يقترب من هذا المتقشف الهاذي ليحصل منه على بركته فهرب هذا فزعا أمامه . كان قد تجرأ على أن يرفع يده على مطران وأمر بخنق المتروبوليت على يد واحد من خدمه ولكنه لم يتجرأ على معاقبة أحد مجاذيب المسيح الذي كان يتألق بمعرفته لله . على أن من غير المؤكد مـع ذلك أن يكون إيفان قـد خاف فعلا من لعنـة نيقولا البسكوفي . وقـد سقط حصانه ميتـا بالفعل عندما كان ينزل ناقوس الكاتدرائية ولكن ذلك لم يمنعه من أخذه ، بل إنه ملأ عدة عربات بكنوز الأديرة والكنائس أيضـا . ولم يكن خائفـا عندما كان غارقا في تدنيس

المقدسات وسرقة الأموال التي تخص الله . ولم يمنح الحرية للمطران پيمين بل ارسله مكبلاً بالأغلال الى ألكسندروف مع عدد من وجوه المدينة والاكليروس في نوڤغورود لكي يتفرغ الى ميدان آخر من ميادين التعذيب والموت . وعلى الرغم من أنه وفر على سكان بسكوف حياتهم واموالهم فإن الأوپريتشينا كانت تجتاح البلاد بدون أي كابح تغتال ملاكي الأراضي ومزارعيها وتنهب الممتلكات .

اما في اللحظة الحاضرة فان إيڤان الرهيب كان قد شفى غليله وعاد الى ألكسندروف كي يباشر فحص جريمة نوڤغورود بكل عناية ودقة . كان مقتنعا ــ وينبغي أن نفترض ذلك ــ بأن مؤامرة قد حيكت هناك . وها هو ذا يعود الآن إلى هذا الموضوع مقتنعا بأن پيمين لم يكن له أن يتآمر على تسليم نوڤغورود الى سيجسموند أوغست لو لم يكن له شركاء متواطئون معه في موسكو . واعتقد أن ابن عمه المتوفى الأمير فلاديمير كان ضلعا في هذه المؤامرة ولكن لم يكن بامكانه أن يبعث فلاديمير من قبره ليقوم بتعذيبه . وكان إيڤان يرغب رغبة حارة في أن يهاجم الأحياء فأخذ يطرح الأسئلة على مساجين نوڤغورود وحملهم على أن يقولوا كل ما يعرفون بل وأن يخترعوا تحت التعذيب اتهامات ضد الآخرين . ومن المحتمل انهم كانوا مقادين بمستجوبيهم الذين كانوا يعرفون من يريدون أن يتهموه .

ولا ينبغي أن ننسى أن القيصر كان قد ستر غضبه خلال سنوات طويلة حتى كان اكتشاف المؤامرة المزعومة مناسبة لانفجاره . ففي صيف عام ١٥٦٦ عندما كان فيليب يتخذ طريقه من دير سولوفنسك الى موسكو اتت بعثة من سكان نوڤغورود لمقابلته وطلبت منه أن يتوسط لدى القيصر لكي يزول عنهم ظل غضبه . فكان لا بد إذن من وجود سبب لهذا الخوف، سبب سينكشف في غرفة التعذيب . وكان لسكان نوڤغورود اقارب وأصدقاء في البلاط فاوقفوا بعضهم في إثر بعض وعذبوا لكي يحصلوا منهم على معلومات أوسع . وفي خلال خمسة أشهر قام القيصر وزبانيته بالتعذيب حتى حصلوا على براهين .

وكان التحقيق قد اتخذ له طريقاً أدى الى مفاجئات لم تكن متوقعة لأن المحققين ابدوا رغبة حازمة في إدانـة محظيي القيصر . فقد شهـد شخص اسمه فيدور لوفشيكوف بأن الأمير فيازيمسكي كان قد اخطر بعض سكان نوفغورود بأن عليهم أن يهربوا من غضب القيصر ، وكان ذلك كافيا لجعل أقرب محظيي القيصر منه في موضع الاتهام بالخيانة . وقرر إيفان إعدامه . ولكنه بحسب عادته أرسل يستدعيه وكان له معه حديث ودي حول قضايا الدولة دون أن يشير بأي تلميح الى شكوكه أو نواياه . ثم خرج فيازيمسكي مع كل مظاهر المحبة الحارة والثقة ، ولكنه عندما وصل الى بيته شاهد أن معظم أفراد بيته قد ذبحوا . واقتصر فيازيمسكي على هز كتفيه لأنه كان هو نفسه قاسيا بدون قلب . كان قد ظاهر إيفان واشترك في كل مجازره فهو يستطيع أن يتحمل بكل طيب خاطر قتـل افضل الخدم لديه . ورباطة جاشه في هذا الظرف ــ كما خطر له ــ انما هي برهان على ولائه الثابت لسيده . ولكنه كان مخدوعا ، ففي المساء نفسه كانت نهايته الرهيبة .

وقد نال المصير نفسه كل من ألكسي باسمانوف وابنه تيودور الذي كان رفيق القيصر في قصوفه وعربداته ، وكان فظا وسوقيا وداعرا . ووقع عدد من اكثر أفراد الأوبريتشيما حبا لسفك الدماء ضحايا القسوة والجرائم التي ارتكبوها ، فعـذبوا ولكن دون أن يقتلوا على الفـور لأن القيصر كان يجمع ضحاياه ويحتفظ بهم ليكونوا خاتمة انتقامه الكبيرة من نوفغورود . وفي الوقت الذي كان يحل فيه غضبه على محظييه كان يوجد كثير من الأشخاص الآخرين الأبرياء يبلـغ عددهم حوالي الثلاثمائة من أمثال إيفان فيسكوفاتي عضو مجلس البويار وسيميون ياكوفليف ونيكيتا فونيكوف ورجلي الدين فاسيلييف وستيفانوف كانوا يُعَدّون لاعـدام جماعي في موسـكو .

ويبدو غريباً أن هذا المتوحش إيفان قد انتظر كل الصيف من عـام ١٥٧٠ لكي يعرف ما إذا كانت الملكة إليزابيت تريد الزواج منه أم لا تريد . كان أرمل ساخطا ولكنه في انتظاره لم يتخذ له زوجة أخرى بعد القيصرة

المتوفاة . ولم يكن سفيره في لندن يكف عن الحاحه في البلاط لكي يرسلوا انطوني جنكنسون الى روسيا وأن يكون جواب الملكة « مكتوبا باللغة الروسية لأن سيده لا يفهم لغة أخرى » .

وكتبت له الملكة يوم الثامن عشر من أيار . ١٥٧٠ ولكن رسالتها لم تتعرض لأمر الزواج . كلا لم تفعل . إلا أن جلالتها كانت مؤمنة بالمؤامرات التي تحاك حول القيصر ، وعرضت عليه في حال إضاعته لتاجه أنها تؤمن له المجيء الى انكلترا والخروج منها على هواه مع تخصيص سكن مناسب له يستطيع أن يقيم فيه ما يشاء من الوقت على أن يتكفل هو بمصاريفه ونفقاته .

ولم يعجب ذلك إيفان . فسحب ما كان يخص به الشركة الروسية من امتيازات وصادر بضائع بعض تجارها بل وألقى بهم في السجن . ثم ما لبث أن اكتشف أن بعض التجار الانكليز كان لهم صلات مع الخونة ، ذلك لأنه كان من الصعب في ذلك الوقت أن تجد روسيين في منجى كامل من تهمة الخيانة ، ومن كان محظيا اليوم سيكون خائنا في الغد .

ومع ذلك فإنه عندما جاء يوم الإعدام العظيم في الخامس والعشرين من تموز يوليه ١٥٧٠ لم يكن بين السجناء المرشحين للموت أي واحد من الانكليز . وربما لم يكن القيصر يطيل التفكير في القضايا الخارجية لأنه كان مستغرقا تماما في نزوات اجرامه وقسوته .

كانت قسوته تغذي نفسها بنفسها حتى أصبحت سرطانا متوحشا. وفي استغراق القيصر العقلي لم يكن يوجد أي بصيص للشفقة أو العطف الانساني . وفي غرف التعذيب وزنزاناته كان ثلاثمائة الأشخاص يعذبون ويمزّقون ويحرقون وتبتر أعضاؤهم على أن يحتفظ بهم على قيد الحياة . وفي الساحة العامة بين دكاكين كيتايي غورود نصبت آلات جهنمية كثيرة منها غلاية ضخمة مليئة بالمياه ومعلقة فوق كومة من الحطب ، ومقلاة

ذات سعة كبيرة ، واسلاك متحركة صلبة تستطيع ان تقسم الجسد الى نصفين ، واقفاص فيها دبب غاضبة ومشانق .

وعندما راى أصحاب الدكاكين في كيتايي غورود آلات التعذيب هذه هربوا واختبؤوا وراء مكاتبهم تاركين بضائعهم وصناديقهم المليئة بالأموال دون حراسة . واخذ الناس في موسكو يبحثون عن ملجأ لهم في أقبيتهم لا يودون الخروج منها . وبدا أن احداث نوفغورود ستعاد من جديد مع سكان العاصمة . وفي هذا اليوم الصائف خلت كل شوارع المدينة الكبيرة وساد ذعر بين الجميع ليس له مثيل . ولم يكن يسير في الشوارع الا ڤاسيلي العاجز أبله المسيح وهو يشتم القيصر عندما كان يمر . وقد اطلق اسم ڤاسيلي قديس الشعب بدلاً من اسم كاتدرائية شفاعة العذراء على تلك الكاتدرائية الكبيرة المقامة في الميدان الأحمر وذلك بموجب التكريس الذي أمر به القيصر .

ثم ظهر السجناء وهم لا يكادون يقدرون على الحركة . وكان الجلادون في أماكنهم كما اتخذت كتيبة من الأوبريتشينا مكاناً لها أيضاً. وكان إيڤان يرقب الأمور من فوق حصانه ولكن لم يبد أنه كان في الساحة اي متفرج . فقد قاطعت موسكو هذه المسرحية وبدا القيصر ممتعضاً من ذلك . كان يعتقد أنه يقدم لرعاياه استعراضاً كبيراً ولكنهم كانوا يرفضون الخروج من منازلهم ! كان يحتاج إلى متفرجين . لذلك أمر بإيقاف التنفيذ حتى يجوب أفراد حرسه المدينة ويأتوا بعدد من الناس لحضور الاحتفال . اما هو فكان يدور على فرسه في الشوارع وهو يصيح : « هيا أيها الناس الشجعان ! ليس عليكم أن تخافوا ، لن يؤذيكم احد ! » .

وهكذا انتهى الأمر بمسرح الموت هذا أن امتلأ بالرجال والنساء المرتجفين ليكونوا متفرجين بالإرغام . وقد بلغ بهم الأمر من أجل تحقيق ذلك أن غزوا سقوف المنازل والمناطق الأكثر ارتفاعاً منها للتفتيش عن المختبئين من الناس . ولكي يستهل الحفل وجه القيصر سؤالاً للجمهور

عما إذا كان معه الحق في تدمير الخائنين فصـــاح الجمهور « عاشت جلالتـــك » .

وبدأت العمليات بتوزيع العفو على البعض . وكان أول المستفيدين منه هو يمين مطران نوفغورود الذي نفي الى دير بعيد . وقد منح العفو بوجه خاص لسجناء نوفغورود ، ولم ينله سجناء الدولة المستجدين الذين وشى بهم أولئك الذين تعرضوا للتعذيب . وكان بين هؤلاء الأخيرين من تغيبوا مع ذلك عن هذا الاحتفال . ففيازيمسكي كان قد قضى نحبه تحت التعذيب بين يدي الجلادين ، وبازمانوف الكبير كان قد مات هو الآخر في السجن . ويقال أن إيڤان أجبر ثيودور بازمانوف على أن يقتل أباه لكي تناله اللعنة الأبدية أيضاً بعد الممات . وقد وصل تيودور بازمانوف الذي كان راهباً فيما مضى في أخويـــة القيصر الهزليـــة في الكسندروف وخدينه في مفاسده وعربداته وعهره وصل مقيداً بالسلاسل كالآخرين ولم ينل لا موتاً سريعاً ولا أصابـــه عفو في الدقيقـــة الأخيرة من الحياة .

أما السجين الرئيسي فكان الأمير ڤيسكوڤاتي الذي علق وراســـه إلى الأسفل ومزق جسده الى شرائح . هـــذه العاصفة من التعذيب والقتل دامت أربع ساعات . وكان ذلك اليوم بالنسبة للقيصر وابنـــه يوماً حافلاً لما تمتعا به من سرور ليس له حـــدود . وقد قتل القيصر بيده أحد السجناء بواسطة عصاه ذات الرأس الفولاذي المشحوذ . وبعد الاحتفال ذهب الأب والابن إلى بيت إيڤان ڤيسكوڤاتي فاستوليا على كل ما فيه من كنوز واغتصب القيصر أرملته البائسة واستولى ابنه على ابنته البكر . وكان هذا المشهد هو المشهد العائلي لأعمال التعذيب والقتل ، أن يغزو إيڤان ووريثه منزل السجين الرئيسي ويغتصبا من فيه من نساء . وتكفلت الأوبريتشنينا ببيوت السجناء الأقل قيمة ، وتجاوزت الوحشية الجنسية مجرد الاغتصاب ، فكلمة اغتصاب غدت هنا مجرد تلميح بالنظر لما حدث لبعض النساء . وكخاتمة لائقة لهـــذه

المخازي أغرقت ثمانون ارملة في نهر الموسكوفا . على أن وصفنا مهما بدا فظيعاً لهذه المآسي فينبغي الاقتناع بأن الحقيقة كانت أمر من ذلك وأسوأ .

ثم عادت الأعمال البربرية بعد ذلك ببضعة أيام . وكانت مزق الأجساد البائسة المشوهة تنتشر في العراء وتتفسخ بسرعة في حرارة شهر تموز . فصدرت الأوامر إلى الأوبريتشنينا بأن تقطع هذه الجثث إلى قطع صغيرة كي يمكن التخلص منها في أسرع وقت . وأخذت كلاب موسكو تتنافس على اللحم المسيحي . وكانت الشوارع مليئة ببقايا لحم إنساني تم افتراسه نصف افتراس . بينما كان الموسكوفيون غير العابئين يركلونها بأقدامهم لدى دخولهم أو خروجهم من الدكاكين .

ولكن أجراس الكنائس مالبثت أن أعلنت عن مصيبة أرسلها الله . وانتشر رعب أشد وادهى ، فالأجراس كانت تنبىء عن وصول الطاعون .



الفصل السابع والعشرون

خراب موسكو على يد التتر

في الشهر التالي كان القيصر يحتفل بعيد ميلاده الأربعين . وكان العيد مناسبة للأفراح والمسرات بمشاركة من المحظيين . وكان البهلوانات والمهرجون والمضحكون يقومون بتسلية الملك الذي انهمك بجلسات الشراب الطويلة ومآدب الطعام والافراط في الجنس . وكان قد غدا أكولاً نهماً ونظره يسوء سريعا ولكنه لا يزال منتصب القامة ومظهره وهيأته يوحيان فورا بالرعب . كانت السمنة تغزوه ووجهه الوحشي يحمل علامات فجور جامح وحذر ليس له حدود وقد ظهرت علامات الشيخوخة المبكرة وغزا رأسه المشيب حتى كساه . وبما أن القسوة تولد الجبانة فقد كان لديه شعور بالخوف كان يزداد شيئاً فشيئاً حتى محا في السنوات الأخيرة كل ما كان يملكه من روح للقتال . وكان الكثيرون من ضحاياه قد أظهروا له بقوة خصالهم أن الشجاعة الأدبية يمكنها أن تنتصر على الألم . وقد مات رجال تحت الألم الشديد وهم لا ينفكون يصرخون : « فليحم الله القيصر ! » . ومع ذلك فإن جنون إنزال العقوبات بالآخرين لم يعلّم الطاغية ما هو الألم . كان خلوا تماما من الشفقة ولكنه كان في ذهنه يضخم فكرة العذاب حتى أصبح اقل قدرة على مواجهة الألم المرتقب . وعندما قام خان القرم في ربيع السنة التالية بمساعدة اللاجئين من الروس بتهديد موسكو لاذ القيصر بالفرار وترك عاصمته لمصيرها المحتوم . لقد اختفى إيفان المؤمن الظافر في قازان كما اختفى إيفان المندفع الذي استولى على بولوتسك .

لقد نالنا التعب من قراءة لائحة الجرائم التي ارتكبها القيصر ، ومع ذلك ينبغي علينا ان نفترض أن هذه الجرائم كانت لا تزال تسلي أولئك الذين كانوا ينظمونها أو الذين كانوا لها من المتفرجين . وكان من بين هؤلاء القتلى إيفان فورونتيسوف ابن صديق القيصر في صباه . ولقد نسي الكثير من الأسماء وعددها عظيم ، ولكن بين ما يذكر منها توجد أسماء قواد حرب مشهورين وأبطال وسادة بهاليل ورجال كان لهم علاقات وثيقة مع العائلة المالكة .

وكان لمعظم هذه الجرائم صفة من بربرية خاصة وقسوة نادرة تعجب جهابذة الخبراء . من أمثلة ذلك ان فويغود سولو خفاستوف عندما علم أنه كان في خطر اختبأ في أحد الأديرة على الأوكا ، فلما علم إيفان قال : « إنه يسعى الى الله فلنساعده على أن يصعد اليه » ، ثم وضعه في برميل بارود وفجره فيه .

وفي يوم آخر امر بان تطلق دببة غاضبة وسط جمهور متجمع في أحد أسواق موسكو ليرى كيف تمزق ضحاياها وتأكلهم ويشاهد الرعب الذي ستمتلىء به صدورهم .

وفي مرة أخرى بينما كان الى المائدة صب حساء حارقاً على أمير مضحك فزمجر الأمير من الألم وفر من مجلس القيصر الذي سارع بزرع سكينه في صدره وأرداه قتيلاً على الفور . وفي جلسة مماثلة بعد ذلك تجرأ أحد أفراد الحاشية المسمى ميتكوف على أن يقول للقيصر أن البيرة التي يشربها كانت ممزوجة بدماء ضحاياه ، فرفع القيصر عصاه المدببة بالحديد وأخذ يضربه بها حتى الموت . وفي مناسبة أخرى قام نبيل ليقوني سجين كان على وشك أن ينفذ فيه حكم الموت بالانقضاض على القيصر لولا أن ولي العهد أوقفه بضربة من خنجره فأرداه . مرحى أيها الأمير الصغير !. فأنت لا تقل قسوة عن أبيك ، فهم لم يكونوا ليقتلوه كي يجعلوا منك قيصرا بدلا عنه !. وبديهي أنهم لم يتحدثوا عن حياة ولي العهد كما تحدثوا عن حياة أبيه ولكنهما كانا بدون شك صنوين في الجريمة والفجور

كما كانا كلاهما بدون شفقة ولا خجل . ولم يكن بين الاثنين إلا شعور الود والاتفاق ، ولا بد أن سبب ذلك كان مرده الى توافق ذوقيهما وأن الأب في فسقه المتعمد لم يكن يضع مانعا أمام فساد ولده ، فقد كانا متفقين بكل فظاظة حتى ليقال انهما في السنوات الأخيرة قد اعتادا على ان يتبادلا بينهما زوجتيهما .

وحل خريف عام ١٥٧٠ فكان مأساويا بالنسبة لروسيا . فبسبب ما ارتكبته الأوبريتشينا من غزوات على اراضي كل أولئك الذين ليسوا من عصابتها غدت كثير من الأراضي بدون حرث وزرع . وانتشرت السرقات بلا تمييز دون أن يدفع عنها الا القليل من التعويضات المشروعة، وارتفعت الضرائب العينية لدعم الأوبريتشينا والجيش ومصروفات بيت القيصر حتى اضطر المزارعون الى تحديد زرعاتهم حتى لا تؤمن لهم إلا غذاءهم الضروري . وتبع ذلك نقص في المحصول . كان المطر غزيرا في الصيف من عام ١٥٧٠ . وفي الخريف شح القمح والشيلم . وفي الشتاء كانت المجاعة حتى أن الفلاحين اضطروا لأكل لحاء الأشجار . وجرت مشاهد من اكل اللحوم البشرية في بعض المناطق حيث افترست بعض العائلات مواليدها المحدثين . وتبدى غضب الله بأشكال مختلفة وناء بكلكله فوق روسيا . وانفجر الطاعون مع المجاعة في الوقت نفسه . وبعد الطاعون والمجاعة أتى الحريق وسيوف التتر ، فقد غزت القبيلة روسيا مرة أخرى مدمرة في طريقها كل شيء .

كان إيفان يتوقع الخطر . فأرسل في نحو من أواخر عام ١٥٧٠ رسالة تملق إلى السلطان العثماني ليطمئن إلى ان قبيلة المحاربين المسلمين لن تهاجم مؤخرته عندما يوجه القسم الأقوى من جيشه لمقاتلة السويديين والليفونيين المتمردين ولكن سفراءه لم ينالوا النجاح . وكان يوجد يومئذ في القسطنطينية عدد كبير من الروس الهاربين من وحشية الأوبريتشينا يقنعون السلطان بأن القسم الاكبر من روسيا كان مستاء من قسوة القيصر الذي بانغماسه في الفجور اضاع هيبته وسلطانه . وكان الإسلام يومئذ في عز قوته فنصف أوروبا ترتجف أمام تهديد الهلال.

ولم تكن عذوبة التملق التي ابداها سفراء القيصر إلا لتزيد في قناعة السلطان بأن الساعة قد ازفت لكي ينتقم التتر من الهزائم والإهانات التي انزلها القيصر بهم من قبل . وقد طالب السلطان بإعادة قازان واستراخان ، فإذا لم يكن فدفع جزية سنوية .

ولم يكن إيفان يتوقع تلك السرعة المعجزة التي استطاع بها التتر أن يتحركوا بها في الربيع . فقد ردت جماعات لا حصر لها من الفرسان على نداء الخان(*) كما لو أن ساحراً بعثهم بعصاه . ولم يكونوا قد قاموا بأي إعداد ولا حصلوا على اي تموين ، وإنما هي قوة لا تقاوم تقدمت من الجنوب كسحابة مشحونة بالأعاصير . وغرقت موسكو بالذهول . ولم يكن لدى القيصر وقت لاستدعاء جيشه من الشمال الغربي بينما لم تكن الفرق المتمركزة على الأوكا تمثل إلا قبضة من الرجال . وقد ترك القيصر حفلات لهوه وقصوفه في موسكو مرتين لزيارة جيشه على أمل أن يرفع ذلك من مركزه . وكانت إهانات الخان قد سبقت القبيلة في مسيرتها ، وقام ديفليت غيراي بتحدي القيصر لمنازلته في معركة فردية لكي يقطع اذني هذا الطاغية ويرسلهما للسلطان. ولم يكن يشك في انه سيكنس كل شيء يقف في طريقه . ولم يكن إيفان غبياً ولا بطلاً فرأى انه لا يستطيع مقاومة تقدم مائة ألف من التتر الغاضبين تساندهم فرقة من اللاجئين الروس .

بعد هجوم جانبي على بيبلسكي وموتيسلافسكي تقدم الخان بسرعة إلى سيربوخوف حيث كان القيصر يعسكر مع القسم الأكبر من الأوبريتشينا. ولم يكن إيفان يريد أن يموت في النزال ولا أن يتعرض لخطر الوقوع أسيراً في يد عدو لا رحمة لديه . وهكذا فر من ساحة العراك حتى الكسندروف ، ولكنه لم يشعر هناك بالأمان فقرر اللجوء إلى وسط جيشه في الشمال الغربي واستمر في انسحابه في اتجاه ياروسلاف .

(*) يقصد بالخان لخان القرم التتري وكان تابعاً للسلطان العثماني . — المترجم —

في خلال ذلك كان الخان يدمر كل شيء أمامه ويقترب سريعاً من موسكو . كان ذلك الانتقام الاكبر . وقد تسبب التتر ببلبلة ليس لها مثيل وهم يطردون امامهم الآلاف من الهاربين المذعورين حتى المدينة . وكان الجيش الروسي قد انسحب اليها واتخذ مواقعه لمباشرة معارك الشوارع ، ولكن المعركة لم تحدث لان النار والدخان اتيا بالنصر بعد أن اخذت الريح تعصف بالمدينة المبنية بالاخشاب . وعندما وصل الخان أصدر اوامره بأن توضع النار في الضواحي ، فارتفعت السنة اللهيب تطارد الروس بضراوة اشد من ضراوة العدو . وخلف هذا الستار الواقي كان التتر يتقدمون ببطء ، ومن اسلم نفسه منهم للنهب هلك مع من هلك من الروس . ولم يكن الخان كثير الفطنة . فقد كان بإمكانه الحصول على افضل النتائج لو اكتفى بحريق صغير . ولكنه كان يحث جنوده على أن ينشروا خارج المدينة هذا الحريق الذي دمرها كامل التدمير . وهكذا ضاع القسم الاكبر من الغنيمة . ولكن من وجهة النظر الانتقامية كان انتصار التتر رهيباً وكان أكثر رهبة منه أن تتمكن موسكو من استعادة ما فقدته من ثروات وكان الدخان الكثيف النفاذ يرمي اللهب القاني ويمضي من حي الى حي خانقا ومدمرا كل اولئك الذين لم يتمكنوا من الهروب حتى بلغ عدد الذين هلكوا ارقاما كبيرة .

أما الروس الذين وقعوا أسرى في أيدي التتر فكانوا أولئك الذين أسعفهم الحظ فتمكنوا من الفرار الى الضواحي الشمالية هرباً من النيران ودمرت المدينة المبنية من الاخشاب تدميرا كاملا ولم يبق منها الا بعض الجدران وبعض الكنائس المبنية من الحجارة . وقاومت أسوار الكريملين النيران بينما كانت ابوابه قد اغلقت في اغلب الظن بأمر من المتروبوليت سيريل الذي تمكن من النجاة بكل تأن بينما كانت رعيته يشوون . وفي خلال ثلاث ساعات هلك أكثر من نصف مليون انسان . وكان أشد المشاهد فظاعة منظر الجماهير وهي تتزاحم وتندفع نحو الساحات الخالية فتقع في الفخ وتحاصر ويطأ بعضها بعضا فلا تستطيع التقدم ولا التأخر ، أما وجوهها فشاحبة شحوب الموت من الفزع والهول وعيونها

نصف معمية من الدخان ، يسحقها سقوط الكتل الملتهبة وتخنقها جرارة لا تحتمل وتشويها ويوقفها اندفاع مفاجيء لنفثات كثيفة من اللهيب فتسقط كما يتساقط الذباب . وامتلأ النهر والحفر المحيطة بموسكو حتى اترعت بعدد كبير من الناس المحملين بالذهب والفضة والمجوهرات والكنوز وهم يأملون النجاة والاحتفاظ برؤوسهم سليمة فوق المياه .

ولقد كان مشهد هذا الحريق مرعباً لدرجة أن خان التتر اضطر الى الانسحاب . فلم يكن ثمة مجال للنهب وسط الرماد الحار وليس بالامكان تعرية الجثث مما عليها من ثياب . ولم يلق الحصار على الكريملين ولم يوجه الرماة نبالهم الى القصور والكاتدرائيات التي يضمها لان النتاج الرهيبة لهذه المذبحة جمد القبيلة الغازية . وعندما سرت الاشاعة بأن ماغنوس(*) كان يحث السير على رأس جيش كبير عاد التتر المنتصرون ادراجهم سالكين الطريق نفسه الذي قدموا منه . ووصلت اخبار الانسحاب للقيصر الذي كان قد غادر ياروسلاف الى روستوف الكبرى فأصدر امره الى ميشيل فوروتنسكي بملاحقتهم ، ولكن الخان كان اقوى من أن تقلقه مثل هذه الاعمال في مؤخرة قوته . وقد استمر في أعماله التخريبية أثناء الانسحاب وفتح كما لو أن في يده منجلا كبيرا ممرا واسعا من الشمال الى الجنوب . اما الغنيمة التي حملها رجاله فكانت عظيمة . فكانت تضم مائة الف من الصبايا المخصصين للبيع في أسواق النخاسة أو الدخول في حريم الامراء ، والنخبة من الجميلات بينهن كان لا بد من أن تقدم الى السلطان نفسه . ولكن هذه المنهوبات وهذا الانتقام الذي تم باحراق موسكو كانت الثمار الاكثر وضوحا للانتصار وقام إيڤان يلتمس الصلح يجلله الخزي والعار . وعندما توجب عليه ان يوقع هذا الصلح اخذ يتحايل ويسوف ويعبيء قواته وينظم نفسه . وفهم الخان أنه لن يتمكن من تجديد الهجوم فطلب اعادة قازان واستراخان ولكنه لم يحصل على شيء من ذلك

(*) ماغنوس Magnus دوق هولشتاين . — المترجم —

منذ ان كان القيصر في الكسندروف أصدر اوامره برفــع أنقاض العاصمة . ووصل سكان الريف لبناء مدينة جميلة لم تلبث ان انبثقت كأعجوبة من العدم لتكون موسكو جديدة مبنية بالخشب فوق أساسات من الجير . ولم تؤثر هــذه الكارثة في إيفان كما فعل حريق موســكو السابق فلم يسلم نفسه لتوبة كبيرة ، ولكنه عندما تباهى امامه سفير الخان بانتصارات سيده وبخه توبيخات قاسية عندما قال له : « إنهــا يد الله التي عاقبتني بسبب خطاياي ، اما الخان فلم يكن الا آلة لتنفيذ غضب الله » .



الفصل الثامن والعشرون

زيجات جديدة للقيصر

تلقت العائلات الروسية أمراً جديداً بإرسال بناتها الصالحات للزواج ليتمكن إيفان من رؤيتهن واختيار زوجة من بينهن . فلم يكن عليه إلا أن يتكلم ، ومن ذا الذي يجرؤ على الاحتفاظ بابنته مخبأة عنه ؟. كانت الدعوة عامة تشمل النبلاء والتجار والبورجوازيين . واقتيدت آلاف الفتيات الى القصر في الكسندروف في صحبة ذويهن وقام القيصر وولي العهد بتفحصهن . ولم يكن رماد العاصمة قد برد بعد عندما تهيأ إيفان لإقامة احتفالات كبيرة من أجل زواجه الجديد لأن ضربة الحظ السيء لم تكن قدأثرت فيه . أما اكتشاف زوجة جديدة فكان تسلية بالنسبة للأب والابن . وقد تقرر أن يقوم ولي العهد أيضاً باختيار واحدة من بين هذا الحشد من الفتيات . وكانت كل واحدة منهن تسأل شخصياً من القيصر نفسه حتى استغرق الانتقاء أياماً طويلة . وقد تحدد العدد في البدء بأربع وعشرين ، ثم باثنتي عشرة ، وخضعت هؤلاء الأخيرات لفحص طبي ولفحص آخر قامت به نساء عاقلات ليقدمن معلومات دقيقة عن كمالهن الجسدي ولم يتدخل في ذلك اي اعتبار سياسي . كان المعيار الوحيد أن يكنّ من الناحية الجنسية مرغوباً فيهن . واتخذ القيصر من نفسه اختصاصياً خبيراً ومستشاراً أميناً نيابة عن ابنه المراهق .

وأخيراً تم الانتقاء . فاحتفظ إيفان لنفسه بمارتا سوباكين ابنة أحد تجار نوفغورود بينما احتفظ ولي العهد لنفسه بييفدوكيا ابنة أحد البورجوازيين ورفع والدا الفتاتين فوراً الى رتبة البويار . وتزوج إيفان

من مارتا يوم الثامن والعشرين من تشرين الأول أوكتوبر ١٥٧٠ بينما كان زواج ولي العهد في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر .

وفي الأسبوع الذي سبق زواج القيصر جرت بعض الإعدامات التي كان بين ضحاياها أخو القيصرة الأخيرة .

وكان المتهمون الرئيسيون ليكونوا ضحايا ضراوة القيصر الجديدة هم الذين كان ينقصهم الولاء أثناء مقاومتهم للخان . إلا ان استياء إيڤان كان له مصدر آخر أيضاً هو الكراهية التي كان يكنهـا بعض البويار لمحدثي النعمة من امثال سوباكين وسابوروف . فلما مرضت زوجة القيصر الشابة كان مرضها بدون شك من فعل السحرة . وبحسب ما يقوله إيڤان فإن مارتا كانت مريضة منذ أن تزوجها وأنه لم يتم عملية الزواج . وقد يكون ذلك صحيحاً أو ربما لم يكن إلا ثمرة تخمين . فإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار الاحتياطات الطبية التي اتخذت والمعلومات التي قدمت لبدا لنا من غير المعقول ان يكون القيصر قد تزوج فتاة مشرفة على الموت . فقد توفيت بعد خمسة عشر يوماً من الزواج وأعلن إيڤان فوراً أن مارتا ــ كما حدث مع أناستاسيا ومع ماري الشركسية ــ قد ماتت بالسم . وادعى أنه كان يعتني بها ويعالجها طول هذه الفترة وأنها ماتت عذراء . ولكنه كان قد غدا منحلاً من الناحية الجنسية بل ويمكن أن يكون لها حوله شكوك أخرى . فنحن نجهل ما الذي دبّره خلال هذه الأيام الخمسة عشر من حياته الزوجية التي انتهت بموت زوجته .

وبحسب قانون الكنيسة الأرثوذكسية لا يمكن للرجل ان يباشر أكثر من ثلاث زيجات . فلو أن إيڤان راعى هذا القانون فإنه كان سيبقى بعد وفاة مارتا عازباً حتى نهاية حياته . ومن أجل ذلك صرح بأن مارتا ماتت عذراء لأنه لم يكن ينوي أن يبقى عازباً ولا يريد في الوقت نفسه أن يدخل في نزاع مع الكنيسة في موضوع أساسي وتقليدي مثل قانون منع الزواج للمرة الرابعة . وهكذا سعى لأن يثبت أن زواجاً لم يتم لم يكن زواجاً لكي لا يزدري الشرعية الخالدة لهـذا الزواج وذلك بأن يقيم الاعتبار

الناحية الجسدية لا الناحية المعنوية منه . وكاد هذا النقاش أن يؤدي الى صعوبات جسيمة لولا أن المتروبوليت سيريل قد مات وكانت سلطة القيصر أكبر من سلطة الأساقفة فما لبث أن كان معه الحق وتزوج في العام التالي للمرة الرابعة .

خلال الصوم الكبير من عام ١٥٧١ قرر القيصر ان يقود أنا كولتوفسكا الى سريره ولكنه أراد ان ينال مباركة الكنيسة لكي يمكن أن يسمى هذا التصرف زواجاً . ولم تكن هذه الأنا التي راقت لعينيه تنتمي الى عائلة من طبقة التجار وإنما كانت من عائلة تنتمي الى طبقة حقيرة جداً . وأعدّ ليونيد مطران نوفغورود المرتشي لنوال موافقة الكنيسة على هذا الزواج الرابع قبل تعيين متروبوليت جديد . وكان أحد الشروط الغريبة لهذه الموافقة هو منع القيصر من دخول أية كنيسة حتى نهاية الصوم وأن ينحرم من نعمة القربان المقدس ، على الا يطبق تسامح الكنيسة هذا إلا على القيصر ولا يمكن اعتباره سابقة لأي فرد من رعاياه للقيام بمثل هذا التجاوز لقوانين الزواج .



الفصل التاسع والعشرون

وفــاة سيجسموند اوغست

عند ذلك توجه القيصر ومعــه ابنه ومحظيوه وامرأته الصبية الى نوفغورود كي يعقد هدنة مع السويد إذا كان ذلك في الإمكان . ونظــراً للخطر الذي كان يتهدد موسكو في أن تتعرض لهجوم تتري جديد حمل إيفان معه قسـماً كبيراً من كنوزه الى نوفغورود . ففي هذه المدينة كان يشعر أنه في أمان أكبر وأنه أقرب الى جيشه ولم يكن يتوقع قطعاً أن الناجين من سكانها الذين قام بالمذبحة فيهم يمكنهم أن يقوموا بأية محاولة لاغتياله . ولكن نوفغورود كانت مدينة ميتة ، فالبيوت مهجورة والمدينة لم تكن قد ارتفعت بعد والكنيسـة وحدها كانت هي المزدهرة التي تتمتع بالرخاء . فقد كان في روسيا فيض من الرهبان والنساك بحيث أن هلاك بعضهم لا يبدو له أثر في المجموع . وقد امتلأت الأديرة والصوامع من جديد . وكان بإمكانهم أن يحتفظوا لإيفان بضغينة في نفوسهم لما قام به من سلب للهياكل ولكن المطران ليونيد الذي كان صنيعته لم يكن ليوجه له أي لوم على خطاياه . وكان القيصر يشعر براحة أكبر مع الرهبان والكهنة من أن يكون مع المدنيين ، فالتجار كانوا بلا ثقافة ولم يكن غيابهم يسبب له أي إزعاج . وقــد ذهب الى نوفغــورود ليسلم نفسه التقى والــورع في الأديرة وقصر المطــران ويناقش في نقاط لاهوتيــة ويدير اجتماعات الكهان . وقد جرت مناقشات طويلة مع رجال الدين ، ولكن بما أنــه كان مسلحــاً دائماً بعصاه فقد كان يحــدث غالباً أن تنتهي المناقشات بفظاظة وبطريقة تدعو للرثاء .

وقام ادعاء بأن إيفان عندما هرب الى نوفغورود كان يرزح تحت وطأة خوف جبان . ولكن مع أنه كان أكرم له واكثر شجاعة أن يبقى في موسكو لمجابهة التتر الغزاة فإن المرء لا يكاد يكشف في سلوكه شيئاً يدل على الجبن . كان سعيداً في زواجه الجديد . ومع أنه كان يدعي دائماً بأنه في خطر فقد عامل المبعوثين السويديين والليتوانيين بحزم يشعرنا بأنه كان واثقاً من نفسه ومن مكانته . وعلى الرغم من أنه كان بحاجة الى كامل جيشه للدفاع عن موسكو في وجه التتر فإن هدفه في نوفغورود كان فرض الصلح على السويد لا أن يطلبه . ولم يكن أقل من ذلك ثقة تجاه بولونيا وليتوانيا .

وفي النصف الثاني من عام ١٥٧٢ جرت أحداث مثيرة . كانت تلك فترة هامة من عهد إيفان الرهيب . فقد مات سيجسموند أوغست في الثامن عشر من تموز يوليه ، وفي الفاتح من آب انزل ميشيل فوروتنسكي الهزيمة بجيش الخان الضخم الذي كان قد تقدم الى بعد مرحلتين من موسكو . وعاد إيفان على الأثر الى العاصمة ليشكر جيشه ويحل الأوبريتشينا .

كان سيجسموند قد مات فقيراً بعد أن أفلسته محظياته والعدد الكثير من الفضوليين الذين كانوا يعيشون في بلاطه حتى أنه لم يوجد لديه من المال ما يكفي لدفنه على ما يليق . ويقال إنه على فراش موته عيّن إيفان ليكون خليفة له . ولكن ذلك أمر غير معقول . ما حدث أن عدداً من النبلاء البولونيين والليتوانيين كانوا أنصاراً لإقامة مملكة مزدوجة تحت صولجان فيدور الابن الأصغر لإيفان . وقد صرح القيصر : « إذا كنتم موافقين على فيدور فلمَ لا أكون أنا ؟ » . إلا أن بعض البولونيين والليتوانيين كانوا يخافون بدون شك أن يكون ذلك مبالغاً فيه . وقد كتب إيفان رسالة نفاق يعبر فيها عن ألمه لموت أخيه سيجسموند وانه يرى في نفسه ملكاً على بولونيا وغراندوقاً على ليتوانيا .

وإذا كان ينقص إيفان شيء ليكمل طيب مزاجه فإن ذلك حدث بعد خمسة عشر يوماً على يد فوروتنسكي عندما هزم التتر . ففي معركة طويلة دامية تقلص عدد مائة وعشرين ألفاً من جنود الخان الى عشرين ألفاً بعد صدام بدأ بالسهام والسيوف جسداً الى جسد ثم بمعمعان من الخيول المتوثبة والسيوف المعقوفة والسيوف ذات البريق الخاطف حتى انقلبت الجداول حمراً من دماء المتقاتلين دون ان يؤدي هذا الصدام الى نتيجة . ولكن فوروتنسكي تظاهر بالهزيمة حتى اجتذب التتر الى موقع مناسب لمدفعيته بحيث لا يستطيع الرجال ولا الخيول الصمود أمام نيران الروس . وأفاد الموسكوفيون من هلع الأعداء فشنوا عليهم هجوماً معاكساً أدى بهم الى هزيمة جرت خلالها فيهم مذبحة مريعة .

كان النصر الروسي مؤزراً ضخم من هيبة السلاح الموسكوفي ومن سلطة القيصر ، أما الخان فكانت هزيمته حاسمة وتلاشت أمامه فرصة استرجاع قازان واسترخان تلاشياً كاملاً وانحنى السلطان امام القدر . وكان رجال فوروتنسكي السبعون ألفاً المكللون بالنصر على استعداد للاندفاع الى فتوحات جديدة . وشعر إيفان انه أصبح أقدر على العمل في الشمال وانه يستطيع أن يعامل ملك السويد باحتقار أكبر قبداً من فوره يتكلم اليه باستعلاء . ومن البديهي انه لم يكن ثمة من سبب لاتخاذ موقف عدواني تجاه بولونيا وليتوانيا . فسفراؤه كانوا مكلفين بإظهاركم هو مرغوب فيه أن يكون القيصر هو الملك المنتظر بعد إلحاقه الهزيمة بعدوه الكبير في ساحة المعركة وبأن الجيش الروسي لم يعد أداة تهديد وإنما ضمانة للسلام .

ما كان يزعج إيفان الآن هو سمعته الخارجية السيئة التي سببها له ما ارتكبه من إعدامات ومذابح . وكانت الملكية البولونية ملكية انتخابية فصوت لغير صالح إيفان كثير من الناخبين بسبب سمعته البربرية . أما كوربسكي الذي كان رأسه مهدداً إذا أصبح إيفان ملكاً فقد قام ضده بحملة ضارية . وهكذا كانت قسوة القيصر هي التي أثارت عليه الاستياء العام في عصر كان بطبيعته عصر قسوة وبربرية !. ففي شهر آب اغسطس

نفسه من عام ١٥٧٢ جرت في باريس مذبحة بارتلمي في الوقت الذي قرر فيه إيڤان أن يبدل من سلوكه . وكانوا يفسرون بربرية إيڤان بأنها قوة خطرة في الطباع أكثر من أنها أعمال غير إنسانية . وارتأى كثير من النبلاء البولونيين والليتوانيين أن ملكاً أضعف من إيڤان وأكثر مرونة قد يلائمهم أكثر منه ، إضافة الى أنه لم يكن يوجد بينهم من يتمنى تسلل الأوبريتشينا الى بلده . فتعسف هذه القوة المسلحة الكبيرة كان يلطخ حكم القيصر بأكثر مما كانت تفعل أعمال عنفه الشخصية .

ويمكننا أن نتصور إذا اختفت الأوبريتشينا مدى المتعة التي ستحس بها روسيا باستثناء الأوبريتشينا نفسها بطبيعة الحال . وقد خفضت مكانة الأوبريتشينا بالفعل واضاعت سلطتها وممتلكاتها لأن القيصر استطاع أن يقوم بهذه الحركة باعتماده على فوروتنسكي وجيشه الظافر ، ولولا هذا الشعور الجديد بالأمان لما تمكن من أن يفعل ذلك . على أن ما فعله اظهر عظمة هيمنته وسلطان إرادته الذي ليس عليه رقيب . ولقد يكون ثمة الكثيرون من الناس الذين دهشوا من مفاسد إيڤان ، ولكنهم كانوا يخافونه أكثر مما حدث لأي عاهل غيره . وقد نكون مخطئين إذا اعتبرناه مجرد مجنون يترنح بين رذيلة وأخرى ، ففي عام ١٥٧٢ في موسكو كان العاهل الأعلى المطلق الظريف المليء بالوعي لعلاقته مع « الإله ذي الأقانيم الثلاثة ، الواحد غير المرئي ، الأب والابن والروح القدس » ، ذلك الشعار الذي كان يستعمله في صدر فرماناته .

وهكذا انحلت الأوبريتشينا واستعادت الزيمشينا مكانتها التي كانت الأولى قد انتزعتها منها . وتمت معاقبة بيزي Daisi رئيس دير سلوفتسك الذي كان قد شهد زوراً على المتروپوليت فيليب . ونفي من البلاط كثير من الأشخاص المكروهين الذين بقوا مقربين من القيصر حتى الآن . وبدأ بوريس غودونوف يجد حظوة في عيني إيڤان . وغودونوف هذا هو قريب بعيد للقيصر ، كان طموحاً كما كان أول رجل له قيمته قربه القيصر اليه بعد ألكسي أرداتشيف ، وربما كان إلغاء الأوبريتشينا من وحيه وصنع يديه . وعلى الرغم من أن بوريس غودونوف الفتي

الجميل لم تكن له اهتمامات سياسية فقد كان له اهتمامات اخلاقية في معارضته للعنف وسفك الدماء . ورغم انه عاش في البلاط منذ بضع سنوات إلا انه كان حريصا دائماً على ألا يتسخ بالدم . فلم يسارع قط كما فعل غيره لارتكاب بعض الجرائم تلبية لرغبات القيصر السرية . وكانت تلك مهارة كبرى أن يتجنب العنف مع الاحتفاظ بالحظوة والتكريم .

كان بوريس غودونوف يوصي بالاعتدال والحيلة . وفي خلال الخريف وطول الشتاء قام إيفان يداور البولونيين والليتوانيين بمعسول الكلام . ولم تسجل سياسته الداخلية شيئاً من حوادث الجريمة والعنف . وقد أرسل الجيش الى الشمال الغربي ضد السويد . وكان ماغنوس دوق هولشتاين (*) قد بدأ يتحرك ليستولي على مملكة لنفسه فوعده إيفان بليفونيا . ولا بد أن بوريس غودونوف قد شبع ضحكاً وتهكماً على ماغنوس لأنه كان يعرف جيداً أن سيده لا يمكن أن يعطي ليفونيا لأمير دانمركي . ثم عاد القيصر الى نوفغورود ، ومن هناك بلغ الجبهة الإستونية حيث باشر الحرب بهمجية كبيرة واخذت المدن تسقط بين يديه او بين يدي ماغنوس واحدة بعد أخرى حتى استولت الجيوش على البلاد واجتاحتها قاتلة الرجال ومغتصبة النساء . وفي هذه الحملة قتل سكوراتوف محظي القيصر . وكان ماليوتاسكوراتوف خليل العربدة والإجرام قد نجا من تقلبات مزاج القيصر وبقي نديمه الصخاب الفاسق رغم مما احتله غودونوف من مكانة ورفعة . وعندما علم إيفان بنبأ مقتله في المعركة انتابه غضب شديد فاخذ يكدس الأسرى من السويديين والالمان وهم مكبلون بالأغلال ويغطيهم بحزم من الحطب ثم يضع فيها النار حتى يحترق هؤلاء التعساء وهم أحياء للتدليل على ما انتابه من غضب وغم .

(*) هولشتاين أمارة تقع الى الجنوب من الدانمرك . — المترجم

كانت الحملة موفقة بالنسبة للروس رغم أن السويديين في الربيع من عام ١٥٧٣ اكتشفوا في شخص أكيسون قائداً قديراً استطاع ان يتحدى بقوة صغيرة ستة عشر الفاً من الروس بالقرب من لود . ثم ما لبث اهتمام القيصر أن استدار الى ثورة قامت بها القبائل قرب قازان فكان ذلك سبباً في تراخي حرب السويد .

وقد صمم إيفان على أن ينتهي من ادعاءات ماغنوس الذي لم يعد بحاجة إليه . وكانوا قد وعدوه بزواج فأمسكه ذلك الى جانبهم . وفي الثاني عشر من نيسان أبريل تزوج دوق هولشتاين في نوفغورود من الأميرة ماريا صغرى بنات الأمير فلاديمير اندرييفتش الراحل . وكانت حفلة الزفاف مرحة شهدها حشد حافل من المدعوين الألمان ، وبعد الاحتفال رقص الجميع طويلاً وكان إيفان يلعب دور راعي الاحتفال الذي غنى فيه منشدو الدير ، ويدير بعصاه التي كان يمسكها بيده صغار الرهبان ويضرب بها رؤوس من يعتقد أنه كان يسيء الغناء . وكان ماغنوس سعيداً بعد ان استلم مهر العروس المؤلف من خمسة براميل مغلقة كان يعتقد انها تضم ذهباً وانه في اليوم التالي من الزواج سيعلن ملكاً على ليفونيا ، ولكن البراميل كانت تضم ثياباً لا ذهباً ، وبدلاً من أن يتلقى ليفونيا شعر بالتلاعب عليه وارتضى بإقطاع صغير لأنه لم يكن من الشجاعة بحيث يستطيع الغضب . وهكذا اخذ ما أعطي إليه وعاش فقيراً « بوجبة طعام من ثلاثة صحون » كما يروي رواة ذلك العصر . وكان يذهب في كل يوم يشتري الحلويات لزوجته ذات الثلاثة عشر ربيعاً .

وبينما كانت تدور أعياد الزفاف وخيبات الأمل هذه كان الدييت البولوني يسعى لانتخاب ملك على بولونيا . وكان ثمة عدد من المرشحين : منهم إرنست ابن الإمبراطور مكسمليان ، وملك السويد ، وسيجسموند ابن ملك السويد ، وهنري دوق أنجو وشقيق شارل التاسع ، وملك فرانسا ، وقيصر روسيا إيفان الرابع ، ولم يكن هذا قد خول ابنه فيدور بأن يرشح نفسه .

وبناء على اقتراح من جان زامواسكي تقرر أن يكون انتخاب الملك ليس على يد الدييت وحده وإنما يشترك فيه كل النبلاء على أن يكون لكل منهم صوت انتخابي شخصي . فالملك إذن لن يكون منتخباً بتصويت برلماني وإنما بنوع من الاستفتاء . ويقال إن هذا التغيير في الإجراءات قد تم بناء على فكرة أولية قدمها مونتلوك Montluc سفير فرنسا الذي كان قد جمع سلفاً عدداً كبيراً من الناخبين لمصلحة دوق انجو . ولم يكن لإيفان مساهمة نشيطة جداً في هذه الحملة الانتخابية لاعتقاده ـ في غروره ـ أن بولونيا هي التي ستطلبه . كان معارضاً معارضة شديدة للمرشح الفرسي لأن فرنسا كانت صديقة للسلطان العثماني ولم يكن يستطيع أن يتخيل أن نصف النبلاء البولونيين الذين كانوا من البروتستانت يمكن أن يصوتوا لرجل متورط تورطا حميمياً بمذابح سان بارتلمي ، فالفضيلة العليا لبولونيا كانت يومئذ في حريتها الدينية .

ولكن كان يوجد انقسام كبير في المصالح بين المرشحين المتنافسين مما ساعد على فوز دوق انجو الذي كان أقل صلاحية من الجميع . كان الوحيد الذي استطاع أن يكون له وكيل انتخابي قادر ، وعدد النبلاء الذين تمكن من شرائهم كان أكبر من أي تجمع آخر جمعته القناعة . وفشل إيفان وخاب فأله . ولكنه لو كان قد بذل وأسرف في العطاء أكثر لهزم الفرنسي بسهولة بالوعود والنقود .



الفصــل الثلاثون

انا مسجونــة في الدير

كان إيفان قد بدأ بالانحطاط . فمن الشائع لدى الروس أن ينظر الى الانسان في سن الأربعين على أنه مسن، ومن السهل أن نفهم أن حالة طول الأعمار كانت نادرة في عهد إيفان الرهيب . كان إيفان قــد أصبح ثقيل الحركة وتزايدت شراهته وشهواته الجنسية وصار يتعب من أي مجهود وينام مدة اطول ، وكان عدد الإعدامات يقل كلما كان ينام . وفي خلال عامي ١٥٧٤ ــ ١٥٧٥ قام نزاع مستمر حول من له حــق التصدر في البلاط مما أعطى الفرصة للقيصر في توسيع تشاؤمه الغريب . فقد كان يعتقــد انه محاط بخونة خطرين بينما لم يكن كل البلاط مخلصاً لــه فحسب بل منبطح ودنيء أيضاً .

وقد وجه الأمبراطور مكسمليان سؤالاً للسفير سوكورسكي : كيف يمكن أن يوجد روس يخدمون طاغية بمثل هذه الطاعة والعناية . وأجاب السفير :«نحن الروس نخلص لعاهلنا سواء كان طيباً أو قاسياً».وحدث مرة أن رجلا مرفوعا على الخازوق بقي يكيل لجلاده القيصر آيات المديح وسط آلامه حتى آخر زفرة في حياته . لذلك كان سهلا على إيفان أن يحل الصعوبات الناجمــة عن مسألة الصدارة ومكانــة حديث النعمة الطارىء الجديد بوريس غوردونوف . كانت كلمته قانونا . فلم يكن إلا أن يعلن عن المرتبة التي سيحتلها رجل في البلاط أو الجيش حتى يكون قراره مقبولا بدون اعتراض . ولكنه بدلا من ذلك ترك العائلات تختصم . وكما سيفعل بطرس الأكبر من بعد فإن إيفــان كان يفضل الموهبة على نبالة

المولد . كان يعتبر انه ليس ادنى إلا من العائلة المقدسة وحدها ، أما غالبية نبلاء المولد فإنما يرتبطون كلياً به ومن ليس له هـذا الارتباط يعتبر من سقط المتاع ومن الصعب أن يشعر القيصر بوجوده . لم تكن تفتنه التقاليد . ولم يكن يتأثر بقول أن المكانة التي يحتلها الجد في الجيش يجب ان تحدد مكانة الحفيد . كان يحب النقاش والاثارة . وكان يسمح للناس بالعصيان كي يتمكن من الاستماع الى دفاعهم وأن يرد عليهم قبل تسليمهم للجلاد .

ولكن ايمانه بذنب الناس كان يتعاظم بعد اعدامهم . فما لم يكن إلا عنادا أو خروجا على الطاعة يتحول في ذهنه الى خروج عن الولاء حتى ينقلب بعد ذلك الى خيانة. كان يلوي يديه من اليأس ويتساءل : « ما العمل عندما يكون المرء محاطا بالخونة مثلي ! » . وكان في الوقت نفسه مقتنعا بفساده الشخصي ولكنه ينظر إلى خياناته الزوجية وشراهته على انها خطاياه الرئيسية . ومن المحتمل انه كان مقتنعا لبعض الوقت قناعة جازمة بأن القيصر لا يمكن أن يقوم بأعمال إجرامية ، ولذلك فإنه قلما ندم على قتله لأحد . كان يؤمن بهـذه الفكرة المجنونـة بأن الموت الذي يفرضه هو كان شرفا أو تضحية مستساغة لله ويكن احتقارا كبيرا لأولئك الذين يفرون من الشهادة . فتعذيب الضمير والشعور بالذنب على الدم المراق كانا بعيدين عنه كل البعد .

وفي عامي ١٥٧٤ ــ ٧٥ أضحى القتل شيئا مألوفا وكثير الحدث. وكانت هذه الحقبة فترة مظلمة في تاريخ إيفان العائلية لأن خياله قصّر عن ابتداع الجديد من الأمور . وتسبب إلغاؤه للأوبريتشينا في قيام هذا التنافس على مكان الصدارة . ولكن تفاصيل هذا التنافس الذي لا ينتهي وما قام به القيصر من إعدامات وأعمال نفي وما احرزه من انتصارات وما تسبب به من اهانات كل ذلك أقل أهمية من دراسة الحالة العقلية لإيفان . فقد اجتاحته شيخوخة مبكرة . وكان النزاع أكثر حدة بين اضطراب حواسه ورغبته في أن يصبح راهبا وأن يتخلى عن العالم والشهوات .

وفي نحو من نهاية عام ١٥٧٤ لوحظ عليه قلق جنسي جديد . كان قد مل زوجته آنا . وقد فسروا ملاله بسبب أنها عاقر رغم اننا لا نستطيع أن نرى الفائدة التي يمكن أن يجنيها إيفان من قدوم المزيد من الأولاد . والأكثر احتمالا انه كان يعتبر عقم هذا الزواج دليلا على أن الله لم يكن راضيا عن زواجه بامرأة رابعة . وهكذا اتجه الى ليونيد مطران نوفغورود الذي اجاز هذا الزواج وحمله كل إثم لتجاوزه على قوانين الكنيسة التي تحرم الزواج من امرأة رابعة . ورغم الصداقة التي كانت تربطه بهذا الحبر المرتشي فإنه استدعاه أمامه وانتزع عنه ثيابه بيديه ووضعه في جلد دب وخاط عليه ثم رماه للكلاب لكي تمزقه حتى الموت .

حدث ذلك على ما يبدو في مطلع عام ١٥٧٥ . وغدت آنا مطلقة مقصوصة الجناح واستبدلت باعظم مجد يمكن أن تكلل به امرأة روسية تقشف زنزانة في دير . وغدا اسمها الأخت داريا . وكان عليها أن تعيش بعد ذلك واحدا وأربعين عاما قضتها كلها في ذلك الدير الذي أبعدت إليه . فماذا كانت آخر كلمات إيفان لها عندما هجرها ؟ ، لا نعرف شيئا عن ذلك !. ولكننانستطيع أن نفترض أنه افضى إليها بعزمه على الاحتذاء بها والتخلي عن العالم وعن العرش . ولا شك انه كان صادقا لأنه نفذ ذلك في العام التالي هاجراً عرشه كي يكون راهباً .ولكن كان في طبيعته ميل جنسي لا يقاوم هو سمة من سماته المسيطرة وعائق يعرقل كل قرار يتخذه ليكون راهباً . كان قد اصبح ــ كما رأينا ــ رئيس دير تصحبه خليلاته ، ولكن ذلك لم يكن كافياً لإرواء رغبته في ارتداء اللباس الأسود. وخلاصه من آنا كان بالنسبة له فرصة جديدة لنذر نفسه للعزوبة المقدسة . ولكن مقاومته للجنس كانت ضعيفة جداً فاتخذ في سريره فتاة أخرى من الشعب اسمها آنا فاسيلشيكوف كانوا يطلقون عليها غالبا لقب زوجته الخامسة على الرغم من أن هذا الزواج تم دون مباركة من الكنيسة. وقبل أن يتخذ آنا كان قد عاشر أرملة جميلة اسمها فاسيليسا ميلينتييف . فاذا اعتبرنا هاتين السيدتين الأخيرتين زوجتين له أمكننا

القول إن إيڤان تزوج مرة خامسة وسادسة . ومع ذلك ففي السنة نفسها التي اتخذ فيها أنا فاسيلشيكوف لفراشه تخلى عن العرش .

ففي أحد الأيام ، وكان ذلك في نهاية عام ١٥٧٥ بدون شك ، قال إيڤان لأحد أمراء التتر من أتباعه : « اعتبارا من الآن ستكون القيصر وسأكون من رعيتك ! » . كان هذا الأمير هو الخان حسين بولاد ، تتري أخرق طيب القلب تعمّد تحت اسم سيميون وتزوج من احدى بنات موتسلافسكي . ولم يكن ثمة تنازل عن العرش ولا تتويج رسمي ، كل ما فعله القيصر هو انه اخذ تاجه وزين بين جبين التتري وهو يقول : « احمله ! » .

« لقد تخلى عن السلطة ــ كتب أحد المعاصرين ــ كما لو أنه كان ينوي الانسحاب من الحياة العامة ويبدأ حياة هادئة » .

ولأول مرة في كتابات ذلك العصر صاروا يتكلمون عن إيڤان على أنه عجوز . وعندما قام بهذا التنازل كان له من العمر خمسة وأربعون عاماً . على انه لا يوجد لسوء الحظ إلا القليل من الوثائق الروسية حول هذا الموضوع ، والمؤرخون الروس كبارهم وصغارهم يجهلون بصورة عامة هذا الحدث كما لو انه لا يعني شيئا او انه لم يحدث في الأصل .

وقد يمكن التفكير في البدء ان هذا التنازل كان واحدا مما كان يقوم به العاهل من مزاح كثير وانه كان له في النتيجة نهاية مأساوية. فقبل سبع سنوات كان إيڤان قد قام بالحركة نفسها عندما وضع رداءه وتاجه فوق الأمير فيديروف العجوز ثم قتله بعد ان قاده الى العرش . ويوجد تشابه في التعبير بين ما قاله إيڤان في هاتين المناسبتين . فقد قال لفيديروف : « كما أن لي السلطة في أن أجعلك قيصرا فان لي السلطة ايضا في أن اقتلك » . أما بالنسبة لسيميون فقد قال لمبعوث الملكة اليزابيث : « لم اتخل عن السلطة لدرجة أني لا أستطيع استعادتها عندما اريد . فالقيصر سيميون يحمل تاجي ولكنني املك سبعة تيجان مثله بالاضافة الى ثروتي » .

ولا يوجد الا القليل من الشك حول اعتلاء التتري العرش وأنـه تمتع حلال عام بالسلطة الأوتوقراطية الصورية . فكان يتلقى العرائض كلها ويوقع الوثائق كلها باسمه الشخصي وبخاتمه الشخصي . « باسمه في جميع المحاكم كانوا يتقاضون ، وباسمه صكت النقود وجبيت العـائدات الجمركية وفرضت بشكل عرضي بعض الغرامات والضرائب » كما كتب أحـد المعاصرين . وبما أنه قيصر كان يستقبل المتروپوليت والأساقفة والنبلاء وسفراء الدول الأجنبية أيضا وإن كان بعض السفراء والمعتمدين الأجانب قد رفضوا التعامل إلا مع إيڤان نفسه . وعندما قاموا يبحثون عنه اكتشفوه مرتديا بزة بورجوازيـة ورفض أن ينادوه بلقب الجلالة ، وكان اندهاشهم كبيرا عندما وجدوه على هذا الحال . وكان إيڤان قد سحب مرة اخرى وبسرعة كبيرة الامتيازات التي كان قد منحها للتجـار الانكليز وفرض عليهم غرامات ورسوم غير محتملة . وغدا مع تقدمه في السن شديد البخل . فعندما كان يأمر بقتل عائلة بكاملها كان يصـادر في العادة ثروتها ، وهو ليس في منجى عن الاتهام بأنه قتل بعض النـاس لغاية واحدة هي الاستيلاءعلى ثروتهم . كان دائما يعبىء براميل بالذهب، ولا ينظر بعين الارتياح للتجار الأجانب وهم يشحنون المال ويخرجون به من البلاد . وربما كان قد أستخدم سيميون قيصرا ما بين عام ١٥٧٥ — ٧٦ ليقوم باعتصارهم اكثر واكثر .

على اننا لا نستطيع أكثر من أن نقدم فرضيات عن حالته العقلية خلال السـنة التي تخلى بهـا عن العرش . فكـل ما تتضمنه الوثائق الروسية قد دمر في الحريق الذي اصاب موسكو عام ١٦٢٦ . ونحن نميل الى التفكير بأن هذا التنازل إنما كان يعبر عن مرحلة دورية مـن مراحل التدين الذي كان ينتاب القيصر . حقا إنه لم يعط لتصرفه اي تفسير ولكنه قال : « إ نني اتخلى عن ازمة الحكم واضعها بـين يدي رجل غريب بسبب ما يقـوم به رعاياي من اعمال ضالة فاسـدة » . وعندما استعمل الحجة نفسها في كانون الأول ديسمبر من عام ١٥٦٤ كان يقوم بمحاولة للتخلي عن العرش عندما غادر موسكو والتجأ الـى

ألكسندروف . وهكذا فإن ظاهرة التنازل الدوري تبقى أكثر قرباً إلى الفهم من الأسباب التي يقدمونها في هذا المجال . وسنرى في المستقبل بعد أن يقوم بقتل ابنه أن فكرة التنازل هذه تعاوده مرة أخرى . كان دائما خائب الظن والرجاء وانتهى به الأمر الى أن يجعل من نفسه راهباً لحظة وفاته في عام ١٥٨٤ .

في خلال هذه الحقبة قام مؤرخ برسم مشهد مشؤوم لحكم سيميون وايفان : « في نحو من نهاية العام ١٥٧٥ قام الملك الجديد بجمع كل صكوك الامتيازات الممنوحة للأسقفيات والأديرة والتي كانت هذه تتمتع بها منذ عدة قرون والغاها جميعها . وعندما استعاد إيفان عرشه دعيت كل المؤسسات الدينية لتجديد امتيازاتها . واستفاد ايفان من هذه الفرصة لينتزع منها القسم الأكبر من ثروتها » .



الفصل الحادي والثلاثون

إتيين ملكـاً على بولونيـا

سعت بولونيـا لتنظيم نفسها في مملكـة ليست انتخابية فحسب وإنما دستورية أيضا . وكان فيها حزب للبروتستانت الأقوياء أصحاب النفوذ الذين كانوا يريدون أن يخفضوا من سلطة الملوك ويصونوا حرية الرعايا ، وقد قبل كل المرشحين للعرش قبل الانتخاب هذه الشروط . ولاشك أن كل واحد منهم كان يقول في نفسه إنني ما أن اصبـح في السلطة حتى أتنكر لهذا الارتباط أو الفيه . ولم يقبل ايقان بأن يكون زواجه أو طلاقه رهنا بموافقة الدييت البولوني ، أما أن يقسم المرشـح بألا يتعرض للحرية الدينيـة بأذى ولا يعرقلها فهـو أمر لم يكن يكدر إيقان لأنه لم يكن مضطهداً للهراطقة وإنما كان لهذا الشرط فعل السم على دوق أنجو الذي كان من غلاة المذهب الكاثوليكي . وكـان ينبغي على الملك أن يحكـم بمساعدة مجلـس مؤلف من اربعـة عشر عضوا ينتخبهم الدييت وحده وأن يعترف بأنه لا يستطيع انتقاء خليفة لـه على العرش . وأخـيراً إذا لم يحافظ الملك المنتخب على الوعود التي قطعها على نفسـه وأقسم على التمسك بهـا فان الدييت بعد القيام بواجب انذاره يكون حرا في خلعه وانتخاب آخر بديلا عنه .

في لحظة انتخابه للعرش كان دوق انجو في باريس حيث أدى اليمين هناك ، ومضى ستة أشهر قبل وصوله للتويج . وكان يلتف حولـه النبلاء من مذهبه ورجال دين متحمسون يتمنون بحرارة أن تزال من صيغـة القسـم المـادة المتعلقـة بالبروتستانتيـة . ورغـم أن هـذا

القسم كان ينبغي أن يكرر لحظة التتويج فان الدوق حاول أن يتناساه. ولكن المطران عندما كان يستعد لوضع التاج على رأسه تقدم عضوان من اعضاء مجلس الدييت واعترضا على التتويج واستولى أحدهما على التاج ولم يشأ أن يرده حتى يتم ترديد القسم بكافة بنوده . واعتقد ابن كاترين دوميديسي المدلل أن البولونيين قوم خشنون. فهذا السيد الافرنسي الصغير الذي كانت يداه ناصعتي البياض كان ضعيفا وقليل الذكاء . وقد قال أحدهم وهو ينظر اليه إنه لا يدري إذا كان يجب ان يسمى ملكا — امرأة أم ملكة — رجلا . واخيرا خضع وأدى اليمين الذي بدا انه انزل من قيمة هذا الملك الذي اعتلى عرشه الى الصفر .

ولكنه ما لبث أن غدا ساخطا على بولونيا بمقدار ما كانت بولونيا ساخطة عليه ، بل ربما كان سخط بولونيا عليه أكبر لأن البولونيين كانوا يظنون انهم سيسيطرون على هذه الشخصية الضعيفة ويقودونها حيث يشاؤون . وكان عزاء كبيراً له عندما علم في حزيران يونيه ١٥٧٤ بموت اخيه . فقد قضى شارل التاسع نحبه وهو في سن الرابعة والعشرين فخلفه دوق انجو تحت اسم هنري الثالث . وما هو طريف في الموضوع هو أن البولونيين لم يشاؤوا أن يدعوه يمضي الى ملكه الجديد ، وربما ظنوا أن بامكانه ان يحكم فرنسا وهو على عرش فرصوفيا كما لو انها ملك لبولونيا أو مستعمرة لها . ففي ذلك العصر — كما هو الأمر دائما — كان البولونيون يأخذهم غرور قومي كبير . وهكذا توجب على هنري الثالث أن يفر بالسر أثناء الليل ممتطيا صهوة جواده ويلاحقه النبلاء البولونيون ، ولكنه اجتاز الحدود ولم يعد أحد يستطيع أن يرده ، وخلعه الدييت رسميا عن العرش في أيار مايو ١٥٧٥ .

وبقيت بولونيا في حيرة من امرها . واجتاح التتر أوكرانيا في سعيهم وراء خصوم الـبين عريكة من الروس واختطفوا خمسين ألف شخص قادوهم العبودية . وغدت البلاد في حاجة ماسة لملك قوي .

وكان ضعف دوق انجو قد خلق في البلاد عصبة قوية كادت ضراوتها أن تودي بالبلاد الى حرب اهلية . وعندما قرر الدييت ومجلس الشيوخ انتخاب ملك جديد تم اختيار مرشحين هما الامبراطور مكسمليان والأمير إتيين باثوري الهنغاري ، ولكن القدر كان كريماً ، فقد كان مكسمليان على فراش الموت ولم يستطع الوصول لتتويجه في الوقت الذي سارع فيه الشاب الهنغاري الجريء بالوصول الى كراكوفيا وقوى مركزه بزواجه من أنا الأخت الصغرى لسيجسموند أوغست حيث تم تتويج الاثنين معا في الفاتح من أيار مايو ١٥٧٦ . اما مكسمليان فقد توفي في الثاني عشر من تشرين أول أكتوبر التالي .

وهكذا أصبح الآن على عرش بولونيا رجل قادر ونشيط ، وفهم القيصر فورا أنه سيجد فيه العدو الخطر . ومما لا شك فيه أنه بسبب شعوره بضرورة العمل الجاد النشيط تجاه هذا الوضع أنهى تلك الملكية الصورية لسيميون وعاد الى العرش .

وكان الملك اتيين قد اشترى السلم من الاسلام بدفعه جزية السلطان . ثم ما لبث أن أعلن عن نيته باستعادة كل الأراضي التي استولى عليها الروس من بولونيا في ساحات القتال . وفي أول رسالة بعث بها الى إيفان وعين بموجبها سفراءه اهمل أن يلقبه بلقب القيصر وحذف القابه كدوق لسمولنسك ودوق لپودولسك بينما سمى نفسه هو عاهلاً على ليفونيا . وقد استقبل إيفان السفراء استقبالاً حافلاً في الكريملين وذلك في تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٥٧٦ . وكان سيميون قد اختفى . وعلى العرش كان القيصر معتمراً تاجه والى جانبه ولي عهده إيفان والاثنان في ملابس حيكت من الذهب . وكان الميدان الكبير غاصا بالجنود . وقد سعى القيصر لأن يؤثر في نفوس مبعوثي جندي حديث النعمة كإتيين . ولم تبد على إيفان أية بادرة تدل على أنه كان غاضبا . أما الملك إتيين فكان يطالب في رسالته الحفاظ على هدنة السنوات الثلاث التي كانت قد وقعت بين بولونيا وروسيا ويعلن

انه ينوي المحافظة عليها « حتى انتهاء أجلها » . وكان ذلك يناسب القيصر تماماً ، إلا أنه لم يدعُ السفراء للعشاء على مائدته وبهذا الإهمال وحده أظهر تجاههم برودته .

عند انتهاء أجل الهدنة كانت الحرب لا بد منها . وقرر إيفان أن يستفيد من كل الوقت الذي بقي أمامه بالطريقة التي تؤمن له امتلاك ليفونيا وسواحل البلطيق . وكان الجيش جاهزا . وأطل التتر مسرعين يمتحنون قوة خصومهم ولكنهم ما لبثوا ان عادوا بأسرع مما أتوا . فبعد السنة التي قضاها إيفان في الاجازة بدا أنه غدا أكثر تأهبا وحذرا . لم يكن يهمل شيئا من أجل حماية موسكو ضد أي هجوم ، وأمكنه بذلك أن يتجه نحو الشمال الغربي وهو يشعر باطمئنان كبير .

بدأت الأعمال العدوانية خلال الشتاء البارد المليء بالزوابع من عام ١٥٧٦ ـ ٧٧ . فحاصر الروس ريفال من جديد دون أن يهتم الملك إتيين بذلك لأنه كان يحاصر دانزيغ التي كانت قد اعطت أصواتها لمكسمليان وتفضل القتال على الاعتراف بباثوري(*) . وكان ملك السويد قد كتب لإيفان ينصحه بألا يهاجم ريفال لأنه ينوي بيع المدينة الى الامبراطور الذي سيخلف مكسمليان والذي يمكن للروس أن يقوموا بتسوية معه . ومع ذلك فإن السويديين دافعوا عن مدينتهم ببطولة ، فرغم الهجمات التي دفع بها الروس من جهة البحر الذي يغطيه الجليد فان السويديين ألحقوا بالروس من الخسائر أكثر مما ألحقه الروس بهم . وكان البؤس والحرمانات قد جعلت الليفونيين أكثر صلابة فلم يعودوا أناسا مائعين أو مخنثين كما كانوا في عهد الفرسان التيوتون . ورغم الانتصارات التي تسلسلت عبر سنين طويلة فان إيفان كان قد ارتكب خطأ بأنه لم ينجز فتحه وينهيه بمعاهدة صلح . وكان لا بد من إدارة مدنية لتنظيم الأرض المفتوحة وإخضاعها للدولة الروسية ، وفي هذه النقطة نرى كم كان

(*) هو إتيين . ـ المترجم ـ

ألكسي ارداتشيف شخصاً لا يعوض بالنسبة للقيصر لو انـه وفر عليـه حياته . كان من بعد النظر أن تقوم الرغبة في فتح ليڤونيا لاعطاء روسيا منفذا على البلطيق ، ولكن لم يكن مسوغا ابدا ما قام في ليڤونيا نفسها وفي روسيا من إرهاب شديد . وكان عقاب نوڤغورود وما نجم عنـه من تدمير لتجارتها قد تسبب في نكسة للسياسة اللتوانية ، إذ كانت نوڤغورود أكبر مدينة في روسيا أو تكاد ، كما كانت الحلقـة التي تربط التجارة بين روسيا وليتوانيا .

فلم تكن ليڤونيا تشعر إذن بوجود مصلحة مشتركة تربط بينهـا وبين الروس . وتفشت كراهية الروس حتى بين الاستونيين الأكثـر تواضعا وبين أقنان الأرض من الليتون . ولما بدا على الروس التقهقر في ساحة النزال لم يكن هؤلاء الاستونيون والليتون آخر من قامـوا يطلبون الثأر . فقـد مشى فلاحون مسـلحون يقودهم رجـل يسمى « هانيبال » من نصر الى نصر خلال الأشهر الأولى من عام ١٥٧٧ حارقين مدنهم وقراهم لطرد الموسكوفيين . فاستولوا على ويتنشتاين وأحرقوا پيرنو وردوا لإيڤـان ما ذاقوه منه بوضعهم اعـدادا من الروس تحت العـذاب .

ولكن القيصر جمع قوات كبيرة . واصبح القيصر السابق سيميون الذي غدا دوقاً على تڤير يقود الآن جيشاً بالغ الأهمية . وعاد ماغنوس ليظهر على مسرح الأحداث واعاده القيصر بين المقربين اليه حتى أنـه مضى لفتح المملكة التي كان يشتهيها ويحلم بها . والواقع أن ماغنوس كان يلعب لعبته الخاصة وكان مستعدا لقبول حماية ملك بولونيا على شرط أن يكـون متأكدا من حصوله على مملكته . وقد أمره القيصـر بالاستيلاء على ڤندن فاستولى بسهولة عليها دون اللجوء الى السـلاح بل بإعطائه وعداً لسكانها بالحريـة والأمان من ظلم الروس ، ثم تابـع تقدمه من تلقاء نفسه تحييه الجماهير كما لو كان منقذا وملكا عـلى ليڤونيـا .

وكان الليفونيون يجهلون الجهة التي يتوجه اليها جيش إيڤان الكبير . وكان يفترض انه سيبدأ حصارا جديدا على ريڤال ، ولكن الجيش أضاع أشهرا عديدة بدون عمل وهو يقوم بالمناورات والتمرينات والاستعراضات العسكرية . وقد قضى القيصر وابنه وقتا في بادىء الأمر وهما يتسليان في نوڤغورود وبسكوف ، ولم يبدأ التقدم إلا في الخامس والعشرين من تموز يوليو وكان متجهـا الى ليڤونيا الجنوبية التي كانت مقاطعـة يديرها البولونيون بسلام . ولـم تكن الهدنة قد انقضى اجلها عندما اصبح إيڤان في حرب مفتوحة مع الملك الجديد . وتمكن الروس بشكل لا يقهر من أن يكنسوا أمامهم كل شيء مستولين على المدينة بعد الأخرى دون أن يلقوا إلا مقاومة ضعيفة . وعندما كانت توجد مقاومة كان القيصـر بعد الفتح يسلم المدينـة للسلب والنهب . وكانت الحملة موفقة في البداية ، ولكن إيڤان ما لبث أن فوجىء بالتقدم العسكري البطولي لحليفه ماغنوس الذي ــ باعتباره ملكا على ليڤونيا ــ أصدر للقيصر أمرا باحترام حقوق رعاياه . وقد قدم ماغنوس قائمـة بالمدن التي اعترفت به ملكـاً بما في ذلك دوربات DORPAT ، دون أن يكون لديه شعور بالدعابة ، ولم يكن مثل هذا الشعور موجودا لـدى إيڤان أيضا فوضـع مبعوثي ماغنوس تحت السياط . وأكثر من ذلك انه استولى على اول مدينة وردت في قائمة المدن الموالية وقتل من فيها من جنود ماغنوس بحد السيف . وبعد أن أعلن قائمة بأسماء الرعايا الموالين لماغنوس فيها أرسل كل سكانها رجالا ونساء وأطفالا الى الأسر. كان هذا هو مصير كوكنهوسن . وبينما كان القيصر يتجول في شـوارع هذه المدينة المنكوبة دخل في نقاش مع واحد من الكهنة البروتستانت. كانت تلك هي السمة المميزة لإيڤان . ففي وسط الدخان والخراب كان مستعداً دائمـاً للنقـاش الديني بل إنه كان يسعى إليـه . ولكن هذا الحديث لم ينته بشكل معتدل . فعندما قام الكاهن يمتدح خصال بطله لوثر ويقرنه بكل وقاحة بالقديس بطرس طفح الكيل مع إيڤان فرفـع عصاه المدببة الرأس بالفولاذ وغرسـها في جسد الكاهن وهو يصرخ : « اذهب إذن مع لوثرك هذا الى الشيطان » ثم تابع طريقه .

وكتب إيفان الى ماغنوس رسالة احتقار بادئا بها بعبارة « ملكنـا الشحاذ » يلزمه فيها أن يبقى ضمن حدود الأوامر التي أصدرها اليه أو أن يعود الى بلاده من حيث أتى عبر البحر وإذا لم يفعل فان عليـه الا ينسى انه ليس بعيدا عن مدى ذراع القيصر .

كان انصار ماغنوس يحتلون عدة أماكن حصينة من ليڤونيا ولكنهم سقطوا بين أيدي الروس وقطعت رؤوسهم كلهم تقريبا . أما ماغنوس فقد اتى زاحفـاً امام القيصر وقدم له خضوعه . وكان بإمكان إيڤـان أن يضربه حتى الموت ولكنه بدلا من ذلـك امره بالنهوض وقال له : « أيها الأبله !. كيف يمكنك الظن بأنك ستكون ملكا على ليڤونيا أيها الشحاذ المتشـرد ، أنت يا من أدخلتـه في عائلتي وزوجته ابنة أخي الحبيبة(*) ، أنت يا من كسوته والبسته النعال واعتنيت بأمره كيف تجرأت على خيانة مليكك وحاميك ؟. أجبني !. سمعت عدة مرات من مخططاتك السخيفة المستقبل ولكنني لم أكن أستطيع تصديقها ولـم أقل شيئا ، والآن تكشفت هذه المخططات . لقد اعتقدت أنك تستطيع الحصول على كل ليتوانيا وتصبح خادما لبولونيا ، ولكن الإله الرفيق العطوف جنبني ذلك وأسلمك الى يدي . سوف أعاملك كما تستحق. ستعيد إلي كل ما هو لي وستعود الى العدم من حيث خرجت » .

على أثر هذا الكلام تم إلقاء القبض على ماغنوس ورجال حاشيته الذين كانوا في صحبته وألقي بهم فوق فرش من القش في غرفة من منزل عتيق لينتظروا هناك قرار القيصر . وقد حدث ذلك خارج مدينة ڤيندن التي كانت راية ماغنوس تخفق فوقها . وطلب هذا الأمير مـن وجهاء المدينة ان يستسلموا دون نقاش من أجل الحصول على افضل الشروط الممكنة وتجنب غضب القيصر ، ولكن الذعر كان قد استولى على السكان وبخاصة أولئك الذين كانوا أكثر صلابة في دعم ماغنوس . واستولى الجيش الروسي على ساحة السوق وعلى القسم الأكبر من

(*) ذكرنا أنها كانت ابنة ڤلاديمير أندرييفتش ابن عم ايڤان — المترجم

مدينة ڤيندن ولجأ السكان المذعورون جماعات الى القصر العتيق الذي كان يشرف على المدينة . في هذا البرج تكدس الناس رجالا ونساء وأطفالا مع كل ما يملكونه وهم مصممون على المقاومة هناك دون أن يعرفوا السبيل الى ذلك . وعلى الرغم من انهم لم يكونوا يملكون أي احتمال للصمود فان الرجال فتحوا نيران طبنجاتهم على الروس الذين كانوا يتقدمون وجرحوا منهم العدد الوفير فكان ذلك كافيا للحكم عليهم بنهاية رهيبة . لقد رأى القيصر الغاضب ضحاياه وقد أحكم عليهم الفخ ، ومن أجل ان يظهر لهم نواياه أخذ من بين الأسرى جورج فيلك الليڤوني البارز المدافع عن فولمار — وكان قد استسلم منذ فترة وجيزة — ووضعه على الخازوق تحت أنظارهم . ثم أمر بتقدم المدافع وتصويبها الى جدران القصر واستمر القصف ثلاثة أيام حتى تصدعت الجدران وانهارت على المدافعين . وعند ذلك لجأ هؤلاء البؤساء الى القيام بعمل بطولي أوحاه الخوف واليأس .

ملؤوا الأقبية بالبارود ، ثم ركعوا للصلاة بينما كان أحدهم وهو هنري بواسمان يحمل مشعلا ملتهبا ألقاه على البارود فتفجر القصر بكل من كان موجودا فيه وانقذف الحصن والمدافعون عنه في الهواء وهلك الجميع باستثناء بوسمن الذي لم يعش بعد ذلك إلا قليلا ، فقد وضع جسده المسود على خازوق ولكن لم يكن قد بقي له من العمر ما يسمح بتعذيبه . أما القيصر الذي خاب أمله فقد ارتد في شدة غضبه على من بقي من السكان فشدد في عذابهم وقطعهم وأحرقهم أحياء ، واستمرت أعمال العنف والاغتصاب أياما طويلة في كل مكان .

هذا العقاب الرهيب زرع مخافة إيڤان في كل أرجاء ليڤونيا . وكان القيصر أشد قسوة من كل قواده فكان يوجد بشخصه أثناء العقاب . وقد فعل الخوف منه أكثر مما فعله كل جيشه ولذلك لم يجد صعوبة كبيرة في فتح كل المقاطعة . فالمدن كانت تخضع لدى أول انذار وكان يمشي من نصر الى نصر . وقد تجنب محاصرة ريغا وريڤال لأن استسلامهما كان يتطلب الكثير من الوقت بينما غدا كل الباقي من البلاد بين يديه .

وقد اقام احتفالا كبيرا في فولمار وكان راضيا عن نفسه كل الرضا . وفي دوريات عفا عن ماغنوس الذي كان قد وضع في الاغلال وينتظر لحظة الإعدام في كل آن . وكان إيفان يتسلى بأن يدع سجينه يعتقد بأنه دائماً ملك على ليفونيا تحت حمايته ورعايته . وقد اشترط عليه أن يدفع اربعين الفا من الفولدينات الهنغارية يصبها في خزانته . وكان ماغنوس مستعدا ليفعل اي شيء في سبيل أن ينال حريته . واخيرا سافر ايفان الى الكسندروف لكي يأخذ قسطا من الراحة بعد ما بذله من جهود .

هذه الراحة على أمجاده كانت تماما من طباعه الثابتة . ففي قازان ، في أول مباشرة عسكرية له ، ترك مبكرا ميدان العمليات في وقت لم يكن النصر قد تأكد بعد . أما إتيين ملك بولونيا فكان لا يزال مشغولاً باستعداداته ولم يكن بعد قد قام بينهما لقاء . ولكنه كان يهيىء لحملة عسكرية كبيرة مشتريا المرتزقة ومستعيرا الرجال او مستأجرا إياهم الى اجل ومستهزئاً بالدييت البولوني ومعلقاً مستقبله على هذا اللقاء الذي سيتم بينه وبين الدولة الموسكوفية . وأما إيفان فكان مزهواً بنفسه . ومن فولمار كتب الى الخائن كوربسكي رسالة ازدهاء وفوز . وكان الاستيلاء على هذه المدينة يذكر العاهل الروسي بدين واجب الوفاء . فإلى فولمار كان كوربسكي قد لجأ في بادىء الأمر هارباً من غضب القيصر ، وكان إيفان يحلم دائماً باليوم الذي سيجبر فيه البولونيين على تسليم الخائن لينتقم منه شر انتقام وبميته تحت العذاب .

كتب في رسالته : « إن المدن الالمانية سقطت بدون قتال لدى رؤيتها الصليب الحي » . ومن البديهي أنه كان ينسب هذه الاستسلامات المتلاحقة الى تدخل العناية الالهية لا الى الخوف الذي أثاره ما لحق فيندن من عقاب . كان عميق القناعة بأنه بتجنبه موضوع كوربسكي إنما يعرض سلام نفسه للمخاطر . فقد كان كوربسكي في بادىء الأمر حليفاً للشيطان بانصياعه لمؤامرات الكاهن سيلفستر والكسي أرداتشيف، فدعاه إيفان لئلا ينسى أن الشيطان هو أيضاً يباهي بانه يستطيع الذهاب والمجيء ، الصعود والهبوط على كل نقاط الأرض .

وكان كل ما يتمناه كوربسكي أن يوطأ ايفان ويزدرى وأن تصير ارادته في روسيا الى العدم . وقد كتب له القيصر : « لو انك لم تفصلني عن زوجتي لما كان كل هؤلاء الضحايا » . وإنه لمن المثير للفضول أن نرى ايفان بعد كل هذه المغامرات فيما عقده من زيجات لا يزال يتحسر على فقدانه اناستاسيا . هنا نجد ايفان الكهل الذي لا تنعقد أفكاره على ميدان المعركة كما لم تنعقد على الماضي . فيما مضى ، خلال حبه الأول ، وقبل ان تنثلم حياته كان سعيدا . وفي سنه السابع والأربعين ورغم انتصاراته على أعدائه ونجاحاته الكبيرة لم يكن إلا عجوزا متوحدا واحيانا تعذبه تبكيتات الضمير .

كان متوحدا معذب الضمير ولكنه ما يزال ميالا الى الدعارةوالفجور، فالنار الحمراء لم تكن قد انطفأت فيه بعد . في فيندن كان يوجد الكثير من اللهيب . وكانت قوته لا يدركها الحساب ، وهي لا تزال قادرة على الانفجار في كل لحظة لتحرق الرجال والنساء ، إلا أن كبرياء صموده وخصاله الرائعة عندما يمنح نعماءه لأحد ، وحماسته الدائمة في صلواته، كل ذلك لم يكن بامكانه أن يخمد هذه النار . ولا شك أنه كان يعرف عندما كتب الى كوربسكي باعتباره — أي ايفان — المفضل والمصطفى من الله انه كان قادرا على تعذيب الأبرياء وايصالهم الى هاوية الموت بلا تسويغ ولا تمهيد .

في نهاية الخريف كان وصول إيفان الى الكسندروف . ولكن عام ١٥٧٧ لم ينقض بدون سورة جديدة من الغضب القاتل . وكانت رسالته الى كوربسكي وهذا التذكر الذي قام في نفسه للماضي جعلاه يعود الى الزمن الذي كان فيه مشرفا على الموت ونبلاؤه يتآمرون عليه وعلى ابنه وزوجته اناستاسيا ويريدون أن يستبدلوا به ابن عمه الأمير فلاديمير اندرييفتش . وقد عوقب فلاديمير على ذلك كما عوقب معظم الناس . وهلكت كل عائلة أرداتشيف وعائلات الخونة وصودرت أملاكهم . ولكن بقي منهم عجوز ربما كان الجندي الأكثر بطولة والأكثر كفاءة في الجيش هو الأمير ميشيل فوروتنسكي الذي يعود إليه الفضل في أول حملة

عسكرية للقيصر تفتح فيها مدينة قازان عام ١٥٥٢ . وهو الذي اندفع بنشوة النصر ليقاطع القيصر في صلاته ويصيح : « قازان لنا ! » .وعندما عاد القيصر الشاب عام ١٥٦٠ الى طرائقه العنيفة نفى الأمير وزوجته وعائلته الى بيبلوأوزيرو ثم رضي عنه بعد خمس سنوات عندما خلق الأوبريتشينا . على أن الأمير لم تكن له علاقة قط بهذا الحرس الشخصي للقيصر وإنما اقتصر على أن يكون عضوا في مجلس البويار وفي الزيمشينا. وقد تعرض زملاؤه النبلاء الى اعتداءات الأوپريتشينا والى التعذيب والموت ومصادرة الأملاك ، بينما بقي فوروتنسكي خلال سبعة عشر عاما الخادم الوفي دون ان يكون متأكدا أنه لن يغتال في الغد . كان يخدم بايمان وولاء حسب القاعدة التالية : « إذا كان سيدي يريد موتي فإن له لحق في ذلك ، فأنا أعيش من أجله ومن أجل تنفيذ ارادته » . والقول المأثور التالي يجعلنا نفهم اي نوع من الرجال كان : « يعيش أفضل من غيره من كان مستعدا دائما لأن يموت » . هذا الشعور الغريزي بأن المرء يولد عبدا أو سيدا لم يعد موجودا بيننا منذ عدة قرون حتى أصبح عندنا متعذرا على الفهم . أما لدى السلاف فانهم يسمونه خطأ « بالقدرية » ، وهذه الغريزة هي التي سمحت لفورتنسكي أن يخدم القيصر بنجاح مدة سبعة عشر عاما دون أن يتخذ أية احتياطات للمحافظة على سلامته الشخصية ، ودون ان يفقد أعصابه في يوم من الأيام . لم تكن له مصالح خاصة به وحده ، وقد أحرز لروسيا انتصارات لم يكن ليحرزها رجل لا يشعر بالهدوء والاطمئنان . ومنذ فترة وجيزة بدد شمل التتر الغزاة وانقذ موسكو من نهب جديد . والآن وقد نيف على الستين — وهو عمر متقدم بالنسبة لذلك الزمان — فان حياته كانت تسبح فوق المجد . كان في روسيا اشهر وأبرز العجائز الباقين .

إلا أن فوروتنسكي كان يشغل الآن افكار القيصر الشيطانية . « لقد سمموا حياتي ، وهو أكبرهم » . كان المجرم الحالم يضيق في خياله على ضحية جديدة وهو لم يذق الراحة بعد النصر لشعوره بان سحابة قاتمة كانت تتشكل فوق القصر ، وكان الشيطان يعذبه . كان يستخدم

رعاياه البؤساء ويستغلهم وهم مخدوعون به وبنواياه . كان يرى أن فوروتنسكي هو أكبر الجميع وانه حليف للشيطان ويستعمل أساليب شيطانية للتغلب عليه .

واوقف فوروتنسكي بهذه التهمة التي وجهت إليه ، تهمة التحالف مع الشيطان . ولم يكن القيصر نفسه هو من الصقها بـه بل استخدم لهذه الغاية قنا هاربا من ممتلكات فوروتنسكي اضطر أن ينفذ أوامر القيصر . وبعد أن اعتقل اقتيد فوروتنسكي أمامام القيصر فقال له : « علمني أبي وجدي أن أخدم الله والقيصر بصدق واخلاص لا أن أخدم الشيطان لأنني سأحاكم أمام محكمة الديان ، كما علماني الا ألجأ الى السحر . إن هذا الشاهد الذي يفتري عليّ لص مارق ، فلا تقبل كلام جاحد بديلا عن كلمتي » .

وشنق العجوز على شجرة وأحرق ببطء فوق محرقتين . ويقال إن إيفان حمى بالنار رأس عصاه الفولاذي وغرزه في الأمير الميت . وقبل أن يموت الشيخ قطعوا الحبل وحملوه فوق نقالة الى دير بييلوزيرسك حيث قضى نحبه على الطريق . فحملت جثته الى الدير ودفن بكل مظاهر الاحترام لأن رهبان القديس سيريل كانوا أكثر انسانية من القيصر الذي ما انفك يرسل اليهم الضحية بعد الأخرى .

على أن هذه الجريمة المريعة لم تكن الوحيدة في نهاية عام ١٥٧٧ . فقد مات نيكيتا اودوفسكي تحت التعذيب كما هلك ميشيل موروزوف مع زوجته وولديه ، وربما كان ثمة آخرون لم يجر لهم ذكر .

في مطلع عام ١٥٧٨ وجه إيفان اهتمامه لما كان يجري في الخارج . كان يعرف معرفة جيدة أنه لم يحبط عزيمة بولونيا بانتصاراته في ليفونيا وانها كانت تستعد بنشاط لمواجهته . ولقد سعى لأن يتحالف مع رودولف خليفة مكسمليان على الامبراطورية الرومانية المقدسة ولكن هذا

الامبراطور — برغم كراهيته لإيتيين ملك بولونيا — لم يشأ أن يعقد معاهدة خطرة تقدم بولونيا الى روسيا بينما لا ينال منها إلا هنغاريا .

وفي ذلك الوقت أراد فردريك ملك الدانمرك أن يتحالف مع روسيا على السويد على أن يتقاسم معها ليفونيا واستونيا فيقضي بذلك الى الأبد على الادعاءات السويدية في الساحل الجنوبي من البلطيق . ولكن إيفان بعد ان استشار البويار رفض هذا العرض واكتفى بأن يعقد مع الدانمرك هدنة مدتها خمسة عشر عاما . وقد يكون من المحتمل أن الجيوش الدانمركية لم تكن يومذاك رفداً قوياً ، ولم يكن من المتوقع أن يتمكن إتيين من تعبئة جيش قوي يستطيع الانتصار على الروس . إلا أن رفض التحالف مع الدانمرك كان خطأ ، فالروس كانوا جشعين ، وكان بإمكانهم أن يتخلوا عن الأرض الغربية التي كان يشتهيها الدانمركيون .

وجرت محاولة للتعاون مع التتر على البولونيين والليتوانيين . وقد وزع إيفان الذهب على الخان وأمرائه والهدايا على زوجاتهم ولكن الملك إتيين زايد عليه .

اما الحاميات الروسية في ليفونيا فإنها عندما شاهدت عدم استعداد اعدائها وسوء أحوالهم المعنوية تراخت في نظامها وانضباطها وقضت الشتاء في الولائم والأعياد . وكان الملك إتيين يستفيد من الوقت . كان يسخر من ايفان بأنواع من المزاح كما لو أنه كان هو نفسه سلافياً ، وربما كان فيه بالفعل بعض من الدم السلافي .

كان يكتب رسائل متواضعة يقدم فيها عروضا هادئة حتى نجح في الحصول على هدنة جديدة مدتها ثلاث سنوات . وكان يسعى لإقناع القيصر بأنه لم يكن ملكا نزاعا الى الحروب وانما هو رجل يحسن الكلام ويقصر في العمل . ونحن لا نعرف الى أي مدى تمكن من خديعة الروسي وما لبث أن وصلت الى إيفان أنباء مقلقة من ليفونيا بأن ماغنوس الذي

كان قد وقع معاهدة سرية مع اتيبن قد انضم الى العدو . ثم اخذت مدن ليفونيا واحدة بعد أخرى تسقط بيد الليفونيين . فقد أرسل الألمان براميل من النبيذ الى ضباط حامية دونبرغ ، فلما أخذ منهم السكر مأخذه قام الليفونيون بهجومهم على الحصن وذبحوا من فيه من الروس. وحدث ما يشبه ذلك في ڤيندن حيث قام العدو بهجوم أثناء الليل وفاجأ رجال الحامية النيام . وحاول إيڤان موتيسلافسكي وابنه أن يسترجعا المدينة ولكنهما اصطدما بمقاومة ضارية من جانب العصابات المنخرطة في طاعة الملك إتيبن .

وبدأ في الوقت نفسه جيش سويدي في محاصرة دوريات ، فغزا ضواحيها وذبح فيها عددا كبيرا من العائلات الروسية . وعاد هانيبال مع فلاحيه المسلحين يناوشون الروس الذين غدا وضعهم خلال الربيع والصيف حرجا للغاية وحل الانقسام في مجلسهم في موضوع القيادة . وبدا واضحاً أن وجود القيصر قد غدا ضرورياً فهو وحده يستطيع أن يعيد الى الجيش روحه المعنوية ؛ كما لم يعد ثمة شك في انه بقيادته الشديدة التي لا تعرف الرحمة قد يستطيع أن يحفظ ليفونيا من الضياع ، وربما كان الملك اتيبن داهية ومهما كان نشيطا فانه لم يكن يملك شخصية إيڤان القوية الآسرة . ولكن إيڤان كان قد اغتر بنفسه . فمنذ أن كان في موسكو والكسندروفا أخذ يعامل قادته معاملة سيئة ويهددهم فعرض الخطر كل شيء. وأرسل في الصيف جيش روسي قوي لمحاصرة فيندن ولكنه كان يشكو من سوء القيادة كما انه تعرض لضغط قوي قام به جيش مزيج من السويديين والليتوانيين والليفونيين تساعدهم أيضاً قوة من التتر حتى اضطر القائد الروسي الى الفرار الى دوريات، تاركا جيشه يعالج صعوباته بنفسه . وعندما فقد الجنود قائدهم سارع قسم كبير منهم الى الفرار ، ولكن بقية الجيش قاومت مقاومة ضارية رغم فقدان القيادة من أجل تأجيل النهاية ، وبقيت مقاومتهم الباسلة مستمرة حتى هلكوا جميعهم بينما كان المدفعيون متعلقين بمدافعهم من اليأس .

وفهم إيفان أنه يلزمه وقت كي يعيد النظام ، فسعى لأن يحصل من ملك بولونيا على هدنة يوقف فيها القتال ريثما يتناقشان في الامور . ولكن تملقات مبعوثيه فشلت . لقد استقبلهم إتيين استقبالاً حسناً ولكنه لم يضعف أو يقلل من نشاط استعداداته للقتال . ورأى القيصر أن عليه أن يجهز جيشاً قوياً جداً ليحل محل الجيوش الممزقة في ليفونيا أو يدعمها ولكي يحمل الحرب الى ليتوانيا بل والى بولونيا نفسها . وفي الخامس من كانون الاول ديسمبر ١٥٧٨ بدأت استعدادات روسيا لحرب على نطاق واسع وأعد القيصر جيشاً من ثمانية وعشرين ألف رجل أعطى قياداته الرئيسية الى القيصر السابق سيميون غراندوق تفير وإيفان موتيسلافسكي ودانييل نوغتييف وآخرين . أما إيفان نفسه فقرر الذهاب الى نوفغورود ولكنه لم يفعل قبل شهر تموز يوليه من عام ١٥٧٩ . وكان كل شيء يرتبط بهجوم مفاجيء على إتيين بغية إخافة الدييت البولوني الذي كان أكثر نزوعا الى السلم من الملك . وفي آب اغسطس فتح البولونيون والليتوانيون مرحلة جديدة من الحرب بإلقائهم الحصار على بولوتسك .

وهكذا اخذ الملك إتيين زمام المبادرة . وكان إيفان قد اكتفى بعمليات لا مغزى لها في ليفونيا . وكان لا بد أن يكون لديه ما لا يقل عن مائة ألف رجل بعد إنشاء جيشه الجديد الذي أصبح على الجبهة بحيث يستطيع التقدم بكل ثقة نحو فيلنا أو فارصوفيا ، ولكنه أحب أن ينتظر ليرى ما سيفعله خصمه لكي يرد بعد ذلك . وقد أرسل جيش دعم غير كاف من أجل انقاذ بولوتسك دون أن يتوقع ما كان يتمتع به ملك بولونيا من جراة ونشاط . وكانت حامية بولوتسك الروسية قد قاتلت بكل بسالة حتى أحرقت المدينة على يد عصبة مقدامة من الهنغاريين وتلا ذلك هجوم عام رد فيه المهاجمون وسط النار والدخان . وعلى العكس من سياسة الإرهاب التي كان يتبعها إيفان فإن إتيين عرض على المدافعين أن يمنح الحرية وسلامة الوصول الى الحدود الروسية لكل من يستسلم منهم ، ولكن المدافعين كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم من غضب القيصر لو

قبلوا بالاستسلام ، وهكذا انقسمت الاراء . وكان جيش المساعدة الذي ارسله ايفان سيء القيادة ، وبعد ستة اسابيع من الهجوم الفاشل سقطت بولوتسك بين يدي الملك وعادت الى لتوانيا بعد ان بقيت ثمانية عشر عاما في حيازة الروس . وكان الملك الجديد قد سوغ المصاريف التي ستنفق على مشروعه هذا والأخطار التي يمكن أن تنجم عنه .

وقد دمر في ذلك الوقت معظم جيش المساعدة الذي حوصر فيحصن سوكول على يد جيش ليتواني . أما إيفان الذي شل بهذه الهزائم فقد بقي في بوسكوف من غير عمل دون ان يصدر أوامره باي هجوم معاكس. وكتب كوربسكي الى القيصر « أين هي انتصاراتك الان ؟ » ، ولم يجبه ايفان ، بل على العكس من ذلك أخذ يلتمس الصلح بكل تواضع .

في نهاية العام ضحك الحظ للروس في حملتهم على ليفونيا ، فهانيبال المرهوب الجانب تمت هزيمته واسر واقتيد الى بسكوف حيث نفذ فيه حكم الموت . ولكن انتصارات ليفونيا لم تغير مجرى العمليات العام . وعاد إيفان الى موسكو ورد البولونيون بتبجح على عروضه الصلح طالبين منه التنازل عن نوفغورود وبسكوف ولوكي والاراضي المتاخمة . وكان الملك إتيبين يعاني من بعض المصاعب لأن المرتزقة عنده كانوا يطالبون بدفع اجورهم والخزينة فارغة ، ولكنه كان مقترضا واسع الموارد يستطيع ان يخاتل ويكثر من الوعود ، كان هوسه مهنة الحرب ولم يكن لـه اي ميل للادارة والسياسة والشؤون المالية . لقد خرج ليسحق قوة إيفان في الغرب ولن يتوقف قبل أن يحقق هدفه .

واتى عام ١٥٨٠ فلم يكن من الأعوام الكثيرة الحركة . ولكن الملك إتيبين خرج على رأس جيشه في نهايـة الصيف فاوغل في غزو روسيا حتى وصل الى جنوب نوفغورود وبلغ مدينة فيليكي لوكي الكبيرة التي القى عليها الحصار . وقصة الحصار هنا تشبه ما حدث في بولوتسك، فبعد أن استولى على المدينة هزم جيش المساعدة الذي كان يقـوده الامير كيلكوف . وفي اثناء العمليات كان مبعوثو القيصر يزحفون بشكل

مثير للشفقة الى أقدام إتيين يستجدون الصلح . وانتزعت مدن روسية اخـرى بينما كان السويديون ينتصرون في ليفونيـا في كل مكان على الموسكوفيين المحبطـين . وأمحى القسم الأكبر من انتصارات إيفـان الامبراطورية بسرعة كبيرة بينما كان القيصر يهرم وينحني منـه الظهر . فمن يحكم الآن روسيا كان عجوزاً . فهل من علامات السن انه أصبح أكثر رقة ولم يعد يحمل لقواده ما يشعر به في داخله من استياء ؟ كتب يقول بدون غضب : « ثابروا واتبعوا الطريق الذي حدده الله لكم ، فأملي منصب كله على مساعدة الله وما تبذلونه من حمية وحماسة » .

ولكن القيصر بعد أن تخلى عن زوجتيه الخامسة والسادسة اتخذ له الان زوجة سابعة هي ماريانا غايا « أي ماريا العارية » . وكانت ابنة لأحد كبار موظفي البلاط . ولكن القيصر لم يأخذها الى الهيكل لأنه كان من البديهي وجود صعوبات امام حصوله على موافقة الكنيسة . وهكذا استطاع مؤرخ هذه الحادثة ان يسمي هذه الزوجة ـ علـى هـواه ـ « خليلة القيصر » على الرغم من أن بيتها كان بيت الزوجية . وقـد عوملت ماريا حقا على أنها زوجة شرعية . اما اصغر ابناء القيصر فقـد تزوج هو الاخر وفي الوقت نفسه فتاة اسمها ايرينا هي اخت بوريس غودونوف .

وأما الملك إتيين الذي هتف له في بولونيا على انه بطـل كبير فقـد أفاد من وسواس القيصر المرضي . ولم يكن قد هيىء له أن يقاتل ضد روسيا حقيقية مقاتلة ، فقد كان موفدو القيصر يلاحقونه من مكان الى مكان ويتذللون أمامه حتى تمريغ جباههم في الارض . كان بطلا ، ولكنه كان يمتلك فكرة مهووسة عن رسالته التي لم تكن أقل من إخضاع روسيا كلها والحاقها ببولونيا . وقد أثار تذلل القيصر أطماعه حتى سـمح لنفسه بأكثر الادعاءات تجاوزا وتطرفا . ولم يكن المرتزقة الهنغاريون والالمان الذين يرتبطبهم بشكل رئيسي بقادرين على تأمين النجاح لمخططاته وعندما يغـزو روسيا لا يكون عندئذ في حرب مع إيفان وحـده بل مع الشعب الروسي كله ، فعلى الرغم مـن جبن القيصر وتردده هبـت

جيوش جديدة ضخمة الدفاع عن ارض الوطن كما لو أنه كان تحت وطأة غزو تتري جديد . وقد وصلت هذه القوات من الجنوب والشرق ويقدرون أن ثلاثمائة الف رجل كانوا في عام ١٥٧٨ يمشون الى الغرب لمواجهة العدو والقى الملك إتيين الحصار على بسكوف حيث اصطدم بمقاومة بطولية دمرت معنويات جيشه الخليط بسرعة كبيرة ، وهناك لاحظ أن الروس بدفاعهم عن أرضهم يكونون ادعى للخوف منهم عندما يحاربون خارج حدودهم بعشر مرات . واضمحل حلمه الكبير في ضم روسيا الى بولونيا ، ثم فهم أخيراً أن من الحكمة ان يدعم انتصاراته بصلح معقول . وكان الروس قد طردوا من ليتوانيا وليڤونيا على السواء ورأى من واجبه أن يكتفي بمنعهم بواسطة معاهدة من أن يقوموا باعتداءات جديدة على هذه الارض في المستقبل .

كانت تلك أكبر إهانة تحملها القيصر طوال عهده . فهذا الجيش المؤلف من ثلاثمائة الفا رجل من الجنود الطيبين كانت تنقصه روح التلاحم والانضباط ليتمكن من مواجهة ستة وعشرين الف رجل يكادون أن يكونوا كلهم من المرتزقة . وهكذا خاب المخطط الامبراطوري في دفع الحدود الروسية حتى البلطيق وأصبح خرافة تأجل تحقيقها الى زمن تاريخي لاحق حيث سيقوم بطرس الأكبر بتحريكها وإنعاشها . إلا أنه ترافق مع هذا الاخفاق الكامل في الغرب انتصارات مجيدة تحققت في الشرق ، فعلى الجانب الآخر من الڤولغا تمكنت حفنة من القوزاق والمتشردين بقيادة ايرماق البطولية أن تحمل لقيصر روسيا لاول مرة أرض سيبريا ، وبذلك دخلت روسيا الى النصف الشمالي من القارة الاسيوية الذي كان يومذاك خاليا من السكان . وكانت هذه المأثرة قد بدأت بدون إذن من القيصر . والحقيقة أن تاريخ هذا الفتح الأول إنما يرتبط بعهد إيڤان أكثر من ارتباطه بسيرة حياته لأنه لم يساهم فيه شخصياً إلا مساهمة لا يكاد يكون لها وزن .

إنها قصة إيرماق البطل الذي قرر أن يتخلى عن حياة التشرد وقطع الطريق ليدخل في خدمة « القيصر الابيض » . فذهب مع أقل

من ألف من الرجال يكادون أن يكونوا كلهم من القوزاق واحــرز اول انتصاراته في ٢٢ تموز يوليو ١٥٨١ وساعده في عمله مساعدة كبيرة عدد من التتر ومن الأسرى الليتوانيين والألمان ولكن الجسم الرئيسي مــن جيشه الصغير كان مؤلفاً من قوزاق الدون . وعندمــا وصل القيصر خبر اول الاضطرابات على الحدود غضب غضبا شديدا على مسببي اعمال العنف هذه التي تمت بدون ترخيص منه وأمر باعتقال ايرماق وارساله الى بيرم . الا ان انتصارات القوزاق ما لبثت أن وضعت حدا لاستيائه . ولم يلق هذا الجيش الصغير بعد اجتياز الأورال ببنادقه القديمة ومدافعه الا مقاومة ضعيفة وهــو يستولي باسم القيصر على أراض شديدة الاتساع . وفي السادس والعشرين مــن تشرين الاول اكتوبر ١٥٨١ وصل إيرماق الى نهر إيرتيش أو سيبير حيث استولى على غنيمة كبيرة من الذهب والحجارة الكريمــة والسجاد والفراء من شعب الأوستياك الذي كان يعيش هناك حتى ذلك الوقت بسلام على الوثنية ويعبد أصناماً من الذهب .

وفي الربيع من عام ١٥٨٢ تابع إيرماق الفتح في الأراضي الواقعة بين الإيرتيش والأوبي متبعاً نحو الشمال مجرى الأول من هذين النهرين . وقد بلغ الأوبي بعد سلسلة من المعارك الصغيرة أمن له التفوق فيها بارود مدافعه . ثم توقف إيرماق عند أوبي وأرسل الى إيفان تقريراً مرفقاً بهدايا ثمينة تقبلها القيصر وغدا معجباً وسعيداً بأن يشاهد مثل هذه الاراضي الشاسعة تضم الى تاجه . وقامت في موسكو الاحتفــالات . ولكن جيش الغزو ما لبث أن انسحب بعد موت إيفان وغرق إيرماق نفسه وهو يحاول اجتياز الإيرتيش سباحة وهو بكامل سلاحه ، إلا أن ممراً الى أعماق آسيا الشمالية كان قد فتح وأصبح مطروقاً وكان الروس يعدون انفسهم لاقتحامه من جديد .



الفصل الثاني والثلاثون

مـوت ولـي العهـد

بالرغم من أن إيفـان غدا هادئاً بشكل جلي اثنـاء تلك السنوات الأخيرة من حياته فإن المرء ينخدع إذا تخيل أنه لن يقوم بأحداث تسوغ لقبه « الرهيب » . ففي عام ١٥٧٩ أمر بإحراق الدكتور إيليزوس بوميل على نار هادئة . وكان هذا الدكتور عالماً ماهراً وفلكياً القيصر قليل الوساوس ولكنه ضبط وهو يقوم باتصال سري مع ملك بولونيا . كان بوميل المانياً درس في جامعة كمبردج يهتم بالرياضيات وأستاذاً في « العلم العجيب » . وكانت الملكة إليزابت قد سجنته بسبب من أعمال السحر ولكن سمعته تسربت من خلال جدران السجن حتى وصلت الى مسامع السفير الروسي سافين الذي حصل له على حريته على شرط أن يذهب الى روسيا ويدخل في خدمة القيصر . ونحن نتساءل اليوم عما إذا كانت النجوم لم تنبىء إليزيوس بوميل عن هذا التغير في حظه العجيب .

وهكذا ذهب الى روسيا مع زوجته الإنكليزية الشابة وغدا فوراً محظي البلاط وواحداً من خلصاء القيصر المقربين واحتل مكانة مساوية لمكانة المعرّف التي كانت تحتل الجهة المقابلة للسحر الأسود . ويقال إنه كان يحضّر لسيده سموماً بارعة ، ولكن هذا الادعاء قد يكون مجرد افتراء ساقته الى سمعته أوروبا الغربية . فالقيصر لم تكن له سمعة من يقوم باستعمال السموم في الخصوم لأنه كان يفضل أن يرى الدم يسيل من ضحاياه ، وإنما يمكن الاعتقاد بأن الدكتور كان كاهناً في قضايا الفجور لأنه ما لبث أن اكتسب سمعة سيئة .

وإليك كيف وصف مؤرخو العصر نهاية المنجّم الرهيبة :

« قدّم بوميليوس وهو على الحمّالة ويداه مشدودتان الى الخلف مخلعتا الأوصال وساقاه منفرجتان ابتداء من وسط الحقوين وجسده ممزق من ضرب السياط المصنوعة من شرائط الحديد ، قدّم اعترافات كثيرة اكثر مما طلب منه ومما ينبغي للقيصر ان يعلم . وأصدر الإمبراطور امره بأن يشوى . فأخذ وربط الى وتد من الخشب واخذ جسده وظهره الداميان ينضجان حتى ظُنّ أنه لم يعد فيه قبس من حياة . ثم رُمي به فوق زلاجة واقتيد عبر القصر حتى أوصلوه الى زنزانة حيث مات » .

وفي العام التالي ١٥٨٠ دعا القيصر اكثر رجال الدين اهمية ليعرفهم بالأخطار التي كانت تتهدد الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة لغزو جيوش الغرب . وكانت عيناه منذ أمد طويل تتطلعان الى ممتلكات الأديرة وأصبح لديه الآن سبب مقبول للاستيلاء عليها هو ضرورة دفع أجور الجيش الضخم الذي كان قد جنده في وجه الملك إتيين . كان شرهه كبيراً ، ولكنه كان يدعي أن أولئك الذين تخلوا عن الدنيا لا ينبغي لهم أن يسلموا انفسهم تماماً لمنافع الزراعة والتجارة . وقد وصلت إلينا من أخبار ذلك العصر مجموعة من الخطب التي القاها القيصر في هذه المناسبة :
« ... يتذمر النبلاء والشعب من أنكم للمحافظة على طبقتكم تمتلكون كل الكنوز التي تقدمها الأرض عن طريق التجارة في جميع انواع المنتجات قاطعين على الناس عن طريق التجارة غير المشروعة فوائد الأسفار . فعن طريق الامتياز الذي تتمتعون به بالا تدفعوا اية رسوم جمركية لعرشنا ولا أية ضريبة الحرب ، وعن طريق إرهابكم لضمائر الأنبل والأقدر والأفضل من رعايانا حصلتم — وذلك في حساب دقيق — بسحركم وتعازيمكم على ثلث واردات المدن والقرى في المملكة . تشترون وتبيعون نفوس شعبنا وتتمتعون بحياة البطالة في اللذائذ والمسرات ورفاهية العيش ، وترتكبون أفظع الخطايا والإبتزازات والمفاسد والفسق . تغطيكم كل انواع الخطايا الدامية الصارخة وانواع الظلم والجور والشره

والكسل واللواط وأكثر من ذلك واسوا إذا كان ثمة ما هو اسوأ من مضاجعتكم للحيوانات . الا يمكن أن تكون صلواتكم لا تنفعني ولا تنفع اي فرد من أفراد هذا الشعب ؟ ... فليسا محنى الله إذا كنت أشارككم فيها ... لقد كنت اميل غالباً الى حلكم لإصلاح شأن الآلاف من أفراد طبقة النبلاء من الفقراء الذين قدّم لكم أجدادهم القسم الأكبر من مداخيلكم التي هي من حقهم بكل شريعة وقانون ... وشعبي ورعيتي من الأغنياء الذين افترتموهم بسطوكم ونهبكم وخداعاتكم الشيطانية لكان بإمكانهم ان يكوّنوا امة مزدهرة او كانوا قد تصرفوا بطريقة اخرى. إن دخولكم — عدا ما تمتلكونه من كنوز — تتجاوز كثيراً ما يمكنكم أن تنفقوه على معيشتكم المرفهة المبذرة » .

وتابع القيصر كلامه فامر الأساقفة — الذين كان رئيسهم في هذا الاجتماع اسمه الكسندر ويحتل منصب مطران نوفغورود — ورؤساء الأديرة وارشمندريتات ترويتسكي وغيرهم « بأن يحملوا لنا بياناً دقيقاً وأميناً عن مجموع ثروتكم والدخول السنوية لكل بيت فيكم » .

وبعد ذلك دخل إيفان في واحد من تلك النقاشات الدينية التي تسره وترضيه . وكان مستعداً لقضاء الأيام والأسابيع في الجدل حول الروح القدس مع رجال الكنيسة لو أن نواياه كانت جدية . وعلى الرغم من أنه سمح بالاعتراض فإنه لم يكن يتحمله ولا يرضاه . وقد اختار القيصر يومئذ اشد المعارضين من رؤساء الاديرة وعاقبهم بأن « أرسل يستدعي عشرين من أبرزهم ونسب إليهم جرائم بغيضة مفزعة وأتهمهم بالخيانة بالبينة والبرهان بحيث بدت التهمة حقيقية ومعلنة ومدانة من جماهير الشعب . ولنصل الآن الى المأساة المسلية التي بذلتم جهدكم في انتظارها: امر الإمبراطور بإخراج دبب كبيرة متوحشة رهيبة كان يحتفظ بها في اقبية وأقفاص سود لتسليته وتمضية وقته في عيد القديس اسحق في سلوبيدا فيلسكا (الكسندروف) . وجرى الاحتفال في مكان واسع تحيط به جدران مرتفعة . واقتيد حوالي سبعة من الرهبان المتمردين ، ضخاماً وسماناً ، بعضهم بعد بعض ، يحمل كل منهم صليباً ومسبحة

في إحدى يديه ويحمل في الأخرى ـ بفضل من الإمبراطور ـ حربة بطول الرجل ليدافع بها عن نفسه . وأطلق دب غاضب فاغراً فاه وهو يزمجر فمزق ثياب الراهب . وانطلق صياح الجمهور وصراخه فجعل الحيوان أشد غضباً . ثم انقض الدب مرة أخرى على الراهب فخدشه بمخالبه وسحق رأسه وجسمه وانتزع منه الأمعاء والرجلين والذراعين كما يفعل هر بفأر . ومزق رداءه الكهنوتي مزقاً حتى وصل الى اللحم والدم والعظم ، وهكذا افترس راهبه الأول . ولكن الدب قتل بدوره ومزق قطعاً على يد المدفعيين . وجاء دور الراهب الثاني والدب الثاني ، وكلاهما طازج جديد ، وهكذا اقتيد كل من الرهبان السبعة بمفرده حتى تم افتراسهم على الطريقة نفسها عدا راهباً أكثر خبثاً من الآخرين تمكن من استعمال حربته بمهارة مسنداً طرفها على الأرض وموجهاً طرفها الآخر الى صدر الحيوان ، فلما انقض هذا عليها اخترقت صدره ولكن دون أن يمنعه ذلك من افتراس الراهب ، ومات الإثنان في اللحظة نفسها . وقد رفع هذا الراهب الى مرتبة القديسين على يد الأخوة من الرهبان الذين بقوا على قيد الحياة في دير ترويتسكي . وإذا كانت هذه التسلية ممتعة للإمبراطور وبقية المشاهدين فإنها كانت رهيبة ومقززة في نظر كل الرهبان الذين كانوا قد دعوا الى هذا الاجتماع كما رأيتم ، وكانت النتيجة أن اختير سبعة آخرون منهم ليعاقبوا بالحرق » .

فالقيصر إذن لم يكن يخشى الكنيسة لأن المتروبوليت لم يكن يتجرأ على حرمانه وقد تحداه علناً فيما كان يرتكبه من خطايا . فلا ينبغي الظن انه كان يخشى غضب رجال الدين الذين يملكون الأراضي والعقارات إذا تعدى على ممتلكاتهم . وهكذا نفذ مشروعه وشاركهم مشاركة جوهرية في أموالهم بحيث غذى ميزانياته القتالية والشخصية على السواء . والأكثر من ذلك انه أقنع الكنيسة بأن تتخلى في المستقبل عن اكتساب الملكيات سواء عن طريق الشراء أو طريق الهبات . ولكن هذا التخلي ما لبث أن أصبح حبراً على ورق بعد حين ، فالرجال والنساء كانوا متطيرين فلم يستطيعوا أن ينسوا أن عليهم شراء دخولهم الى

السماء عن طريق تقديم الهبات الى الكنيسة ، وحتى إيفان نفسه بعد أن قتل ابنه قدّم الكنيسة مبالغ طائلة لم يدفع مثلها في حياته لتقيم صلوات تدوم الى الأبد .

وتلك بديهية مسلم بها من انك إذا ضربت قريبك فإنما تضرب نفسك . وإليك على ذلك مثال عالي المقام . كان من لحمه ودمه . لم يكن اقرب الى إيفان من ابنه البكر ولي العهد إيفان ثمرة زواجه الغرامي، هذا الزواج الأول اللذيذ المذاق من أنا ستاسيا ، ذلك الزواج الذي لا يمكن له أن ينساه . ومع ذلك فإنه في حركة طائشة من جنون قاتل أمر بقتله ، وتلك العصا ذات الرأس الحديدية التي طالما قتلت العديد من الناس هي التي قتلت وريثه العزيز .

حدث ذلك في الكسندروف خلال الخريف عام ١٥٨١ على أثر نقاش حاد انتهى بإيقاد غضب القيصر . وكان بوريس غودونوف حاضراً . ومن أيضاً ؟ . لا نعرف عن ذلك شيئاً . وقد وصل إلينا خبر هذا النقاش على أشكال مختلفة وربما كان قد ورد في كل كتابة عنه جزء من الحقيقة . والروس ثرثارون . ولا شك أن غودونوف روى الحادث لأصدقائه الذين أعادوه على طريقتهم الخاصة على أسماع الآخرين . ومن المحتمل انه في صباح يوم الجريمة اختصم القيصر وابنه في موضوع تهجم كان يقوم به القيصر على زوجة ولي العهد . فقد وجد القيصر كنته ترتدي تنورتين بدلاً من ثلاث واعتبر ذلك بعيداً عن الاحتشام . ورغم أنها كانت حاملا فإن القيصر أخذ في ضربها فكان ذلك سبباً لتدخل ولي العهد . وتبودلت كلمات بذيئة واتهم الابن أباه بأنه كان قد نغص سعادته مع زوجتيه السابقتين وسأله ما إذا كان ينوي ذلك مع زوجته الثالثة . ونحن لا نعتقد بأن القيصر كان حتى تلك الساعة قد ضرب والده رغم ما أظهره من غلظ . ولكن غيظه انفجر بعد ذلك أثناء النهار وربما كان ذلك بعد العشاء . كان القيصر بطريقته المتملقة الشاكية يتباهى أمام ابنه بأهمية كنوزه ويذكر له مدى الثروات الكبيرة التي سيرثها بعد موته وكيف أنه كان سعيداً بأن يترك له كل

شيء . ولكن ولي العهد اخذ يضحك هازئاً مما سمع : « إن شجاعة شبيهة بما يملكه ملك بولونيا هي اكثر نفعاً من أموالك » ، هذا ما قاله لأبيه ، « فأي نفع في الثروة إذا لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحافظ عليها ؟ » . وطفح غضب القيصر . ونحن لا نعرف جوابه ولكنه كان في تلك الحقبة متأثراً اشد التأثر بما سببه لروسيا من هزائم تستحق الرثاء . كان يعرف ما كان يدور على لسان القوم من دمدمات ، وأن الكثيرين يعتبرونه جباناً . بل وأن بعضهم كان يتساءل انه طالما كان القيصر شيخاً على إدارة شؤون الحملة فلماذا لم يرسل ابنه ليرفع من جديد شرف روسيا وسمعتها في ميدان النزال .

وسأل إيفان الشاب : « لماذا لا تتركني اقود جيشاً واستعيد ما فقدناه ؟ » .

وكان السؤال بغيضاً . يقود جيشاً ، وينتصر ، ويعود ، ويضع نفسه على رأس المستائين ، ويغتال أباه بدون شك او يجبره على التنازل عن العرش ! . وجعل الغضب والريبة الدم يصعد الى عيني الشيخ فرفع عصاه المشؤومة وضرب بها ولي العهد عدة مرات ثم وجه إليه ضربات وحشية على رأسه من طبرتها الثقيلة . وقد حاول بوريس غودونوف الذي شهد الحادث أن يوقف هذا الوابل من الضربات ولكن تدخله لم يكن ذا فائدة إذ سقط ولي العهد ووقف القيصر امامه وعصاه الدامية في يده مخبولا مما فعل ، وكان ندمه سريعاً كغضبه . وانحنى ليحمل ابنه المسكين والألم يجتاح ثناياه وهو يصرخ : « لقد قتلت ابني ، لقد قتلت ابني ! » ، ويضم الوجه الشاحب الملتحي الذي كان يمسك به بين يديه . وأخيراً حاول أن يوقف النزيف واضعاً إحدى يديه على الجرح العميق دون أن يتمكن من تحقيق ذلك . كان يبكي متضرعاً الى الله والناس ، يزأر بالأنين حتى وصل الأطباء .

لم يكن ثمة أمل في أية مساعدة . كانت جروح إيفان الصغير مميتة . وعندما أفاق قال بصوت خافت إنه يسامح اباه . ولكن السماح الذي

كانت نفس إيفان بحاجة إليه هو أن يعود ابنه الى الحياة وكان هـذا بعيد المنال . كان الأطباء عاجزين . وفي التاسع عشر من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٨١ توفي ولي العهد . كان القيصر في الحادية والخمسين وابنه في السابعة والعشرين .

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر لبس جميع أفراد البلاط ثياب الحداد وقدموا في موكب مـن الكسندروف الى موسكو يحرسون العربة التي تحمل جثمان ولي العهد . واقيمت له جنـازة حافلة . وكان إيفان يقتلع شعر راسه وينتحب مظهراً من الألم ما لم يظهره منذ موت أناستاسيا . ولكن بعكس ما جرى يومذاك فإنه لم يقفز هذه المرة من الحداد الى الفجور لأن انهياره كان كاملا . وقد دفع مبالغ طائلة لتخليد ذكرى ابنه أمام الله واعترف أن حياته لم يعد لها هدف وانها اصبحت خواء . وعاد من جديد الى أفكاره في التخلي عن العرش واصبح له اكثر من اي وقت مضى هيأة رجل فقد الإتزان . لم يعد يهتم بملبسه الذي أهمله إهمالاً كاملاً منذ ذلك الوقت ، وصار رجال حاشيته يتجنبوه كما كان يتجنبهم هو نفسه ، وفي كل ليلة كان يسقط من فوق سريره ، وكمن يمشي في نومه كان يطوف في ارجاء القصر كأنه يبحث عن ابنه المفقود ، وفي الصباح كانوا يجدونه مستلقيا في اي مكان على الأرض كما لو أنه مغمي عليه .

في هذه الحالة العقلية جمع البويار واحاطهم علماً بأنه عازم على التخلي عن العرش لكي يجد راحة النفس في أحد الأديرة . « إن ابني الصغير فيدور لا يصلح للحكم فينبغي استبعاده . فاختاروا لكم قيصراً ، وعندما يقع اختياركم على أحد ابلغوني كي أتخلى له طواعيه عن صولجاني وتاجي » . إلا أن العرض كان خطراً للغاية . ومهما كانت مشاعر المجتمعين فإنهم توسلوا بصوت واحد الى القيصر الذي منحه الله لهم بأن يبقى على راسهم حتى نهاية ايامه . وتنهد العاهل ، وكما لو أنه كف عن معارضتهم وعدهم من اجل إرضائهم بأن يتابع إدارته الخيرة فوق رؤوسهم .

الفصل الثالث والثلاثون

مــوت إيفــان

خلال عام ١٥٨٣ سطر القيصر قائمة بأكثر من ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء هم من كان قتلهم أثناء عهده وأمر بأن تقام من أجلهم الصلوات في دير القديس سيريل في بيبلوزيرسكي . وقد كتبت هــذه الأسماء كلها بشكل فظ وبأحرف كبيرة ، ولابد أنه قضى وقتاً طويلاً مع سكرتيره أو مرشده ليتذكر هؤلاء الضحايا الأبرياء ، ولابد أنه نسي قسماً منهم أيضاً . وفي رأس القائمة كان يوجد اسم الأميرة ييفدوكيا الذي كتب الى جانبه أنها أغرقت بأمر من القيصر ، وهي نفسها أفروسين والدة فلاديمير أندرييفتش .

ومن الممكن أن إيفان قبل إعداد هذه القائمة كان يحس بقــرب أجله ، فقد انتابه انحطاط جسدي سريع سبب له قلقاً كما سببه لأطبائه . اما ماقاله لمرشده وما حصل عليه من تشجيع ديني فهذا ما نجهله . فالدكتور بوميل كان قد قدمه للشيطان . وفي أيامه الأخيرة كان السحر الشاغل لتفكيره حتى أنه عندما كان نيزك يظهر في السماء ويتقدم فوق موسكو كان يناله رعب شديد وقد أُحضر إلى البلاط عدد كبير مــن العرافين الذين لانزال حتى اليوم نجد العديد منهم في شمالي روسيا أي في المكان الذي أرسل إيفان يبحث عنهم فيه .

« وأُحضر منهم بأقصى سرعة ستون عرافاً أُغلق عليهم ووضعوا تحت الحراسة وصار يؤتى لهم كل يوم بطعامهم ويزارون . وقد قــال

هؤلاء العرافون إن أفضل العلامات واقوى كواكب السماء لم تكن في مصلحة الإمبراطور الذي اخبروا عن نهايته في يوم محدد ... وانتاب إيفان غضب قوي وقال لهم إنه ربما أحرقهم في ذلك اليوم المذكور . ثم بدأ يتألم من خصيتيه اللتين انتفختا إلى حد كبير .

وكانوا يحملونه في كل يوم على كرسي الى غرفة الخزينة . وفي احد الايام اشار لي الأمير أن أتبعه فمكثت مجازفاً مع الآخرين وسمعته يسأل عن بعض الأحجار الكريمة والمجوهرات ويشرح للأمراء والنبلاء المتحلقين حوله قيمة كل منها .. » . وسمع السير جيروم هورسي كلام القيصر المهووس وهو يلقي خطابه عن العرافة ويسعى لأن يعرف عن طريق النبوءات ما إذا كان سيعيش ، وكتب بعد ذلك ــ بمساعدة الدكتور جاكوب بدون شك ــ ما امكنه تذكره من هذا الكلام .

قال القيصر : « تعرفون كلكم أن حجر المغنطيس يملك قوة مخبأة كبرى لولاها لما أمكن للبحار أن تكون صالحة للملاحة ولا للحد المحيط بالأرض أن يكون معروفاً .. ترون هذه القوقعة الجميلة وهذه الفيروزة . ضعوهما في يدكم وعلى ذراعي . لقد سممني المرض . ترون أن لونهما الجميل غدا شاحباً وهذه دلالة على الموت . أمسكوا بعصاي الملكية . إنها قرن قارن(*) مزينة بأجمل الالماس والياقوت واللازورد والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة ذات القيمة العالية . كلفت هذه الحجارة داود ساور سبعين الفاً من الماركات الإسترلينية عندما اشتراها من اناس في أوسبورغ . ابحثوا عن عناكب » ! .

ورسم القيصر لأطبائه دائرة وضع في وسطها عدة عناكب واحدة بعد أخرى فتلوت كلها وماتت عدا الأخيرة منها . فقال إيفان : « تلك هي علامة أكيدة ، لاشيء يمكنه أن ينقذني » .

---

* القارن LICORNE حيوان اسطوري له جسم حصان كان الاقدمون يعتقدون أن له قرناً في وسط الجبين — المترجم —

« انظروا إلى هذه الحجارة الكريمة !. هذه الماسة هي اغلى واشهر ماسة في الشرق ، ولم اكن استعملها ابداً . إنها تعدل من الغضب والفجور وتجعل المرء زاهداً وعفيفاً . وإذا اخذ اقل جزء منها واحيل الى مسحوق ومزج بالماء امكنه أن يسمم حصاناً فما بالك بإنسان » . وبإصبعه اشار الى ياقوته وقال : « اما هذه فإنها تقدم افضل خير للقلب والعقل وتقوي ذاكرة الإنسان وتنفي الدم المتجلد الفاسد » . واشار الى زمردة وقال : « إنها من طبيعة قوس قزح !. فهذه الحجر الثمينة عدوة الفجور والانحراف . جربوها !. فإذا اجتمع رجل وامرأة بغية الفجور انفجرت بسبب الانحراف عن السلوك الطبيعي إنني اشعر بلذة كبرى في النظر إلى اللازورد SAPHIR فهو يحمي ويزيد الشجاعة وافراح القلب ويرضي كل الحيوي من الحواس . وهو ثمين وناجع لعلاج العين والنظر ويشفي من ضربات الدم ويعطي القوة للعضلات واوتارها ... إنها كلها هبات من الله في طبيعتها أسرار تكشفها لفائدة الإنسان وينبغي النظر إليها على أنها صديقة للفضيلة عدوة الرذيلة ... إنني اشعر بالإغماء ، إحملوني والى موعد لاحق » .

كان الكريملين ينتظر صامتاً . فقد تذكر النبلاء والخوف يملأ قلوبهم كيف أنهم كانوا ينتظرون منذ ثلاثين عاماً موت القيصر ثم ما لبثت أن ردت اليه الحياة . والفرق أن إيفان كان يومئذ منقاداً للقدر بينما هو اليوم لا يريد الموت . كان مريضاً جداً ولكنه لم يكن يعتقد أن وقت المنية قد حان . كانت ارادته القوية وميوله تكافح انهياره الجسدي . وقد عاودته نوباته العصبية وليالي السهاد التي كانت قد أنهكته بعد مقتل ولده . وكانوا ينقلونه خلال الليل الى خارج القصر ليرى النجمة اللامعة في سماء موسكو حيث كان نظره يبقى ساعات طويلة معلقاً بهذا الضياء الرهيب . وبعد ذلك ــ عندما كانوا يعيدونه الى سريره ــ كان يهذي ويصرخ في شروده منادياً ابنه . كان الجميع حوله في حالة رعب . ولكنه ما أن يطلع النهار حتى يستعيد وعيه ويبقى متمتعاً بملكاته العقلية . وكان المنجمون قد توقعوا موته في الثامن عشر من آذار مارس ولكنه لم يصدقهم

بل اخذ يعد العدة لإعدامهم . ولو انه كان يعتقد بقرب المنية لاستدعى المتروپوليت بدون شك وقص شعره على طريقة الرهبان متخليا تماما عن زخارف الدنيا . على أنــه كان على كل حال منشغلا بمــا كان السحرة يبذلون من جهود ولا يستطيع ان يهتم بشؤون المملكة . وفي العاشر من آذار مارس تم على طريق موسكو توقيف المبعوثين الليتوانيين الذين قدموا لمناقشة التدابير الجديدة ؛ وكانت أول اشارة تلقوها هي أن إيڤان كان يواجه احتمال موته الجدي لانه طلب أن يكتب وصية جديدة . وقـد استدعى بوريس غودونوف وعددا من كبار النبلاء واملى امامهم رغباته الجديدة في تعيين ابنه فيدور خليفة له من بعده . وعين لجنة لمســاعدة ابنــه وحمايتــه كانت مؤلفــة من الأمراء إيڤــان شويسكي وإيڤــان موتيسلافسكي ويوريف وبييلسكي إضافة الى بوريس غودونوف الذي كان يفوق الجميع في كفاءته وشخصيته . ثم شكر البويار والقواد على كل ما قدموه له في حروبه مع التتر والبولونيين .

ويقال إن الجميع صلوا من اجل إيڤان حتى أولئك الذين كان معهم كل الحق في أن يكنوا له كل بغضاء ، وصلت موسكو وروسيا كلهــا من أجل هذا الخاطىء الكبير الذي كان سيدهم ولم يتركوه في لحظاته الأخيرة كما قد يخطر على البال ولا نبذوه وراء حدود التعاطف الانساني . وفي أذهان الجميع تولد شعور بعظمة هذا الروسي المدهش بين الروس الذي قدمه لهم القدر سيدا وملكا .

في السابع عشر من آذار مارس شعر إيڤان بتحسن في صحته واخذ حماما ساخنا . ثم صرح بأنه لم يكن أكثر شجاعة مما هو عليه اليوم وامر بأن يعدم عرافوه المحتالون في اليوم التالي . ولكنهم أجابوه « بأن النهار ينتهي بغياب الشمس وأن مناظر آذار قد أهلت ولكنها لم تنقض أيهــا القيصر بعد » .

كل هذا النهار كان القيصر مغتبطا واستدعى مغنيه وغنى معهم . وفي نحو الساعة السابعة طلب الشطرنج ورجا بوريس غودونوف أن يلعب

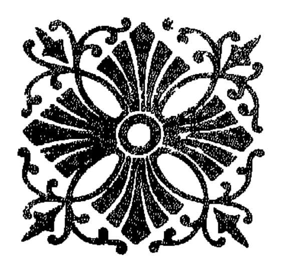
معه . وصف بنفسه قطع الشطرنج ولكن الملك من بينها كان يسقط باستمرار « ولم يكن يستطيع ان يجعله واقفا على رقعة الشطرنج » . ومع ذلك بدأ في اللعب ، وفجأة أصيب بنوبة .

« كان الامبراطور مرتديا رداء مفتوحا وقميصا وجوارب من نسيج الكتان . وفجأة أصابه الوهن وانقلب على قفاه . وقام صياح . وتسارع القوم . بعضهم طلب له خمرا ، وجرى آخر الى العطار يطلب ماء الورد وماء الزهر . واستدعيت روح ابيه كما استدعي المنجمون . وفي خلال ذلك أصابه اختناق فقضي فيه نحبه » . ووصل المتروپوليت وباشر فورا باجراءات التنازل عن العرش مدشنا حياة رهبانية جديدة ، وقبل جثمان إيڤان في عداد الرهبان وأعطي له اسم يوحنا JEAN . أما فيدور ذو البنية الضعيفة والذي لم يكن يأمل في أن يكون له خلف من بعده فقام مقامه على العرش . وغدا غودونوف بموجب طبيعة الأحداث صاحب السلطة المطلقة على كل الروس وانتهى به الأمر لأن يحكم باسمه الشخصي فيما تلا من الأيام .



الفهرس

١٥٠٠ ط١ ١٩٩٦/٨/



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر
٢٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٤٠٠ ل.س